العواصم من القواصم

في تحقيق مواقف الصحابة

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

تأليف

القاضي أبي بكر بن العربي

(٤٦٨ - ٥٤٣)

حققه وعلق حواشيه

محب الدين الخطيب

المكتبة السلفية

القاهرة

الطبعة السادسة

الناشر

المكتبة السلفية

٢١ شارع الفتح بالروضة ـــ القاهرة * تليفون ٨٤٠٣٦٤

رسالة التقدير

وقع هذا الكتاب من أولياء الله وأنصار دينه وأحباب محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين والأنصار موقع التقدير والرضا ، كما وقع من مبغضى الصحابة وشانئيهم موقع السخط والغيظ .

ومن رسائل التقدير والتشجيع التى تلقيناها رسالة كريمة يراها القارئ في الصفحة التالية ، وهى صادرة عن ركن من أركان بيت العلم والهدى فى الأرض المباركة ، أدام الله النفع به .

المملكة العربية السعودية
رئاسة هيئات الأمر بالمعروف بالحجاز

مكة المكرمة
فى ١٣٧٤/٦/٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الفضيلة الأخ الكريم الشيخ محب الدين الخطيب سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد فقد وصل إلى أيدينا كتاب [العواصم من القواصم] للإمام أبى بكر بن العربى ، بتصحيح وتعليق فضيلتكم . وقد اطلعنا على هذا الكتاب العظيم فوجدناه من خير الكتب وأعظمها نفعاً . إذ انبرى مؤلفه رحمه الله يدافع عن حملة الإسلام ومن قامت على كواهلهم دولته ، أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أوفى على الغاية فى تبيين محاسن أولئك الأبرار رضى الله عنهم وأرضاهم ، وإنه لسهم صائب أصاب من باطل أعدائهم — أخزاهم الله — مقتلا . فرحم الله المؤلف وأجزل له الثواب ، وجزاكم الله أحسن الجزاء على تعليقاتكم القيمة التى دلت على سعة علمكم ، وصدق نصحكم للإسلام والمسلمين .

ونحن يسرنا بهذه المناسبة أن نقدم لكم عظيم شكرنا وتقديرنا لعملكم المجيد هذا بإخراجكم هذا الكتاب صيحة تنصر الحق وتخذل الباطل . والبارى يحفظكم .

أخوكم فى الله

رئيس هيئات الأمر بالمعروف بالحجاز

عبد الملك بن إبراهيم

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنعم على الإنسانيّة برسالة الإسلام ، وصلى الله وسلم على الإنسان الأعلىٰ ، والمعلّم الأكمل ، محمد بن عبد الله صفوته من خلقه . وأعلىٰ مقام الذين قاموا بتحقيق رسالته ، ممن تشرّفوا بصحبته ، وأحسنوا الخلافة على أمته ، ومن واصلوا عملهم بعدهم ، ملتزمين سُنّتهم ، ومُتحرّين أهدافَهم ، إلى يوم الدين .

وبعد فإنّ هذا العالم الإسلامىّ نعتز بالانتساب إليه ، ونعيشُ لإسعاده والسعادة به ، قد افتُتح أكثرُه فى الدولة الإسلامية الأُولى بعد الخلفاء الراشدين ودخلَ مُعظمُ شعوبه فى هداية الإسلام على أيدى الخلفاء الأمويين وولاتهم وقوّاد جيوشهم ، إتمامًا لما بدأ به صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم وخليفتاه الأوّلان – أبو بكر وعمر – سلام الله عليهما ، ورضى عنهما وأرضاهما وأحسن جزاءهما عنا وعن الإسلام نفسِه وجميعِ أهله .

وإن حادثةَ انتشار الإسلام ، ودخولِ الأُمم فيه ، أصبحتْ فى ذمة التاريخ. والأجيالُ التى أتتْ بعد ذلك إلى يومنا هذا منهم من يفتخر بذلك ، ويمتلئُ قلبه سرورا به ، ويدعو بالخير لمن كانوا سبب هذا الخير العظيم . ومنهم من ابتأس به ، وامتلأ فؤادُه حقدًا على الذين عملوا فيه ، وجعل من دأبه أن يصِمهم بكل نَقيصة .

وقد نعذر الذين لم يذوقوا حلاوة الإسلام ، وحالت البيئةُ بينهم وبين الأُنس بعظمته ، وشريف أغراضه ، وسيرة الذين قاموا به ، إذا نظروا إلى تاريخ الإسلام نظرة خاطئة ، واتخذوا له فى أذهانهم صورة غير صورته التى كانت له فى الواقع . ولكنى أعترف – ولا فائدة من الإنكار – بأن فى المنسوبين إلى الإسلام من يبغض حتى الخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويقلب جميع حسناته سيئات . وإن أحد الذين شاهدوا بأعينهم عدلَ عمر ، وزهده فى مُتع الدنيا ، وإنصافه لجميع الناس ، لم يستطع أن يمنع الحقد الذى فى فؤاده على الإسلام من أن يدفعه إلى طعنه بالسكين دون أن يسئ إليه . وفى قومِ طاعنِ عُمَر بالسكين من يؤلِّفون المؤلفات إلى يومنا هذا فى تشويه حسنات هذا المثل الأعلى للعدل والإنسانية والخير . وفى عصر عثمان منْ ضاقتْ صدورهم بطيبة ذلك الخليفة الذى خُلق قلبُه من رحمةِ الله ، فاخترعوا له ذنوبا ، وما زالوا يكرِّرونها على قلوبهم حتى صدّقوها ، وتفنَّنوا فى إذاعتها ، ثم استحلُّوا سفك دمه الحرام ، فى الشهر الحرام ، بجوار قبر أبى زوجتيه محمد عليه الصلاة والسلام . وما برحت الإنسانيةُ تشاهد المعجزات من رجالات الإسلام فى نشره وإدخال الأُمم فيه وتوسيع النطاق فى الآفاق لكلمة « الله أكبر ... حىَّ على الفلاح » حتى نُودِى بها على جبال السندِ ، وفى ربوع الهند ، وعلى سواحل المحيط غربًا ، وفى أوْدِية أُوربا وجبالها ، بما لم يملك أن يصفه حتى أعداءُ الإسلام إلا بأنه معجزة . كل هذا فى زمن هذه الدولة الأموية ، التى لو صدر عن المجوس

وعبَدَة الأوثان عُشرُ ما صدر عنها من الخير ، وجزءٌ من مائة جزءٍ مما أُثِر عن رجالها من إنصاف ومروءة وكرمٍ وشجاعة وإيثار وفصاحة ونُبْل ، لرفعوا لأُولئك المجوس والوثنيين ألوية الثناء والتقدير ، لكنه فى الخافقين . والتاريخُ الصادق لا يريد من أحد أن يرفع لأحد لواء الثناء والتقدير ، لكنه يريد من كل من يتحدّث عن رجاله أن يذكر لهم حسناتهم على قدْرها ، وأن يتّقى الله فى ذكر سيئاتهم فلا يبالغ فيها ، ولا ينخدع بما افتراه المغرضون من أكاذيبها .

ونحن المسلمين لا نعتقد العصمة لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل من ادّعىٰ العصمة لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كاذب . فالإنسان إنسان ، يصدر عنه ما يصدر عن الإنسان ، فيكون منه الحقّ والخير ، ويكون منه الباطل والشر . وقد يكون الحق والخير فى إنسان بنطاقٍ واسع فيُعدّ من أهل الحق والخير ولا يمنع هذا من أن تكون له هَفوات . وقد يكون الباطلُ والشرّ فى إنسان آخر بنطاق واسع ، فيُعد من أهل الباطل والشر ، ولا يمنع هذا من أن تبدر منه بوادر صالحات فى بعض الأوقات .

يجب على من يتحدّثُ عن أهل الحق والخير إذا علم لهم هفوات ، أن لا ينسى ما غلب عليهم من الحق والخير فلا يَكْفرُ ذلك كلّه من أجل تلك الهفوات . ويجب على من يتحدّث عن أهل الباطل والشر إذا علم لهم بوادر صالحات ، أن لا يوهم الناس أنهم من الصالحين من أجل تلك الشوادر الشاذة من أعمالهم الصالحات .

إن أحداث المائة الأولى من عصور الإسلام كانت من معجزات التاريخ ، والعملُ الذى عمله أهل المائة الأولى من ماضينا السعيد لم تعمل مثله أمةُ الرومان ولا أمةُ اليونان قبلها ، ولا أمةٌ من أمم الارض بعدها .

وأما أبو بكر وعمر ، وسائر الخلفاء الأربعة الراشدين ، وإخوانهم من العشرة المبشرين بالجنة ، وطبقتهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خصوصًا الذين لازموه وراقبوه وتمتعوا بجميل صحبته — مَن أنفق منهم من قبل الفتح وقاتل ، والذين أنفقوا من بعد وقاتلوا — فإنهم جميعًا كانوا شموسًا طلعت فى سماء الإنسانية مرّة ، ولا تطمع الإنسانية بأن تطلع فى سمائها شموس من طرازهم مرة أخرى ، إلا إذا عزم المسلمون على أن يرجعوا إلى فطرة الإسلام ، ويتأدّبوا بأدبه من جديد ، فيخلق الله منهم خلقًا آخر يعيش للحق والخير ، ويجاهد الباطل والشر ، حتى تعرف الإنسانية طريقها الحقيقى إلى السعادة . وهذه الشموس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تتفاوتُ أقدارها ، وتتباين فى أنواع فضائلها ، إلا أنها كلّها كانت من الفضائل فى مُرْتقى درجاتها . وإذا بدأ المشتغلون بتاريخ الإسلام من أفاضل المسلمين فى تمييز الأصيل عن الدخيل من سيرة هؤلاء الأفاضل العظماء ، فإنهم ستاخذهم الدهشة لِما اخترعه إخوان أبى لؤلؤة ، وتلاميذ عبد الله ابن سبأ ، والمجوس الذين عجزوا عن مقاومة الإسلام وجهًا لوجه فى قتال شريف ، فادّعوا الإسلام كذبًا ، ودخلوا قلعته مع جنوده خِلسة ، وقاتلوهم بسلاح (التقيّة) بعد أن حولوا مدلولها إلى النفاق ، فأدْخَلُوا

على الإسلام ما ليس منه ، وألصقوا بسيرة رجاله ما لم يكن فيها ولا من سجية أهلها . وبهذا تحوَّلت أعظمُ رسالات الله وأكملُها إلى طريقة من الخمول والعطالة والجمود كان من حقها أن تقتل الإسلام والمسلمين قتلا ، لولا قوة الحيوية الخارقة التى فى الإسلام ، وهى التى ترجى إذا رجعنا إليها ، وجرَّدناها من الطوارئ عليها ، وخلَّصنا سيرة رجالها مما شيبت به ، وسرنا فى طريقهم مخلصين ، أن نعود مسلمين من ذلك الطراز الأول كما كان فى الواقع ، لا كما أراد مبغضو الصحابة والتابعين لهم بإحسان أن يعرضوه على الناس .

ونحن بتقديمنا هذه الحقائق من قلم الإمام ابن العربى ، أو من النصوص الأصيلة التى علقنا عليها ، إنما أردنا عكس ما يريد المتعرِّضون لهذه البحوث من ترديد خلافات عفى عليها الزمن . والصحابةُ كانوا أسمى أخلاقا وأصدقَ إخلاصا لله وترفعًا عن خسائس الدنيا من أن يختلفوا للدنيا ، لكن كان فى عصرهم من الأيدى الخبيثة التى عملت على إيجاد الخلاف وتوسيعه ، مثل الأيدى الخبيثة التى جاءت فيما بعد فصوَّرت الوقائع بغير صورتها . ولما كان أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم هم قدوتُنا فى ديننا ، وهم حَمَلةُ الكتاب الإلٰهى والسنَّة المحمدية إلى الذين حملوا عنهم أماناتها حتى وصلت إلينا ، فإن من حق هذه الأمانات على أمثالنا أن ندرأ عن سيرة حفَظَتها الأولين كلَّ ما أُلصق بهم من إفك ظلمًا وعدوانًا ، لتكون صورتهُم التى تُعْرض على أنظار الناس هى الصورة النقيَّة الصادقة التى كانوا عليها ، فتَحْسُنُ القدوةُ

بهم وتطمئن النفوسُ إلى الخير الذى ساقه اللهُ للبشر على أيديهم . وقد اعتبِرَ فى التشريع الإسلامى أن الطعن فيهم طعنٌ فى الدين الذى هم رُواته ، وتشويه سيرتهم تشويهٌ للأمانة التى حملوها ، وتشكيكٌ فى جميع الأُسُس التى قام عليها كيان التشريع فى هذه الملة الحنيفية السمحة . وأول نتائجه حرمان شباب الجيل ، وكل جيل بعده ، من القدوة الصالحة التى منَّ الله بها على المسلمين ليتأسَّوا بها ، ويُواصِلوا حملَ أمامات الإسلام على آثارها ، ولا يكون ذلك إلا إذا ألمُّوا بحسناتهم ، وعرفوا كريم سجاياهم ، وأدركوا أن الذين شوَّهوا تلك الحسنات وصوَّروا تلك السجايا بغير صورتها ، إنما أرادوا أن يُسيئوا إلى الإسلام نفسه بالإساءة إلى أهله الأولين . وقد آن لنا أن ننتبه من هذه الغفلة فنعرف لسلفنا أقدارهم ، لنسير فى حاضرنا على هدى ونور من سيرتهم الصحيحة وسريرتهم النقية الطاهرة .

وهذا الكتاب الذى ألَّفه عالم من كبار أئمة المسلمين بيانا لما كان عليه أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من صفات الكمال ، وإدحاضًا لما أُلصق بهم وبأعوانهم من التابعين لهم بإحسان ، يصلح على صغره لأن يكون صيحة من صيحات الحقّ توقظ الشباب المسلم إلى هذه الدسيسة التى دسها عليهم أعداء الصحابة ومبغضوهم ليتخذوها نموذجًا لأمثالها من الدسائس ، فيتفرَّغ الموفقون إلى الخير منهم لدراسة حقيقة التاريخ الإسلامى ، واكتشاف الصفات النبيلة فى رجاله ، فيعلموا أنَّ الله عزَّ وجل قد كافاهم عليها بالمعجزات التى تمتْ على أيديهم وأيدى أعوانهم

فى إحداث أعظم انقلاب عرفه تاريخ الإنسانية . ولو كان الصحابة والتابعون بالصورة التى صوَّرهم بها أعداؤهم ومبغضوهم لكان من غير المعقول أن تتمّ على أيديهم تلك الفتوح ، وأن تستجيب لدعوتهم الأُمم بالدخول فى دين الله أفواجًا .

والقاضى أبو بكر بن العربىّ مؤلف « العواصِم مِنَ الْقَواصِم » إمامٌ من أئمة المسلمين ، ويعتبره فقهاءُ مذهب الإمام مالك أحد أئمتهم المقتدى بأحكامهم ، وهو من شيوخ القاضى عياض مؤلف كتاب « الشفا » فى التعريف بحقوق المصطفى ، ومن شيوخ ابن رشد العالم الفقيه والد أبى الوليد الفيلسوف ، ومن تلاميذه عشرات من هذه الطبقة كما سترى من ترجمته الآتية بعد . وكتابه « العواصم من القواصم » من خيرة كتبه ، ألَّفه سنة ٥٣٦ وهو فى دور النضوج الكامل ، بعد أن امتلأت الأمصار بمؤلفاته وبتلاميذه الذين صاروا فى عصرهم أئمة يُهتدَى بهم . وهذا الكتاب فى جزأين متوسطى الحجم ، ومبحث (الصحابة) الذى نقدمه لقرائنا هو أحد مباحث جزئه الثانى (من ص ٩٨ إلى ص ١٩٣ من طبعة المطبعة الجزائرية الإسلامية فى مدينة قُسنْطينة بالجزائر سنة ١٣٤٧) وكان قد وقف على تلك الطبعة شيخ علماء الجزائر الأُستاذ عبد الحميد بن بادِيس رحمه الله . ومما يؤسف له أن الأصل الذى اعتُمد عليه فى تلك الطبعة كان مكتوبا بقلم ناسخ غير متمكن ، فوقعت فيه تحريفات لفظية وإملائية حرصنا على ردّها إلى أصلها ، بل إن النسخة المخطوطة التى طُبعت عليها طبعة الجزائر يظهر أن المجلد وضع

بعض ورقاتها فى غير مواضعها ، فأرجعناها إلى ما دل عليه السياق فى القول ، والترتيب فى المسائل . وفيما عدا ذلك التزمنا الأمانةَ فى عرض الكتاب إلى أقصى غاية . وعلّقتُ على كل بحث منه بما يزيده وضوحا ، مُقتبِسا ذلك من أوثق المراجع وأمهات الكتب الإسلامية المعتمدة ، مُبيِّنًا فى كل نص مأخذه بكل أمانة ووضوح .

وأرجو الله أن يُجزل ثواب الإمام ابن العربى على دفاعه هذا عن أصحاب رسول الله الذين حملوا معه صلى الله عليه وسلم أعظم رسالات الله ، وكانوا أصدق أعوانه على تبليغها فى حياته ، وبعد أن اختاره الله إليه ، بل كانوا سببَ كياننا الإسلامىّ ، ولهم ثواب انتمائنا إلى هذه الملة الحنيفية السمحة التى لا عيب لها غيرُ تقصيرنا فى التخلّق بآدابها فى أنفسنا ، وتعميم سُننها فى بيوتنا ومجتمعنا وأسواقنا ومحاكمنا ودُور حُكمنا . وعسى أن يكون فى قراء هذا الكتاب من يُعاهد الله على أن يكون خيرا منا عملا ، وأصحَّ منا علما ، وعلى الله قصد السبيل .

جزيرة الروضة (تجاه الفسطاط) : ٣ رمضان ١٣٧١

محب الدين الخطيب
(١٣٠٣ – ١٣٨٩)

القاضي أبي بكر بن العربي

مؤلف (العواصم من القواصم)

(٤٦٨ – ٥٤٣)

نشأته الأولى :

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربي المعافري .

ولد في إشبيلية – لما كانت كبرى عواصم الأندلس – في يوم الخميس ٢٢ من شهر شعبان سنة ٤٦٨ في بيت من أعظم بيوتها بعد بيت مليكها المعتمد ابن عباد . وكان أبوه عبد الله بن محمد بن العربي من وجوه علماء الدولة وكبار أعيانها ، كما كان خاله أبو القاسم الحسن بن أبي حفص الهوزني في مكانة رفيعة من المجتمع الأندلسي . غير أن هذين البيتين كانا على طرفي نقيض في مشربهما السياسي : فوالد ابن العربي من أولياء الدولة ، المتمتعين بالمكانة والوجاهة عند ولي أمرها . وخاله من أهل التوثب والطموح ، وله مشاركة التآمر على المعتمد لقتله والده أبا حفص الهوزني ، فكان خال ابن العربي على اتصال بيوسف بن تاشفين صاحب المغرب يواصل تحريضه على ابن عباد « حتى أزال ملكه ، ونثر سلكه ، وشبب هُلكه » كما يقول الشهاب المقّري في (نفح الطيب [1]) .

---

(١) ج ٢ ص ١٣ طبعة سنة ١٣٠٢ . وقد قبض ابن تاشفين على المعتمد وسجنه بمدينة (أغمات) فبقي فيها سجيناً إلى أن مات في شوال سنة ٤٨٨ . وكان هذا الانقلاب نكبة على بلاد دولته ، ولا سيما أهل عاصمته ، وأشد ما كان ذلك على حاشيته وذوي مودته .

فى هذه البيئة الكريمة العزيزة بالعلم نشأ ابن العربى ، ومنها أطل على الدنيا فى السنوات الأولى من حياته . وعن هذين الرجلين — أبيه وخاله — تلقى ثقافته الأولى وأساليب تربيته ، يساعدهما على ذلك أستاذه الخاص أبو عبد الله السرقسطى . وقد أعانت هؤلاء الثلاثة على مهمتهم فى تكوين صفات المروءة فيه مواهب ممتازة من الذكاء وسعة المدارك ودماثة الخلق تحلى منها هذا الناشئ الممتاز بكل ما يهيئ له نضوج رجولته المبكرة ، حتى قال هو عن نفسه : « حذقت القرآن وأنا ابن تسع سنين ، ثم ثلاثاً لضبط القرآن والعربية والحساب ، فبلغت ست عشرة سنة وقد قرأت من الأحرف — أى من القراءات — نحواً من عشرة بما يتبعها من إظهار وإدغام ونحوه . وتمرنت فى الغريب والشعر واللغة » .

رحلته عن إشبيلية :

ولما بلغ السابعة عشرة قضى الله بسقوط دولة آل عباد فى سنة ٤٨٥ ، فخرج به أبوه من إشبيلية يوم الأحد مستهل ربيع الأول قاصداً شمال إفريقية فكان أول نزولهم فى ثغر أنشئ منذ سنين قريبة على ساحل بلاد الجزائر ، وهو ثغر (بجاية) الذى اكتشف مكانه محمد بن البَعبع من رجال تميم بن المعز ابن باديس ، واتفق على إنشائه وتمصيره فى سنة ٤٥٧ مع الناصر بن علناس ابن عم تميم المنافس له ، وجعلا هذا المرفأ ملتقى الطرق على البحر الأبيض بين الأندلس والمغرب والجزائر وتونس . فنزل ابن العربى مع والده وأسرته فى ثغر بجاية ولبثوا فيه مدة تتلمذ فيها ابن العربى على كبير علماء هذا البلد أبى عبد الله الكلاعى ، ثم ركبوا البحر مشرّقين إلى ثغر (المهدية) ، وفيها أخذ فتانا عن عالمها أبى الحسن بن على بن محمد بن ثابت الحداد الخولانى المقرئ ، قال ابن العربى « فكنت أحضر عليه كتابه المسمى بالإشارة وشرحها وغيرهما من تآليفه ، وكان فى ذلك بالمهدية فى شهور سنة ٤٨٥ » . وفى المهدية أيضاً أخذ عن الإمام أبى عبد الله محمد بن على المازرى التميمى (٤٥٣ — ٥٠٠)

تعرض سفينته للغرق :

ولما أبحروا من المهدية قاصدين السواحل المصرية تجددت لهم النكبة بهياج البحر عليهم ، فوقعوا من ذلك فى حادث استحسنتُ أن يقف القارئ على وصفه من قلم ابن العربى نفسه عندما ألف تفسيره (قانون التأويل [1] ؛ قال : « وقد سبق فى علم الله أن يعظم علينا البحر بزوله [2] ، ويغرقنا فى هوله . فخرجنا من البحر ، خروج الميت من القبر . وانتهينا بعد خطب طويل — إلى بيوت بنى كعب بن سُليم — ونحن من السغب ، على عطب . ومن العرى ، فى أقبح زى . وقد قذف البحر زقاق زيت مزقت الحجارة منيئتها [3] ، ودسمّت الأدهان وبرها وجلدتها . فاحتزمناها أزُرا ، واشتملناها لفُعاً [4] تمجنا الأبصار ، وتخذلنا الأنصار . فعطف أميرهم علينا ، فأوينا إليه فآوانا ، وأطعمنا الله على يديه وسقانا وأكرم مثوانا . وكسانا بأمر [5] حقير ضعيف ، وفن من العلم ظريف . وشرحه أنّا لما وقفنا على بابه ألفيناه يدير أعواد الشاه [6] ، فعل السامد اللاه . فدنوت منه فى تلك الأطمار ، وسمح لى بياذقته [7] إذ كنت من الصغر فى حد يسمح فيه للأغمار . ووقفت بإزائهم أنظر إلى تصرُّفهم من ورائهم ، إذ كان علق بنفسى بعض ذلك من بعض القرابة فى خُلس بطالة ، مع غلبة الصبوة والجهالة . فقلت للبياذقة : الأمير أعلم من صاحبه . فلمحونى شزْراً ، وعظمتُ فى عيونهم بعد أن كنت نزرا . وتقدم إلى الأمير من نقل إليه الكلام . فاستدنانى ، فدنوت منه . وسألنى : هل لى بما هم فيه بصر ؟ فقلت : « لى فيه بعض نظر ، سيبدو لك ويظهر . حرِّك تلك القطعة » ،

---

(١) نقل ذلك عن (قانون التأويل) العلامة ابن غازى فى كتاب (التكميل) ، والرهونى فى حاشيته على رسالة خليل ، والشيخ مخلوف فى طبقات المالكية (١ : ١٣٧) ، والمقرى فى (نفح الطيب) ١ : ٣٣٧ ، و (أزهار الرياض) ٣ : ٨٩ وغيرهم .

(٢) الزول : العجب (٣) جلدها (٤) جمع لفاع : ما يتلفع به ، أى يلتحف به

(٥) أى بسبب أمر (٦) أى يلعب بالشطرنج (٧) أتباعه وحراسه

ففعل ، وعارضه صاحبه ، فأمرته أن يحرك أخرى ، وما زالت الحركات بينهم تترى ، حتى هزمهم الأمير ، وانقطع التدبير . فقالوا : ما أنت بصغير .

وكان فى أثناء تلك الحركات قد ترنم ابن عم الأمير منشداً :

وأحلى الهوى ما شكّ فى الوصل ربه   وفى الهجر ، فهو الدهر يرجوويتقى

فقال : لعن الله أبا الطيب ، أو يشكُّ الرب ؟!

فقلت له فى الحال : ليس كما ظن صاحبك أيها الأمير ، إنما أراد بالرب هنا الصاحب . يقول : ألذ الهوى ما كان المحب فيه من الوصال ، وبلوغ الغرض من الآمال ، على ريب . فهو فى وقته كله على رجاء لما يؤمله ، وتقاة لما يقطع به ، كما قال :

إذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضا   فأين حلاوات الرسائل والكتـــب

وأخذنا نضيف إلى ذلك من الأغراض ، فى طرفى الإبرام والانتقاض ، ما حرّك منهم إلى جهتى داعى الانتهاض . وأقبلوا يتعجبون منى ، ويسألونى كم سنى ؟ ويكشفونى عنى . فبقرت لهم حديثى ، وذكرت لهم نجيثى (١) . وأعلمت الأمير بأن أبى معى ، فاستدعاه ، وقمنا الثلاثة إلى مثواه (٢) . فخلع علينا خلعه ، وأسبل علينا أدمعه . وجاء كل خوان ، بأفنان الألوان .

فانظر إلى هذا العلم الذى هو إلى الجهل أقرب (٣) ، مع تلك الصُّبابة اليسيرة من الأدب ، كيف أنقذانا من العطب . وهذا الذى يرشدكم — إن غفلتم — إلى الطلب .

وسرنا ، حتى انتهينا إلى ديار مصر .

---

(١) نجيثى : أى سرى الذى كنت أخفيه   (٢) منزله الخاص .

(٣) يقول ابن العربى هذا من باب التواضع ، وإلا فإن علمه كان أكبر من سنه .

وسترى عند كلامنا على مؤلفات ابن العربى أن منها كتاباً كبيراً سماه « ترتيب الرحلة ، للترغيب فى الملة » ، ومما يؤسف له أن هذا الكتاب يعتبر الآن مفقوداً ، ولكن الذى اطلعنا عليه من نماذجه المنقولة عنه فى تراجمه وغيرها من كتب العلماء يدل على أنه من الذخائر النفيسة التى تصف الكثير من أحوال المجتمع الإسلامى وعمران أوطانه فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، وتنوه بجلائل أعلامه من العلماء والحكام بقدر ما اطلع عليه هذا العالم الرحالة الدقيق النظر الذكى الفطرة الحريص على الإلمام بجميع أبواب المعرفة ، ولو وقع لنا كتاب رحلته ، لانتفعنا منه كثيراً فى تدوين ترجمته ، ولاسيما فى السنوات التسع (٤٨٥ — ٤٩٣) التى قضاها فى خارج الأندلس ، بين حادثة سقوط دولة آل عباد والوقت الذى شاء الله له أن يعود فيه إلى وطنه .

مروره بالديار المصرية :

ومما لا شك فيه أن ابن العربى ووالده لم يطيلا اللبث فى كرم مضيفهم أمير قبيلة بنى كعب بن سليم ، فتوجها قاصدَين ديار مصر التى كان طريقهم عليها أيضاً عند انتهاء الرحلة . وكان الحكم فى مصر عند وصولهما إليها آخر سنة ٤٨٥ للمستنصر أبى تميم معد حفيد الحاكم ، وكان علماء أهل السنة قليلى الظهور ، حتى إن ابن العربى كان يذهب إلى القرافة الصغرى — قريباً من قبر الإمام محمد بن إدريس الشافعى — ليلقى فيها شيخه مسند مصر القاضى أبا الحسن على بن الحسن بن الحسين بن محمد الخلعى الموصلى الأصل المصرى المولد الشافعى (٤٠٥ — ٤٩٢) ولهذا العالم ترجمة فى حرف العين من (وفيات الأعيان) وفى (طبقات الشافعية) لابن السبكى (٣ : ٢٩٦) وفى (شذرات الذهب) لابن العماد الحنبلى (٣ : ٣٩٨) . وممن لقيهم فى مصر وأخذ عنهم أبو الحسن بن شرف ، ومهدى الوراق ، وأبو الحسن بن داود الفارسى .

وصوله إلى بيت المقدس :

وواصل ابن العربى رحلته مع أبيه إلى بيت المقدس ، وكان فيها الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى الفهرى (٤٥١ — ٥٢٠) من كبار علماء المالكية الأندلسيين ، وهو كابن العربى خرج من الأندلس إلى المشرق فذهب إلى العراق وجاء منها إلى دمشق وبيت المقدس ، فلقيه فيها ابن العربى واستفاد منه كثيراً قبل مجىء الطرطوشى إلى الإسكندرية . ويقول ابن العربى فيما نقله عنه صاحب نفح الطيب (١ : ٣٤١) : تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبى بكر الفهرى الطرطوشى حديث أبى ثعلبة (١) المرفوع « إن من ورائكم أياماً للعامل فيها أجر خمسين منكم (فقالوا : « منهم » . فقال : « بل منكم » أى من الصحابة) لأنكم تجدون على الخير أعواناً ، وهم لايجدون عليه أعواناً » . وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتى من الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسسوا الإسلام ، وعضدوا الدين ، وأقاموا المنار ، واقتحموا الأمصار ، وحموا البيضة ، ومهدوا الملة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الصحيح : « لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحُد ذهباً ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه » ، فتراجعنا القول ، وتحصل ما أوضحناه فى شرح الصحيح (٢) وخلاصته : أن الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد ولا يدانيهم فيها بشر ، وأعمال سواها — من فروع الدين — يساويهم فيها فى الأجر من أخلص إخلاصهم ، وخلصها من شوائب البدع والرياء بعدهم . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والإسلام ، وهو أيضاً انتهاؤه ... حتى إذا قام به قائم مع احتواشه بالمخاوف ، وباع نفسه فى الدعاء إليه ، كان له

---

(١) هو أبو ثعلبة الخشنى ، والحديث فى باب الأمر والنهى من كتاب الملاحم فى سنن أبى داود (ك ٣٦ ب ١٧) وفى كتاب الفتن من سنن ابن ماجه (ك ٣٦ ب ٢١) وفى كتاب التفسير من جامع الترمذى (ك ٤٤ ب ١٨)

(٢) أى فى (كتاب النيرين ، فى الصحيحين) لابن العربى .

من الأجر أضعاف ما كان لمن كان متمكناً منه معاناً عليه بكثرة الدعاء إلى الله ... الخ .

وفى بيت المقدس أيضاً لقى ابنَ الكازرونى وقال عنه : إنه كان يأوى إلى المسجد الأقصى ، ثم تمتعنا به ثلاث سنوات ، ولقد كان يقرأ فى مهد عيسى فيسمع من الطور [1] فلا يقدر أحد أن يصنع شيئاً دون قراءته إلا الإصغاء إليه .

ونقل صاحب نفح الطيب (١ : ٣٤٠) قوله : شاهدت المائدة بطور زيتا مراراً وأكلت عليها ليلا ونهاراً ، وذكرت الله سبحانه فيها سراً وجهاراً) [2] ... وكانت صخرة صلداء لا تؤثر فيها المعاول ، وكان الناس يقولون : مسخت صخرة ... والذى عندى أنها صخرة فى الأصل وقطعت من الأرض محلا للمائدة النازلة من السماء وكل ما حولها حجارة مثلها . وكان ماحولها محفوفاً بقصور نحتت فى ذلك الحجر الصلد ، بيوت أبوابها ومجالسها منها مقطوعة فيها [3] . وقد كنت أخلو فيها كثيراً للدرس الخ .

---

(١) نبهنى صديقى الأستاذ الشيخ محمد صبرى عابدين إلى أن مهد عيسى فى داخل ساحة المسجد الأقصى بالقرب من السور المطل على مقبرة باب الرحمة ، ويشرف عليه طور زيتا المعروف بالطور ، وهو جبل يقع شرقى المسجد الأقصى وفيه قرية تعرف باسم الطور (انظر الأنس الجليل ١ : ١٥٠ و ٢٢٦ و ٢٤١ و ٢٦٢)

(٢) كتب إلى فضيلة الأستاذ الشيخ محمد صبرى عابدين يقول : وإلى هذا الزمان يوجد مكان فى طور زيتا ملحق بمسجد الأسعدية بقرب الطور يقال له (مكان صعود المسيح عليه السلام) وهو بلاطة سوداء بركانية ، وربما كانت هى المائدة المشار إليها فى كلام القاضى ابن العربى . وقد رأيتها حين زيارتى لمسجد الأسعدية ، وفى المسجد كهف فيه قبور بعض العلماء والصالحين .

(٣) قال الأستاذ الشيخ محمد صبرى عابدين يصف الكهف الذى ذكره فى التعليقة السابقة : أنه منقوش نقشاً بديعاً ، وربما كان هذا الكهف بما احتوى عليه من فجوات ونقوش هو المكان الذى رآه ابن العربى بجانب مائدة عيسى ، ولا أستبعد أن الكهف وما فيه من فجوات كان محلا لاعتكاف بعض الزاهدين ، وربما كان هنالك أيضاً بعض البيوت المنحوتة طمست بإقامة أبنية جديدة فى مكانها .

مروره بدمشق :

وتقدم ابن العربى فى رحلته إلى الديار الشامية ، فأقام فى دمشق وأخذ عن علمائها ، ومنهم شيخ الشافعية الحافظ المتبتل أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسى (٤٠٩ — ٤٩٠) له ترجمة فى حرف النون من تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر ، وفى طبقات الشافعية (٤ : ٢٧) ، وشذرات الذهب (٣ : ٣٩٥ — ٣٩٦) . وعن الحافظ أبى محمد هبة الله بن أحمد الأكفانى الأنصارى الدمشقى (٤٤٤ — ٥٢٤) المترجم بحرف الهاء من تاريخ دمشق ، وشذرات الذهب (٤ : ٧٣) وعن أبى الفضل أحمد بن على بن الفرات المتوفى سنة ٤٩٤ وهو من علماء الشيعة . ولقى فى الديار الشامية من علمائها أبا سعيد الرُّهاوى وأبا القاسم بن أبى الحسن القدسى ، وأبا سعيد الزنجانى .

ومن عجائب ما ذكره عن عمران دمشق فى زمنه وتقدمها فى أسباب الرفاهة والصيانة والنعيم ما نقله عنه صاحب نفح الطيب (١ : ٣٣٨) وهو أنه دعى لتناول الطعام فى بيوت بعض الأكابر ، فرأى نهراً جارياً إلى موضع جلوسهم ثم يعود إلى ناحية أخرى . قال : « فلم أفهم معنى ذلك ، حتى جاءت موائد الطعام فى النهر المقبل إلينا ، فأخذها الخدم ووضعوها بين أيدينا . فلما فرغنا ألقى الخدم الأوانى وما معها فى النهر الراجع ، فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخدم من تلك الناحية . فعلمت السر ، وإن هذا لعجيب » .

وصوله إلى بغداد ، واشتغاله بطلب العلم :

ورحل مع أبيه من دمشق قاصداً دار الخلافة العباسية بغداد ، وكان الخليفة فى السنتين الأوليين من هذه الرحلة المقتدى بالله ، وكان ديناً خيراً قوى النفس عالى الهمة من نجباء بنى العباس ، وظهرت فى أيامه خيرات كثيرة وآثار حسنة . ومن محاسنه أنه نفى المغنيات والخواطئ ، وأمر بالمحافظة على حرم الناس وصيانتها ، وكانت قواعد الخلافة باهرة وافرة الحرمة . ثم بويع

بعده للمستظهر بالله أحمد وكان مهذباً مثقفاً ضليعاً فى الأدب بليغ التوقيعات (١) ، إلا أن زمنه كثر فيه الاضطراب . وفى ذلك الجو أخذ ابن العربى فى توسيع ثقافته وتلقى العلوم عن أهلها ، حتى برع فى علوم السنة وتراجم الرواة وأصول الدين وأصول الفقه وعلوم العربية والآداب . وممن تتلمذ لهم : أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفى المعروف بابن الطيورى (٤١١ — ٥٠٠) المحدث الصحيح الأصول الواسع العلم . وأبو الحسن على بن الحسين ابن على بن أيوب البزاز (٤١٠ — ٤٩٢) . وأبو المعالى ثابت بن بندار البقال المقرئ (المتوفى ٤٩٨) . والقاضى أبو البركات طلحة بن أحمد بن طلحة العاقولى الحنبلى (٤٣٢ — ٥١٢) وفخر الإسلام أبو بكر محمد بن أحمد ابن الحسين بن عمر الشاشى الشافعى (٤٢٩ — ٥٠٧) وكان يسمى « الجنيد » لورعه ودينه ، وإليه انتهت رياسة الشافعية فى بغداد فأنشد فى أحد دروسه :

خلت الديار فسدتُ غير مسود — ومن العناء تفرُّدى بالسؤدد

ثم وضع المنديل على عينيه وجعل يبكى .

وتحدث ابن العربى عن إمام الشافعية هذا فذكر من محاسنه أنه سمعه ينتصر لمذهب أبى حنيفة فى مجلس النظر ويقول : « يقال فى اللغة لا تقرب كذا (بفتح الراء) أى لا تتلبس بالفعل . وإذا كان بضم الراء كان معناه لا تدن من الموضع » . قلت وهذا من دلائل صحة العلم وسعة الأفق ، فإن العالم لا ينضج حتى يترفع عن العصبية المذهبية ويجنح إلى الحق والخير حيثما كانا ، ومن كان الحق غرضه تحراه واحتج له وكان معه فى كل حال . أما التعصب للطائفية والمذهب وبنيات الطريق ، وتمحل الحجج الواهية لذلك ، فمن دلائل صغر النفس وزغل العلم والأنس بالباطل .

ومن الذين أخذ عنهم ابن العربى فى بغداد الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون ابن مرجا الميورقى العبدرى المتوفى سنة ٥٢٤ وكان من فقهاء مذهب داود

---

(١) التوقيعات : ما يكتبه الحكام على العرائض من الأوامر الرسمية .

الظاهرى ، قال القاضى ابن العربى : وهو أنبل من لقيته . وأخذ عن أبى الحسين أحمد بن عبد القادر اليوسفى (٤١١ — ٤٩٢) ، وعن شيخ بغداد فى الأدب أبى زكريا يحيى بن على التبريزى (٤٢١ — ٥٠٢) . وأبى محمد جعفر بن أحمد بن حسين السراج الحنبلى (٤١٦ — ٥٠٠) مؤلف كتاب مصارع العشاق . وعن أبى بكر محمد بن طرخان التركى الشافعى (٤٤٦ — ٥١٣) تلميذ إمام الشافعية أبى إسحاق الشيرازى صاحب التنبيه والمهذب . وأخذ عن مسند العراق نقيب النقباء أبى الفوارس طراد بن محمد بن على العباسى الزينبى [1] (٣٩٨ — ٤٩١) وكان أعلى الناس منزلة عند الخليفة .

وكان يتردد على مجالس العلم العامة التى تعقد فى دار وزير الخليفة عميد الدولة أبى منصور محمد بن فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير المتوفى سنة ٤٩٣ وسماه « الوزير العادل » . قال ابن العربى : كنت بمجلس الوزير ، فقرأ القارئ ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ وكنت فى الصف الثانى من الحلقة بظهر أبى الوفاء بن عقيل إمام الحنابلة بمدينة السلام (٤٣١ — ٥١٣) وكان (مع إمامته فى مذهب الإمام أحمد) معتزلى الأصول [2] ، فلما سمعت الآية قلت لصاحب لى كان يجلس على يسارى : هذه الآية دليل على رؤية الله فى الآخرة ، فإن العرب لا تقول « لقيت فلاناً » إلا إذا رأته . فصرف أبو الوفاء وجهه مسرعاً إلينا وقال ينتصر لمذهب الاعتزال فى أن الله لا يرى فى الآخرة : « فقد قال الله تعالى ﴿ فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ﴾ وعندك أن المنافقين لا يرون الله تعالى فى الآخرة » . قال ابن العربى : وقد شرحنا وجه الآية فى (كتاب المشكلين) .

ويقول ابن سعيد أحد مترجمى ابن العربى أن ابن العربى أخذ عن ابن

---

(١) نسبة إلى جدته الكبرى زينب بنت سليمان بن على بن عبد الله بن العباس .

(٢) تأثر بالاعتزال من شيخيه أبى على محمد بن أحمد بن الوليد الكرخى ، وأبى القاسم ابن التبان . ولكن شيوخه من أئمة الحنابلة استتابوه بعد ذلك وصرفوه عن كثير مما تأثر به . وأبو الوفاء بن عقيل من كبار أئمة الإسلام . ومن مؤلفاته كتاب الفنون زاد على أربعمائة مجلد .

الأنماطى فى الإسكندرية . والمعرفون بابن الأنماطى من العلماء كثيرون فى مصر والعراق من أيام المزنى تلميذ الشافعى فى القرن الثالث إلى أواخر القرن السابع ، لكنى لم أهتد إلى واحد منهم فى الإسكندرية زمن ابن العربى . والعالم المعاصر له من بنى الأنماطى هو مفيد بغداد أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك بن أحمد الأنماطى الحنبلى (٤٦٢ — ٥٣٨) من كبار شيوخ الحافظ أبى الفرج ابن الجوزى فلعله هو الذى أخذ عنه ابن العربى فى بغداد والتبس الأمر على مترجميه المغاربة فظنوه من بنى الأنماطى المصريين [1] .

وفى بغداد لقى ابن العربى محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودى (المتوفى سنة ٥٢٤) الذى ادعى بعد ذلك المهدوية والنسب العلوى وقام بالتوطئة لعبد المؤمن بن على (٤٩٠ — ٥٥٨) وكان المؤسس الأول لدولة الموحدين . ويقول مترجمو ابن العربى : إنه صحب ابن تومرت بالمشرق ، فأوصى عليه عبد المؤمن [2] ، ولابد أن تكون هذه الوصاة بعد عودتهما إلى المغرب بزمن طويل . ولا شك عندنا أنه لم ينتفع بها ، ولم يكن لها أثر فى مجرى حياته . ولعل ذلك من نعم الله عليه ، وفى آخر حياة ابن العربى أوذى بجيئته من الأندلس إلى مراكش دار سلطنة عبد المؤمن كما سترى فى أواخر هذا الفصل .

اتصاله بأبى حامد الغزالى :

وقد لقى ابن العربى حجة الإسلام أبا حامد محمد الغزالى (٤٥٠ — ٥٠٥) فى بغداد . وفى صحارى الشام بعد ذلك ، والذى يظهر لى أنه عند وصول ابن العربى إلى بغداد فى بداية رحلته — وكان الغزالى يدرس فى النظامية وفى مجالسه العامة — اكتفى ابن العربى بالسماع منه فى غمار الناس : ثم حج الغزالى

---

(١) الأنماطى : بائع الأنماط ، وهى المفروشات المنزلية ، وما يسمى الآن « الموبيليات »

(٢) نفح الطيب ١ : ٣٣٥

ورحل فى سنة ٤٨٨ إلى دمشق متزهداً وألف فيها كتابه الإحياء (١) ، وعاد إلى بغداد فنزل برباط أبى سعد بإزاء النظامية ، وحينئذ اتصل به أبو بكر بن العربى ولازمه . وبعد أن حج ابن العربى — كما سنذكره فى الفقرة التالية — وعاد من العراق إلى الشام فى طريقه إلى وطنه لقى الغزالى فى صحارى الشام وهو فى طور آخر . وعندنا النصوص التالية عن ابن العربى فيما يتعلق بالغزالى :

النص الأول : نقله المقرى فى نفح الطيب (٢ : ٣٣٨) وفى أزهار الرياض (٣ : ٩١) عن (قانون التأويل) لابن العربى قال : « ورد علينا دانشمند — يعنى الغزالى — فنزل برباط ابن سعد بإزاء المدرسة النظامية معرضاً عن الدنيا ، مقبلا على الله تعالى . فمشينا إليه ، وعرضنا أمنيتنا عليه ، وقلت له : أنت ضالتنا التى كنا ننشد ، وإمامنا الذى به نسترشد . فلقينا لقاء المعرفة ، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة ... الخ » .

والنص الثانى : فى نفح الطيب (١ : ٣٤٣) عن ابن العربى أنه قال : « وكان يقرأ معنا برباط أبى سعد على الإمام دانشمند من بلاد المغرب خنثى له لحية

---

(١) نقل ابن العماد فى شذرات الذهب (٤ : ١١) قول الأسنوى فى طبقات الشافعية وهو يترجم الغزالى « وأقبل على العبادة والسياحة فخرج إلى الحجاز سنة ٤٨٨ فحج ورجع إلى دمشق واستوطنها عشر سنين بمنارة دمشق ، وصنف فيها كتباً يقال إن (الإحياء) منها . ثم سار إلى القدس والإسكندرية ، ثم عاد إلى وطنه طوس » . ونبهنى الأستاذ الشيخ صبرى عابدين إلى أنه فى ترجمة الغزالى بكتاب الأنس الجليل (١ : ٢٦٥) ما نصه : « وأخذ فى التصانيف المشهورة ببيت المقدس ، فيقال إنه صنف فى القدس (إحياء علوم الدين) وأقام بالزاوية التى على باب الرحمة المعروفة قبل ذلك بالناصرية شرقى بيت المقدس ، فسمت بالغزالية نسبة إليه » . وقد أصاب الجمال الأسنوى فى تحديد سنة مجىء الغزالى إلى دمشق ، ويوافقه فى ذلك ابن العماد فى الشذرات (٣: ٣٨٣) ، غير أن الأسنوى وهم فى تقديره إقامة الغزالى بعشر سنين ، والغالب أنه أقام سنتين ثم حج وعاد إلى بغداد فى المدة التى لازمه فيها ابن العربى فى رباط أبى سعد . ثم بدا له أن يكسر مغزله ويعود إلى دمشق وبيت المقدس سائحاً فيما بينهما وبين الإسكندرية إن صح تردده إليها . وبعد هذا الطور انقلب إلى طوس ودعى منها إلى نظامية نيسابور فلم يستقم له الحال فيها فرجع إلى طوس ومات فيها سنة ٥٠٥

وله ثديان وعنده جارية ، فربك أعلم به . ومع طول الصحبة عقلني الحياء عن سؤاله ، وبودى اليوم لو كاشفته حاله » .

والنص الثالث : فى شذرات الذهب (٤ : ١٣) قال . وذكر الشيخ علاء الدين على بن الصيرفى فى كتابه زادالسالكين : أن القاضى أبا بكر بن العربى قال : « رأيت الغزالى فى البرية وبيده عكازة وعليه مرقعة وعلى عاتقه ركوة ، وقدكنت رأيته فى بغداد يحضر درسه أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم . فدنوت منه فسلمت عليه وقلت له : يا إمام ، أليس تدريس العلم ببغداد خيراً من هذا ؟ فنظر إلى شزراً وقال : لما طلع بدر السعادة ، فى فلك الإرادة (أو قال : فى سماء الإرادة) وجنحت شمس الوصول ، فى مغارب الأصول :

تركت هوى ليلى وسعدى بمنزلى وعدت إلى تصحيح أول منزل
ونادت بى الأشواق : مهلا فهذه منازل من تهوى ، رويدك فانزل
غزلت لهم غزلا دقيقاً ، فلم أجد لغزلى نساجا ، فكسرت مغـزلى

ومن شيوخ ابن العربى فى بغداد دانشمند آخر كانوا يسمونه « دانشمند الأكبر » وهو إسماعيل الطوسى ، ويقولون للغزالى « دانشـمند الأصغر » . نقله المقرى فى أزهار الرياض (٣ : ٩١) عن أبى عبد الله محمد بن غازى من المغرب . ومعنى دانشمند بالفارسية « العارف » .

ذهابه إلى الحج ، وعودته إلى بغداد :

وذهب ابن العربى مع أبيه من بغداد إلى الحرمين الشريفين فى موسم سنة ٤٨٩ فحج بيت الله الحرام ، وأخذ فى مكة عن محدثها ومفتيها أبى عبد الله الحسين بن على بن الحسين الطبرى الشافعى (٤١٨ — ٤٩٨) . ومما تحدث به ابن العربى عن مكة قوله : « كنت بمكة مقيما فى ذى الحجة سنة ٤٨٩ ، وكنت أشرب من ماء زمزم كثيراً ، وكلما شربته نويت به العلم والإيمان ،

ففتح الله لى ببركته فى المقدار الذى يسره لى من العلم ، ونسيت أن أشربه للعمل ، ويا ليتنى شربته لهما حتى يفتح الله لى فيهما ، ولم يقدر ، فكان صغوى للعلم أكثر منه للعمل ، وأسأل الله تعالى الحفظ والتوفيق برحمته » .

وعاد ابن العربى إلى بغداد مع أبيه ، فلبث فيها قريباً من سنتين قضاهما فى صحبة الغزالى وهو فى طوره الأوسط ، بين حالة الظهور الأولى وحالة العزلة والسياحة فى النهاية .

العودة بطريق دمشق وفلسطين والاسكندرية :

وفى سنة ٤٩٢ كان والد ابن العربى قد أثرت فيه الشيخوخة ، فخرجا من بغداد متوجهين إلى الشام وفلسطين ، فجدد ابن العربى العهد — فى دمشق وبيت المقدس وكثير من المدن الشامية — مع من كان عرفهم وأخذ عنهم من شيوخ هذه البلاد ، وتعرف بآخرين غيرهم . ثم جاء إلى الإسكندرية ، وكانت فيها منية أبيه فى أوائل سنة ٤٩٣ فدفن فى الثغر الإسكندرى . وكان الإمام أبو بكر الطرطوشى فى تلك المدة قد نزل الإسكندرية واستوطنها وكثر فيها تلاميذه ومريدوه من أهل السنة حتى بلغوا المئات لما وجدوا فيه من العزم على إحياء طريق أهل السنة بعد أن اعتراها الوهن وأصيبت بالإهمال تحت حكم العبيديين ، فأقلق نشاط الطرطوشى ولاة الأمور العبيديين فى القاهرة ، وكانت رئاستهم قد آلت من سنة ٤٨٧ إلى المستعلى أحمد ابن المستنصر أبى تميم معد ، وأخذ نجمهم بالأفول فى الشام باستيلاء الأتراك على بعض البلاد ، والإفرنج على البعض الآخر . ولم يكن للمستعلى حل ولا ربط مع وزيره الأفضل ، فاضطهد الأفضل أبا بكر الطرطوشى فيما بعد بسبب كثرة أتباعه مما لا محل لذكره هنا . فلما توفى والد ابن العربى بالإسكندرية رحل عنها عائداً إلى وطنه فى سنة ٤٩٣ ، ويقول الحافظ ابن عساكر : إن ابن العربى ابتدأ بتأليف كتابه (عارضة الأحوذى) عندما غرّب من الإسكندرية فكان أول مؤلفاته على ما نعلم .

وصوله إلى إشبيلية :

ولما وصل ابن العربى إلى وطنه إشبيلية كان الحكم فيها لا يزال ليوسف ابن تاشفين ، واستمر على ذلك إلى أن مات سنة ٥٠٠ . فاستقبل العلماء ورجال الثقافة والأدب فى إشبيلية وما جاورها من عواصم الأندلس هذا الغائب القادم بعلوم المشرق استقبالا لا نظير له ، وقصده طلاب العلم وأذكياء الأندلس من كل حدب وصوب ، وتحول منزله إلى جامعة ، وعقدت له حلقات الدرس فى الجوامع ، وكان ممن أخذ عنه وتلقى عليه طائفة من كبار علماء الإسلام : منهم قاضى المغرب وحافظه القاضى عياض بن موسى اليحصبى مؤلف (الشفا) و (مشارق الأنوار) ، وابنه القاضى محمد بن عياض ، والحافظ المؤرخ أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال ، والإمام الزاهد العابد أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مجاهد الإشبيلى ، وأبو جعفر بن الباذش ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم الخزرجى ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن خليل القيسى ، وأبو الحسن بن النعمة ، وأبو بكر محمد بن خير الأموى الإشبيلى ، وأبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن حبيش ، والإمام عبد الرحمن ابن عبد الله السهيلى شارح السيرة ، وأبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الصقر الأنصارى ، وأبو الحسن على بن عتيق القرطبى ، وأبو القاسم أحمد بن محمد ابن خلف الحوفى ، وأبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدى الخراط ، وأبو بكر محمد بن محمد اللخمى البلنّى ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله الغاسل الغرناطى ، وأبو الحسن عبد الرحمن بن أحمد بن بقّى ، وأبو العباس أحمد ابن أبى الوليد بن رشد ، وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن سعيد العبدرى شارح صحيح مسلم ، وأبو المحاسن يوسف بن عبد الله بن عياد ، والحافظ أبو الحجاج يوسف بن إبراهيم العبدرى ، والقاضى أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء اللخمى وأبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن قرقول شارح مشارق الأنوار ، وعالم لا يحصى من نمط هؤلاء الأجلاء منهم من ذكر مترجمو

ابن العربي أسماءهم ومنهم من لم يسموهم لكثرتهم أو لأنهم من تلاميذه المتأخرين فى الزمن عندما بلغ هذا الإمام سن الشيخوخة . ولعلى من هؤلاء راوى كتابه (العواصم من القواصم) صالح بن عبد الملك بن سعيد الذى ذكر فى أول الكتاب أنه قرأه على ابن العربي . وقد قلنا إن أبا بكر بن العربي كان بعد عودته من المشرق إلى الأندلس جامعة يصدر عنها العلم إلى كل معاصر له ممن يستطيع لقاءه ، فهو مربى الجيل الذى عاش معه فى تلك الديار . قال مترجموه : بقى ابن العربي يفتى ويدرس أربعين سنة ، وقبل أن يتولى القضاء صدر له التقليد من السلطات الرسمية بأن يتولى منصب المشاور للقضاء ، وهو منصب رفيع يصدر به ما يسمى الآن فى الديار المصرية « مرسوماً » وما يسمى فى المغرب « ظهيراً » . ومن نماذج مرسوم هذا المنصب ما تراه فى هامش ص ٨٩ من كتاب (غابر الأندلس وحاضرها) للأستاذ محمد كرد على وفى هامش (١ ، ١٦٢) من (شجرة النور الزكية) لمخلوف . وكان لا يباح للعالم فى الأندلس أن يفتى إلا إذا استظهر (الموطأ) و (المدونة) أو عشيرة آلاف حديث ، ويتميز حينئذ بلبس القلنسوة ويقال له المقلس .

ولما كانت حلقة ابن العربي تخرج علماء الجيل ، كانت مملكة على بن يوسف ابن تاشفين تزداد اتساعاً واستفحالا بما كان يستحلفه من بلاد ملوك الطوائف ، وبما استرده أو فتحه من الأسبانيين . وكان الوالى على شرق الأندلس وجنوبها لعلى بن يوسف بن تاشفين أخوه تميم بن يوسف ، وفى سنة ٥١٣ انتعش الأسبانيون وأخذوا فى إزعاج البلاد الإسلامية فجاز على بن يوسف بن تاشفين من المغرب إلى الأندلس وقاتلهم وانتصر عليهم وعاد سنة ٥١٥ ، فاستمرت الحال على ذلك إلى أن توفى تميم بن يوسف سنة ٥٢٠ ، فولى على بن يوسف ابن تاشفين على الأندلس ابنه تاشفين بن على ، وفى هذا الدور كان ابن العربي قد بلغ القمة فى مكانته العلمية بما ظهر من مؤلفاته العظيمة ، وما انتشر فى ربوع الأندلس والمغرب من تلاميذه ومريديه ، فدعى فى رجب سنة

٥٢٨ لتولى القضاء فى إشبيلية : وقد أجمعت كلمة الذين تحدثوا عنه — كالقاضى عياض ، وابن بشكوال ، وابن سعيد ، وجميع مؤرخى الأندلس — على أنه كان مثال العدل والاستقامة وحسن القيام بأمر القضاء ، قال القاضى عياض : فنفع الله به أهل إشبيلية لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه ، وكانت له فى الظالمين سَورة مرهقة ، مع الرفق بالمساكين . والتزم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . واستمر فى هذه المدة على إلقاء دروسه مع القيام بأمر القضاء ومواصلة التأليف . إلا أن وقته أصبح ضيقاً حتى اضطر تلميذه الإمام الزاهد العابد أبو عبد الله الإشبيلى إلى أن ينقطع عن درسه . فقيل له فى ذلك ، فقال : «كان يدرس وبغلته عند الباب ينتظر الركوب إلى السلطان» .

إن المكانة التى وصل إليها ابن العربى فى العلم وعزته وسيادته على القلوب — قبل ولايته القضاء — كانت مثار الحسد له والإحنة عليه من العلماء الرسميين الذين يتجرون بقشور العلم ليبنوا بها دنياهم ، فلما ازدادت مكانته رفعة بالقضاء مضى فيه مجاهداً فى سبيل العدل والإصلاح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكلها من سبيل الله ، يجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق ، مع حسن المعاشرة ، ولين الكنف ، وكثرة الاحتمال ، وكرم النفس ، وحسن العهد ، وثبات الود . فازداد غيظ حاسديه ، واشتد ضغن صغار النفوس عليه ، ولاسيما أهل الجور والظلم والغصب الذين كان شديد الأحكام عليهم والأخذ منهم للمظلومين ، منضماً إليهم أهل المجون والفسقة الذين تناولهم ابن العربى بطريقة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وما كان أكثر أهل المجون يومئذ فى إشبيلية . يدلك على ذلك حوار عن إشبيلية وقرطبة دار فى مجلس منصور ابن عبد المؤمن بين أبى الوليد بن رشد وأبى بكر بن زهر ، فقال ابن رشد لابن زهر : ما أدرى ما تقول ، غير أنه إذا مات عالم فى إشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية .

وشعر ابن العربى فى مدة قضائه بأن سور إشبيلية لا يقاوم أحداث الدهر إذا ألمت بالبلد ملمة ، فعزم على ترميمه ، وسد بعض الثلم الواقعة فيه . واتفق وقوع ذلك فى زمن انصرفت فيه الحكومة عن مثل هذا الأمر . أو أن المال اللازم لذلك لم يكن متوفراً لديها ، فخرج ابن العربى عن كل ما تحت يده من ماله الخاص ورصده لتحقيق هذا الواجب الملي العام ، ودعا الأمة إلى البذل فيه ، وأقبلت فى خلال ذلك الأيام الأولى من شهر ذى الحجة ، فكان ابن العربى أول من خطر على باله الاستفادة من جلود الأضاحى فى المصالح العامة ، فحض الناس على أن يتبرعوا بجلود أضاحيهم لبناء هذا السور ، فكان فى ذلك موفقاً ، إلا أن أعداءه ومبغضى طريقته أثاروا العامة عليه بأساليبهم الخبيثة حتى نابه بداره فى أحد الأيام مثل الذى ناب أمير المؤمنين عثمان بن عفان لما تألب البغاة عليه وهاجموه فى داره . ولاشك أن هذه الحادثة وقعت له فى آخر ولايته للقضاء ، وقد أشار إليها فى كتابنا هذا (العواصم من القواصم) الذى ألفه فى سنة ٥٣٦ ، فهى إذن وقعت بعد سنة ٥٣٠ وقبل سنة ٥٣٦ وقد قال فى كتابنا هذا ص ١٣٧ — ١٣٨ يصفها : « ولقد حكمت بين الناس فألزمتهم الصلاة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى لم يك فى الأرض منكر. واشتد الخطب على أهل الغصب ، وعظم على الفسقة الكرب ، فتألبوا وألبوا وثاروا إلىّ ، فاستسلمت لأمر الله ، وأمرت كل من حولى ألا يدفعوا عن دارى ، وخرجت على السطوح بنفسى فعاثوا علىّ . ولولا ما سبق من حسن المقدار ، لكنت قتيل الدار . وكان الذى حملنى على ذلك ثلاثة أمور : أحدها وصاية النبى صلى الله عليه وسلم (أى بالكف عن القتال فى الفتنة) . الثانى الاقتداء بعثمان . والثالث سوء الأحدوثة التى فر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤيد بالوحى [1] » . فنكب ابن العربى

---

(١) أى لما أراد عمر بن الخطاب أن يقتل ابن سلول عند عودة النبى صلى الله عليه وسلم من غزوة بنى المصطلق لقول ابن سلول « إذا رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » فمنع النبى صلى الله عليه وسلم عمر من قتله وقال « لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » .

فى هذه الثورة ونهبت كتبه كلها . وانصرف أو صرف عن القضاء ، وتحول مؤقتاً إلى قرطبة . وكان له فيها تلاميذ ومريدون ، فازداد بهذه الرحلة تلاميذه من أذكيائها ومريدوه .

وكان من حكمة الله فى هذه النازلة أن تفرغ ابن العربى للعلم ، وواصل إكمال مؤلفاته الكبيرة ، وقد آن لنا أن نشير إلى تراثه العلمى . فمن مؤلفاته :

١ — أنوار الفجر فى تفسير القرآن : ألفه فى عشرين سنة وبلغ ثمانين ألف ورقة (أى مائة ألف وستين ألف صفحة) ورآه يوسف الحزام المغربى فى القرن الثامن فى خزانة أمير المسلمين السلطان أبى عنان فارس بمدينة مراكش (وكان يخدم السلطان فى حزم كتبه ورفعها) فعد أسفاره فبلغت ثمانين سِفراً ، وقال بعض مترجمى ابن العربى إنه فى تسعين مجلداً ، وكان الناس يتداولون هذا التفسير أثناء تأليفه ، فكلما انتهى من تأليف مقدار منه تناسخه الناس وتناقلوه

٢ — قانون التأويل فى تفسير القرآن : كتاب كبير ، كان موجوداً ومنتشراً إلى القرن الحادى عشر الهجرى ، ونقل عنه المقرى فى نفح الطيب ، ونقلنا عنه شيئاً منه فى هذه الترجمة .

٣ — أحكام القرآن : كتاب نفيس طبعه سلطان المغرب مولاى عبد الحفيظ فى إحدى المطابع المصرية .

٤ — الأحكام الصغرى ، منه مخطوطة بمكتبة عبد الحى الكتانى بالمغرب

٥ — الناسخ والمنسوخ فى القرآن : توجد منه مخطوطة بخزانة القرويين .

٦ — كتاب المشكلين : مشكل الكتاب ومشكل السنة .

٧ — كتاب النيرين : فى الصحيحين .

٨ — القبس : فى شرح موطأ مالك بن أنس . وهو من أواخر مؤلفاته . ذكر فيه تفسيره (أنوار الفجر) وفى مكتبة الكتانى بالمغرب مخطوطة من القبس وفى مكتبة الجلاوى بمراكش مخطوطة .

٩ — ترتيب المسالك فى شرح موطأ مالك : فى مكتبة طلعت ٧٩٣ حديث

١٠ — عارضة الأحوذى ، شرح جامع الترمذى : وهو من أول مؤلفاته ، ويقول الحافظ ابن عساكر : إنه بدأ بتأليفه فى منقلبه إلى المغرب عائداً من رحلته الكبرى . وقد اطلعنا على مخطوطة منه فى مكتبة جمعية الهداية الإسلامية جاء بها من تونس صديقنا العلامة الجليل السيد محمد الخضر حسين . ثم طبع هذا الكتاب فى مصر سنة ١٣٥٠ مع جامع الترمذى فى ١٤ جزءاً .

١١ — شرح حديث جابر فى الشفاعة .

١٢ — حديث الإفك .

١٣ — العواصم من القواصم .

١٤ — شرح حديث أم زرع .

١٥ — الكلام على مشكل حديث السبحات والحجاب .

١٦ — السباعيات . ١٧ — المسلسلات .

١٨ — الأمد الأقصى بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا .

١٩ — تفصيل التفضيل ، بين التحميد والتهليل .

٢٠ — التوسط فى معرفة صحة الاعتقاء ، والرد على من خالف السنة وذوى البدع والإلحاد فى مجموع مخطوط بمكتبة عبد الحى الكتانى فى المغرب (عقيدة ابن العربى) .

٢١ — المحصول فى علم الأصول .

٢٢ — الإنصاف ، فى مسائل الخلاف : عشرون مجلداً .

٢٣ — شرح غريب الرسالة لابن أبى زيد القيروانى .

٢٤ — كتاب ستر العورة .

٢٥ — الخلافيات . ٢٦ — مراقى الزلف .

٢٧ — سراج المريدين : (وهو ينقل عنه ويشير إليه فى العواصم من القواصم) ومنه مخطوطة بمكتبة عبد الحى الكتانى وبأولها خط المؤلف .

٢٨ — نواهى الدواهى .

٢٩ — العقل الأكبر . للقلب الأصغر .
٣٠ — الكافى فى أن لا دليل على النافى .
٣١ — سراج المهتدين . ٣٢ — تبيين الصحيح ، فى تعيين الذبيح
٣٣ — ملجأة المتفقهين ، إلى معرفة غوامض النحويين .
٣٤ — أعيان الأعيان . ٣٥ — تخليص التلخيص
٣٦ — ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة : منه مخطوطة ناقصة فى مكتبة عبد الحى الكتانى بالمغرب .

وفى خلال اشتغال ابن العربى بالتدريس والتأليف فى العشر الأواخر من سنى حياته ، كان يتردد عليه الأدباء ، ويساجلهم الأدب والشعر بقريحة وقادة ، وبيان جزل . ولا يتسع هذا المقام لوصف مقامه الأدبى ، ونكتفى بإيراد المثل الآتى لهذه الناحية : دخل عليه الأديب ابن صارة الشنتريني وبين يدى القاضى أبى بكر نار علاها رماد فقال لابن صارة : قل فى هذه . فقال :

شابت نواصى النار بعد سوادها   وتسترت عنا بثوب رماد

ثم قال لابن العربى . أجز . فقال :

شابت كما شبنا وزال شبابنا   فكأنما كنا على ميعاد

ونختم هذه الترجمة قبل ذكر وفاته ، بفصل عقده وصاف أدب أدباء الأندلس الوزير أبو نصر الفتح بن خاقان القيسى فى كتابه (المطمح) فقال يصف الفقيه الأجل الحافظ أبو بكر بن العربى :

« علم الأعلام الطاهر الأثواب ، الباهر الألباب . الذى أنسى ذكاء إياس . وترك التقليد للقياس . وانتجع الفرع من الأصل ، وغدا فى يد الإسلام أمضى من النصل . سقى الله به الأندلس بعدما أجدبت من المعارف ، ومد عليها من الظل الوارف . فكساها رونق نبله . وسقاها ريق وبله وكان أبوه أبو محمد بإشبيلية بدراً فى فلكها . وصدراً فى مجلس ملكها . واصطفاه

معتمد بنى عباد ، اصطفاه المأمون لابن أبى داود . وولاه الولايات الشريفة وبوّأه المراتب المنيفة . فلما أقفرت حمص من ملكهم وخلت [1] وألقتهم منها وتخلت . رحل به إلى المشرق ، وحل فيه محل الخائف الفرق . فجال فى أكنافه ، وأجال قداح الرجاء فى استقبال العز واستئنافه . فلم يسترد ذاهباً . ولم يجد كمتعمده باذلا له وواهباً . فعاد إلى الرواية والسماع . وما استفاد من إجالة تلك الأطماع . وأبو بكر إذ ذاك فى ثرى الذكاء قضيب ما دوّح ، وفى روض الشباب زهر ما صوّح ، فألزمه مجالس العلم رائحاً وغادياً ، ولازمه سائقاً إليها وحادياً . حتى استقرت به مجالسه ، واطردت له مقايسه . فجد فى طلبه ، واستجد به أبوه منخرق أربه . ثم أدركه حمامه ووراته هناك رجامه . وبقى أبو بكر متفرداً ، وللطلب متجرداً . حتى أصبح فى العلم وحيداً ، ولم تجد عنه الرياسة محيدا . فكر إلى الأندلس فحلها والنفوس إليه متطلعة ، ولأنبائه متسمعة . فناهيك من حظوة لقى ، ومن عزة سقى ، ومن رفعة سما إليها ورقى . وحسبك من مفاخر قلدها ، ومن محاسن أنس أنبتها فيها وخلدها .

وفى السنوات الأخيرة من حياة ابن العربى مات على بن يوسف بن تاشفين صاحب المغرب والأندلس ، فقام بعده (سنة ٥٣٧) ابنه تاشفين الذى كان والياً لأبيه على الأندلس . وفى زمنه استفحلت دعوة الموحدين التى كان دعا إليها ابن تومرت مدعى المهدوية فتولاها بعده صنيعته عبد المؤمن بن على ، وتغلب عبد المؤمن على المعز تاشفين وشرده إلى وهران فى غرب الجزائر ، ثم قتله فى وهران فى رمضان سنة ٥٣٩ ، وحاصر أخاه إسحاق بن على بن يوسف

---

(١) كانت إشبيلية فى زمن الفتح الإسلامى منزل الفاتحين من أبناء « حمص » إحدى المدن الشامية ، فسموا إشبيلية باسم بلدهم ، ولذلك يقول فيها ابن عبدون :

هل تذكر العهد الذى لم أنسه ... ومودتى مخدومة بصفاء
ومبيتنا فى أرض حمص والحجى ... قد حل عقد صباه بالصهباء
ودموع طل الليل يخلق أعينا ... ترنو الينا من عيون الماء

ابن تاشفين فى مراكش سنة ٥٤٠ مدة تسعة أشهر واستولى عليه وعليها فى شوال سنة ٥٤١ ، فانقرضت دولة المرابطين أو الملثمين بعد أن حكمت ١٤١ سنة . وهكذا شهد ابن العربى بسقوط دولة آل عباد على يد يوسف ابن تاشفين فى أول شبابه. ثم شاهد سقوط دولة بنى تاشفين على يد عبد المؤمن ابن على صاحب دولة الموحدين فى أواخر شيخوخته . وعقب ذلك أخذت وفود مدائن الأندلس تفد على مراكش طالبة من عبد المؤمن الاستيلاء على بلادهم من بقايا المرابطين . وحضر فى سنة ٥٤٢ وفد (إشبيلية) برآسة عظيمها وكبير علمائها الإمام أبى بكر بن العربى . ولسبب غامض لا نعرفه إلى الآن حبس عبد المؤمن هذا الوفد فى مراكش نحو عام ، ثم سرّحوا ، فأدركته منيته منصرفة من مراكش فى موضع يسمى (اغلان) على مسيرة يوم من فاس غرباً منها ، فاحتمل ميتاً إلى فاس فى اليوم الثانى من موته ، وصلى عليه صاحبه أبو الحكم بن حجاج ، ودفن فى يوم الأحد ٧ ربيع الأول سنة ٥٤٣ خارج المحروق أعلى مدينة فاس بتربة القائد مظفر . رحمه الله وأعلى مقامه فى دار الخلود .



أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عدول
بتعديل الله ورسوله لهم
ولا ينتقص أحداً منهم إلا زنديق

عقد الإمام الحافظ المحدث أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب البغدادى (٣٩٢ – ٤٦٣) فصلا نفيساً فى كتابه (الكفاية) الذى طبعه صاحب السمو نظام حيدر أباد الدكن بالهند سنة ١٣٥٧ (ص ٤٦ – ٤٩) واعتمده شيخ الإسلام الإمام الحافظ قاضى قضاة مصر شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى (٧٧٣ – ٨٥٢) فى مقدمة كتابه (الإصابة) الذى طبعه فى مصر سلطان المغرب مولاى عبد الحفيظ سنة ١٣٢٨ (ج ١ ص ١٠ – ١١) ونحن نقتطف منه ما يلى :

عدالةُ الصحابة ثابتةٌ معلومة بتعديل الله لهم ، وإخباره عن طهارتهم ، واختياره لهم فى نص القرآن .

فمن ذٰلك قوله تعالى ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجتْ لِلنَّاس ﴾

وقوله ﴿ وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس ، ويَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

وقوله ﴿ لَقَدْ رَضِىَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونكَ تحتَ الشَّجَرة فَعلِمَ مَا فِى قُلُوبهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾

وقوله تعالى ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُون مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَار وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رضى اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْه ﴾

وقوله ﴿ والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِى جَنَّاتِ النَّعِيم ﴾

وقوله ﴿ يا أَيُّها النَّبِىُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَن اتَّبَعكَ مِنَ الْمُؤْمِنينَ ﴾

وقوله تعالى ﴿ لِلْفُقَراء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلًا من الله وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُون اللهَ وَرَسُولَهُ ، أُولٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ والإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّون مَنْ

هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يجدُونَ فِي صُدُورهِمْ حَاجةً ممَّا أُوتُوا ويُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَة ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسه فَأُولَٰئك هُمُ المُفْلِحُونَ﴾

ووصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابةَ مثلَ ذٰلك، وأطنبَ فى تعظيمهم، وأحسنَ الثناء عليهم. فمن الأخبار المستفيضة عنه فى هٰذا المعنى:

حديثُ عبد الله بن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «خَيْرُ أُمَّتى قرنى، ثم الذين يَلُونَهم، ثم الذين يَلُونَهم. ثم يجىء يومٌ تسبق أَيْمانهم شهادَتَهم، ويَشْهدون قبل أن يُسْتَشْهَدوا». ورواه أبو هريرة وعمران بن حُصين أيضًا.

وحديث أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تَسُبُّوا أَصحابى، فوالذى نفسى بيده لو أَنفقَ أحدُكم مثل أُحُدٍ ذهبًا ما أدركَ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَه».

وحديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَهْما أُوتيتم من كتاب الله فالعملُ به لا عُذْرَ لأحدكم فى تركه. فإن لم يكن كتاب الله فسنَّة منى ماضية فإن لم يكن سُنَّة منى ماضية فما قال أَصحابى، إن أَصحابى بمنزلة النجوم فى السماء فأَيُّها أخذتم به اهتديتم، واختلاف أَصحابى لكم رحمة».

وحديث سعيد بن المُسَيِّب عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سأَلتُ ربى فيما اختلفَ فيه أَصحابى من بعدى فأَوحى الله إلىّ: يا محمد، إن أَصحابكَ عندى بمنزلة النجوم فى السماء: بعضُها أَضْوَأُ من بعض، فمن أَخذَ بشىء مما هم عليه من اختلافهم فهو عندى على هُدًى»

وحديث الإمام الشافعى بسنده إلى أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الله اختارنى واختار أَصحابى فجعلهم أَصهارِى وجعلهم أَنصارى. وإنه سيجىء فى آخر الزمان قومٌ ينتقصونهم،

ألا فلا تُناكحوهم ، ألا فلا تَنْكحوا إليهم ، ألا فلا تُصَلوا مَعَهم ، ألا فلا تُصَلوا عليهم ، عليهم حَلّت اللعنة » .

قال الحافظ الكبير أبو بكر بن الخطيب البغدادى : والأخبار فى هذا المعنى تتسع ، وكلها مطابقة لما فى نص القرآن ، وجميع ذلك يقتضى طهارةَ الصحابة ، والقطعَ على تعديلهم ونزاهتهم ، فلا يحتاج أحد منهم – مع تعديل الله تعالى لهم ، المطّلع على بواطنهم – إلى تعديل أحد من الخلق له ... على أنه لو لم يَرِدْ من الله عز وجل ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه ، لأوجبت الحال التى كانوا عليها – من الهجرة ، والجهاد ، والنصرة ، وبذل المهج والأموال ، وقتل الآباء والأولاد ، والمناصحة فى الدين ، وقوّة الإيمان واليقين – القطعَ على عدالتهم ، والاعتقاد لنزاهتهم ، وأنهم أفضلُ من جميع المعدِّلين والمزكين . الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين .

أخبرنا أبو منصور محمد بن عيسى الهمذانى ، حدثنا صالح بن أحمد الحافظ قال : سمعتُ أبا جعفر أحمد بن عبدل يقول : سمعتُ أحمد بن محمد بن سليمان التسترى يقول : سمعتُ أبا زُرْعة يقول : « إذا رأيتَ الرجلَ ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم عندنا حقّ ، والقرآنَ حقّ ، وإنما أدّى إلينا هذا القرآن والسننَ أصحابُ رسول الله ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودَنا ليبطلوا الكتابَ والسنّة ، والجرحُ بهم أولى ، وهم « **زنادقة** » .

وأبو زرعة الذى أعلن زندقة من ينتقص أحدًا من الصحابة ، هو عبيد الله بن عبد الكريم الرازى ، من موالى بنى مخزوم ، كان أحدَ أعلام الأئمة . قال عنه الإمام أحمد : ما جاز الجسرَ أحفظُ من أبى زُرْعة. وقال الإمام أبو حاتم إن أبا زرعة ما خَلّف بعدَه مثله . توفى سنة ٢٦٤

العواصم من القواصم

في تحقيق مواقف الصحابة

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله

قال صالح بن عبد الملك بن سعيد :

قرأتُ على الإمام محمد أبي بكر بن العربيّ رضى الله عنه قال :

الحمد لله ربِّ العالمين * اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم . وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم . إنك حميد مجيد .

اللهم إنا نستمدُّ بك المِنْحة ، كما نستدْفعُ بك المحنة . ونسألك العصمة ، كما نستوهبُ منك الرحمة .

ربَّنا لا تُزِغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، ويسِّرْ لنا العمل كما علَّمتنا ، وأوْزِعْنا شكرَ ما آتيتَنا . وانهجْ لنا سبيلا يهدى إليك ، وافتح بيننا وبينك بابًا نَفِدُ منه عليك ، لكَ مقاليدُ السماوات والأَرض ، وأنت على كل شيء قدير .

بهذا التحميد ، والدعاء السديد ، افتتح الإمام ابن العربى الجزء الأول من كتابه (العواصم من القواصم) . فافتتحنا به هذا القسم من جزئه الثانى (من ص ٩٨ إلى ص ١٩٣ من مطبوعة الجزائر سنة ١٣٤٧) وهو ما اخترنا إفراده بهذا السفر خاصاً بتحقيق مواقف الصحابة رضوان الله عليهم بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، كما أشرنا إلى ذلك فى تصدير الكتاب

قاصمة الظهر

بعد أن استأثر الله بنبيه صلى الله عليه وسلم – وقد أكمل له ولنا دينه ، وأتمّ عليه وعلينا نعمتَه ، كما قال تعالى: ﴿ اليوم أكملتُ لكُمْ دينكم وأتممتُ عليكُمْ نِعْمتِي ورضيتُ لكم الإِسْلاَمَ دِينا ﴾ ، [المائدة : ٣] ، وما من شيء فى الدنيا يكمل إلا وجاءه النقصان ، ليكون الكمال الذى يراد به وجهُ الله خاصة ، وذلك العمل الصالح والدار الآخرة ، فهى دار الله الكاملة . قال أنس : « ما نفضنا أيدينا من تراب قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنكرْنا قلوبنا [(١)] » .

واضطربت الحال ، ثم تدارك الله الإسلام ببيعة أبى بكر ، فكان موت النبى صلى الله عليه وسلم (قاصمة الظهر) ومصيبة العمر :

فأما علىٌّ فاستخفى فى بيته مع فاطمة [(٢)]

---

(١) فى مطبوعة الجزائر « نفوسنا » والمروى فى الحديث « قلوبنا » من وجوه متعددة أشار إليها الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٥ : ٢٧٣ – ٢٧٤) أحدها للإمام أحمد عن أنس : « لما كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شيء ؛ قال : وما نفضنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأيدى حتى أنكرنا قلوبنا » ، وهكذا رواه الترمذى ، وابن ماجه ؛ وقال الترمذى : هذا حديث صحيح غريب . قال ابن كثير : وإسناده صحيح على شرط الصحيحين .

(٢) لأن فاطمة وجدت على أبى بكر لما أصر على العمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا نورث ما تركناه صدقة » وسيأتى تفصيل ذلك فى ص ٤٨–٥٠ ، فعاشت فاطمة بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم ستة أشهر معتزلة فى بيتها ومعها على كرم الله وجهه =

وأما عثمان فسكت .

وأما عمر فأهجر وقال : « ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما واعده الله كما واعد موسى [1] ، وليرجعنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فليقطعنّ أيدى النـــــــــــــــــاس

= قال الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٦ : ٣٣٣) : فلما مرضت جاءها الصديق فدخل عليها فجعل يترضاها فرضيت . رواه البيهقى من طريق اسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى ثم قال : وهذا مرسل حسن بإسناد صحيح . وقال البخارى (ك ٦٤ ب ٣٨ ج ٥ ص ٨٢ — ٨٣) من حديث عروة عن عائشة : « فلما توفيت دفنها زوجها على ليلا ولم يؤذن بها أبا بكر وصلى عليها ، وكان لعلى من الناس وجه فى حياة فاطمة ، فلما توفيت استنكر علىّ وجوه الناس ، فالتمس مصالحة أبى بكر ومبايعته .. الخ » . وبيعة على هذه هى الثانية بعد بيعته الأولى فى سقيفة بنى ساعدة . وأضاف الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٥ : ٢٤٩) أن علياً لم ينقطع عن صلاة من الصلوات خلف الصديق ، وخرج معه إلى ذى القصة لما خرج الصديق شاهراً سيفه يريد قتال أهل الردة .

ويحتمل أن يكون مراد المؤلف باستخفاء على ما كان منه ومن الزبير قبيل الاجتماع فى سقيفة بنى ساعدة ، وقد أشار عمر بن الخطاب إلى ذلك فى خطبته الكبرى التى خطبها فى المدينة فى عقب ذى الحجة بعد آخر حجة حجها عمر ، وهذه الخطبة فى مسند الإمام أحمد (١ : ٥٥ الطبعة الأولى — ج ١ رقم ٣٩١ الطبعة الثانية) من حديث ابن عباس .

(١) إشارة إلى قوله الله عز وجل فى سورة البقرة : ٥١ ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ﴾ ، وقوله سبحانه فى سورة الأعراف : ١٤٢ ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾

وأرجلهم [1]

وتعلق بالُ العباس وعليٍّ بأمر أنفسهما فى مَرضِ النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال العبَّاسُ لعليّ : « إنى أرى الموت فى وجوه بنى عبد المطلب ،

(1) فى مسند أحمد (٣ : ١٩٦ الطبعة الأولى) حديث أنس بن مالك عن يوم وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وفيه : « ثم أرخى السّتر ، فقبض فى يومه ذاك . فقام عمر فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت ، ولكن ربه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى ، فمكث عن قومه أربعين ليلة . وإنى لأرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتّى يقطع أيدى رجال من المنافقين وألسنتهم يزعمون (أو قال : يقولون) إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات » . وفى كتاب فضائل الصحابة من صحيح البخارى (ك ٦٢ ب ٥) عن عائشة : « ... فقام عمر يقول : والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم .، والله ما كان يقع فى نفسى إلا ذاك ، وليبعثنه الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم » . ونقل الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٥ : ٢٤٢) ما رواه البيهقى من طريق ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة بن الزبير قال : قام عمر بن الخطاب يخطب الناس ويتوعد من قال « مات » بالقتل والقطع ، ويقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غشية لو قد قام قتل وقطع . وفى (٥ : ٢٤١) من البداية والنهاية من حديث عائشة وهى تذكر الساعة التى توفى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجاء عمر والمغيرة بن شعبة فاستأذنا ، فأذنت لهما . . ثم قاما ، فلما دنوا من الباب قال المغيرة : يا عمر ، مات رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر : كذبت ، بل أنت رجل تحوسك (أى تخالطك) فتنة ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت حتّى يفنى الله المنافقين . ثم جاء أبو بكر .. وخرج إلى المسجد وعمر يخطب الناس ويقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت حتّى يفنى الله المنافقين .

ومعنى أهجر : خلط فى كلامه ، وهذى ، وأكثر الكلام فيما لا ينبغى . وذلك من هول ما وقع فى نفس عمر من هذا الحديث العظيم ، فهو لا يكاد يصدقه .

فتعال حتى نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان هذا الأمر فينا علمناه [1] .

وتعلق بالُ العباس وعليّ بميراثهما فيما تركه النبي صلى الله عليه وسلم من فدك وبني النضير وخيبر [2] .

واضطرب أَمرُ الأَنصار يطلبون الأمر لأَنفسهم ، أَو الشركة فيه مع المهاجرين [3]

---

(١) فأجابه على كرم الله وجهه: « إنا والله لئن سألناها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده ، وإنى والله لا أسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم » رواه البخارى فى كتاب المغازى من صحيحه (ك ٦٤ ب ٨٣ ج ٥ ص ١٤٠ — ١٤١) ؛ ونقله ابن كثير فى البداية والنهاية (٥ : ٢٢٧ و ٢٥١) من حديث الزهرى عن عبد الله ابن كعب بن مالك عن ابن عباس . ورواه الإمام أحمد فى مسنده (١ : ٢٦٣ و ٣٢٥ الطبعة الأولى و ج ٤ رقم ٢٣٧٤ و ج ٥ رقم ٢٩٩٩ الطبعة الثانية) .

(٢) سيأتى تفصيله فى ص ٤٨ عند الكلام على حديث « لا نورث ما تركنا صدقة » .

(٣) فاجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ، وبين ظهرانيهم سعد بن عبادة ، وهم يرون أن الأمر لهم ، لأن البلد بلدهم وهم أنصار الله وكتيبة الإسلام ، أما قريش فإن دافة منهم دفت ، فلا ينبغى أن تختزل الأمر من دون الأنصار . وقال خطيب منهم — وهو الحباب بن المنذر — « أنا جُذَيلها المحكّك ، وعُذَيقها المرجّب . منا أمير ومنكم أمير » . (وجذيلها المحكك : هو أصل شجرتها الذى تتحكك به الإبل . وعذيقها المرجب : نخلتها التى دعمت ببناء أو خشب لكثرة حملها) . ومع ذلك فقد كان رجل من الأنصار — وهو بشير بن سعد الخزرجى والد النعمان بن بشير — يسابق عمر إلى مبايعة أبى بكر . وقبيل ذلك كان فى السقيفة الرجلان الصالحان عويم بن ساعدة الأوسى ومعن بن عدى حليف الأنصار ولم تعجبهما هذه النزعة من الأنصار فخرجا وهما يريان أن يقضى المهاجرون أمرهم غير ملتفتين =

وانقطعتْ قلوبُ الجيش الذى كان قد برز مع أُسامة بن زيد بالجرف [١]

عاصمة

فتدارك الله الإسلام والأنام – وانجابت [الغمة] انجياب الغمام ، ونفذ وعدُ الله باستئثار رسول الله [٢] وإقامة دينه على التمام ، وإن كان قد أصاب ما أصاب من الرزية الإسلام – بأبى بكر الصديق رضى الله عنه [٣] .

= إلى أحد ، لكن حكمة أبى بكر ونور الإيمان الذى ملأ قلبه كانا أبعد مدى وأحكم تدبيراً لهذه الملة فى أعظم نوازلها .

(١) كان هذا الجيش سبعمائة ، والأمير عليهم أسامة بن زيد ، وكان قد ندبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسير إلى تخوم البلقاء (شرق الأردن) حيث قتل زيد ابن حارثة وجعفر بن أبى طالب وابن رواحة . ولما انتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى أشار كثير من الصحابة – ومنهم عمر – أن لا ينفذ الصديق هذا الجيش لما وقع من الاضطراب فى الناس ولا سيما فى القبائل . نقل ابن كثير فى البداية والنهاية (٦ : ٣٠٤ – ٣٠٥) حديث القاسم بن محمد بن أبى بكر وعمرة بنت سعيد الأنصارية عن عائشة قالت : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب قاطبة وأشربت النفاق ، والله لقد نزل بى ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها ، وصار أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كأنهم معزى مطيرة فى حش فى ليلة مطيرة بأرض مسبعة . فوالله ما اختلفوا فى نقطة إلا طار أبى بخطلها وعنانها وفصلها .

(٢) استأثر الله فلاناً ، وبفلان : إذا مات .

(٣) أى فتدارك الله الإسلام والأنام بأبى بكر .

وكان — إذ مات النبي صلى الله عليه وسلم — غائبًا فى ماله بالسُّنح (1) ، فجاء إلى منزل ابنته عائشة رضى الله عنها — وفيه مات النبي صلى الله عليه وسلم — فكشف عن وجهه ، وأكبَّ عليه يقبِّله وقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، طبتَ حيًا وميتا . والله لا يجمع الله عليك الموتتين ، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد متّها . ثم خرج إلى المسجد — والناس فيه ، وعمر يأتى بهجر من القول كما قدمنا — فرقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد أيها الناس ، من كان يعبُد محمدًا فإنَّ محمدًا قد مات ، ومنْ كان يَعْبُدُ الله فإنَّ الله حيٌّ لَا يموت » . ثم قرأ : ﴿ وما محمدٌ إلَّا رسُولٌ قَدْ خلتْ مِنْ قبْلهِ الرُّسُلُ ، أفإنْ مات أوْ قُتِلَ انْقلَبْتُمْ علَىٰ أعْقَابِكُمْ ، ومَنْ يَنْقلِبْ على عَقِبيْهِ

(1) فى البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٥ : ٢٤٤) : كان الصديق قد صلى بالمسلمين صلاة الصبح ، وكان إذ ذاك قد أفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم إفاقة من غمرة ما كان فيه من الوجع ، وكشف سترة الحجرة ونظر إلى المسلمين وهم صفوف فى الصلاة خلف أبى بكر ، فأعجبه ذلك وتبسم صلى الله عليه وسلم حتى هم المسلمون أن يتركوا ما هم فيه من الصلاة لفرحهم به ، وحتى أراد أبو بكر أن يتأخر ليصل الصف ، فأشار إليهم صلى الله عليه وسلم أن يمكثوا كما هم ، وأرخى الستارة ، وكان آخر العهد به صلى الله عليه وسلم . فلما انصرف أبو بكر من الصلاة دخل عليه وقال لعائشة : ما أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قد أقلع عنه الوجع ، وهذا يوم بنت خارجة — يعنى إحدى زوجتيه ، وكانت ساكنة بالسنح شرقى المدينة — فركب على فرس وذهب إلى منزله ، وتوفى صلى الله عليه وسلم حين اشتد الضحى ... فذهب سالم بن عبيد وراء الصديق فأعلمه بموت النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء الصديق حين بلغه الخبر ، وكان منه ما سيذكره المؤلف . والسنح منازل بنى الحارث بن الخزرج فى عوالى المدينة ، بينها وبين مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ميل واحد .

فلنْ يضرَّ اللهَ شيئًا ، وسيجزِى اللهُ الشّاكِرين ﴾ ، (آل عمران : ١٤٤)
فخرج النّاس يتلونها فى سكك المدينة كأنها لم تنزل إلا ذلك اليوم [١]

واجتمعت الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة يتشاورون ، ولا يدرون ما يفعلون . [وبلغ ذلك المهاجرين] فقالوا : نرسل إليهم يأتوننا . فقال أبو بكر : بل نمشى إليهم . فسار إليهم المهاجرون ، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، فتراجعوا الكلام ، فقال بعض الأنصار : منا أمير ومنكم أمير [٢] . فقال أبو بكر كلامًا كثيرًا مصيبًا ، يُكثر ويصيب . منه : نحن الأُمراء وأنتم الوزراء . إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « الأئمة من قريش » [٣] وقال : « أُوصيكم بالأنصار خيرًا » : أن تقبلوا

---

(١) رواه البخارى فى كتاب فضائل الصحابة من صحيحه (ك ٦٢ ب ٥ — ج ٤ ص ١٩٤) من حديث عائشة . وفى سنن الدارقطنى (٣ : ٤٠٦) والبداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٥ : ٢٤٢) من حديث أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، أحد أعلام المسلمين ، عن عائشة أم المؤمنين التى وقعت هذه الحوادث فى بيتها وفى المسجد النبوى الذى يطل بيتها عليه . وجميع دواوين السنة تحلت هذا الموقف العظيم للصديق الأكبر بأصح الأحاديث . وألفاظها قريب بعضها من بعض .

(٢) الذى قال ذلك من خطباء الأنصار الحباب بن المنذر ، وقد تقدم فى هامش ٣ ص ٤٠

(٣) الحديث فى مسند الطيالسى برقم ٩٢٦ عن أبى برزة ، وبرقم ٢١٣٣ منه عن أنس . وفى كتاب الأحكام من صحيح البخارى (ك ٩٣ ب ٢ — ج ٨ ص ١٠٤ — ١٠٥) عن معاوية أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن هذا الأمر فى قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين» . وعن عبد الله بن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يزال هذا الأمر فى قريش ما بقى منهم اثنان » . وفى مسند الإمام أحمد (٣ : ١٢٩ الطبعة الأولى) عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على =

من محسنهم . وتتجاوزوا عن مسيئهم [1] » . إن الله سمانا (الصادقين) [2] وسماكم (المفلحين [3]) . وقد أمركم أن تكونوا معنا حيثما كنا فقال :

= باب البيت ونحن فيه فقال «الأئمة من قريش . إن لهم عليكم حقاً ... الخ» ورواه الإمام أحمد أيضاً فى المسند (٣ : ١٨٣ الطبعة الأولى) عن أنس قال : كنا فى بيت رجل من الأنصار فجاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى وقف فأخذ بعضادة الباب فقال : « الأئمة من قريش ، ولهم عليكم حق ، ولكم مثل ذلك . . الخ » ورواه الإمام أحمد كذلك (٤ : ٤٢١ الطبعة الأولى) عن أبي برزة يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الأئمة من قريش : إذا استرحموا رحموا ، وإذا عاهدوا وفوا ، وإذا حكموا عدلوا . فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

(١) فى كتاب مناقب الأنصار من صحيح البخارى (ك ٦٣ ب ١١) من حديث هشام بن زيد بن أنس قال : سمعت أنس بن مالك يقول : مر أبو بكر والعباس رضى الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار يبكون (والظاهر أن ذلك كان فى مرض النبي صلى الله عليه وسلم الذى مات به) فقال : ما يبكيكم ؟ قالوا : ذكرنا مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك . قال : فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وقد عصب على رأسه حاشية برد . قال فصعد المنبر — ولم يصعده بعد ذلك اليوم — فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي ، وقد قضوا الذى عليهم وبقى الذى لهم ، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم » . وبعده فى صحيح البخارى حديث لعكرمة عن ابن عباس ، وحديث لقتادة عن أنس بمعنى ذلك . وقريب من ذلك فى صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدرى ، وفى سنن الترمذى عن ابن عباس .

(٢ — ٣) فى سورة الحشر : ٨ — ٩ ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم (الصادقون) * والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم (المفلحون) ﴾ .

﴿ يا أيُّها الَّذِين آمنُوا اتَّقوا الله وكُونوا مع الصادِقِين ﴾ . (التوبة : ١١٩)۔ إلى غير ذلك من الأقوال المصيبة والأدلة القوية . فتذكرت الأنصار ذلك وانقادت إليه ، وبايعوا أبا بكر الصديق رضى الله عنه [١] .

وقال أبو بكر لأسامة : انفذ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر : كيف ترسل هذا الجيش والعرب قد اضطربت عليك !؟ فقال : لو لعبت الكلابُ بخلاخيل نساء المدينة ، ما رددت جيشًا أنفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢]

(١) نقل الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٥ : ٢٤٧) من حديث الإمام أحمد عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى (ابن أخت أمير المؤمنين عثمان) خطبة أبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة ، ومنها قوله : لقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار وادياً سلكت وادى الأنصار » ولقد علمت يا سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وأنت قاعد : « قريش ولاة هذا الأمر : فبرُّ الناس تبع لبرهم ، وفاجرهم تبع لفاجرهم » ، فقال له سعد : « صدقت ، نحن الوزراء وأنتم الأمراء »

(٢) نقل الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٦ : ٣٠٥) عن الحافظ أبى بكر البيهقى حديث محمد بن يوسف الفريابى الحافظ (قال البخارى : كان أفضل أهل زمانه) ، عن عباد بن كثير الرملى أحد شيوخه (قال ابن المدينى : كان ثقة لا بأس به) عن عبدالرحمن ابن هرمز الأعرج (أحد التابعين ، توفى بالإسكندرية) عن أبى هريرة قال : « والله الذى لا إله إلا هو ، لولا أبو بكر استخلف ما عبد الله ، » ثم قال الثانية ، ثم قال الثالثة ، فقيل له : مه يا أبا هريرة . فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه أسامة بن زيد فى سبعمائة إلى الشام ، فلما نزل بذى خشب قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وارتدت العرب حول المدينة . فاجتمع إليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا بكر ، =

وقال له عمر وغيره : إذا منعك العربُ الزكاة فاصبر عليهم . فقال : « والله لو منعونى عِقالا كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه . والله لأُقاتلنّ من فرق بين الزكاة والصلاة [1] » .

= رد هؤلاء ، توجه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة !؟ فقال : « والذى لا إله غيره ، لو جرَّت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رددت جيشاً وجهه رسول الله ، ولا حللت لواء عقده رسول الله » . فوجه أسامة ، فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا : لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم . فلقوا الروم ، فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين ، فثبتوا على الإسلام .

(١) لما مضى جيش أسامة فى طريقه إلى شرق الأردن جعلت وفود القبائل تقدم المدينة ، يقرون بالصلاة ويمتنعون عن أداء الزكاة . قال ابن كثير (٦ : ٣١١) : ومنهم من احتج بقوله تعالى (التوبة ١٠٣) : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ . قالوا : فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا ؛ وقد تكلم الصحابة مع الصديق فى أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان فى قلوبهم ثم هم بعد ذلك يزكون ، فامتنع الصديق من ذلك وأباه . وقد روى الجماعة فى كتبهم — سوى ابن ماجه — عن أبى هريرة أن عمر بن الخطاب قال لأبى بكر : علام تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها » فقال أبو بكر : « والله لو منعونى عناقاً (وفى رواية : عقالا) كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنهم على منعها . إن الزكاة حق المال ، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » . قال عمر : فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال ، فعرفت أنه الحق . وهذا الحديث فى مسند أحمد (١ و ١١ =

قيل : ومع من تقاتلهم ؟ قال : « وحدى ، حتى تنفرد سالفتى [1] »

وقدّم الأمراء على الأجناد والعمال فى البلاد مختاراً لهم ، مرتئيا فيهم ، فكان ذلك من أسدّ عمله . وأفضل ما قدمه للإسلام [2] .

= و ١٩ و ٣٥ – ٣٦ الطبعة الأولى – ج ١ رقم ٦٧ و ١١٧ و ٢٣٩ الطبعة الثانية) من حديث عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن أبى هريرة . وفى البداية والنهاية (٦ : ٣١٢) قال القاسم بن محمد (ابن أبى بكر الصديق ، وهو أحد الفقهاء السبعة) : اجتمعت أسد وغطفان وطىء على طليحة الأسدى ، وبعثوا وفوداً إلى المدينة فنزلوا على وجوه الناس ، فأنزلوهم إلا العباس ، فحملوهم إلى أبى بكر على أن يقيموا الصلاة ولا يؤتوا الزكاة ، فعزم الله لأبى بكر على الحق وقال « لو منعونى عقالا لجاهدتهم » .

(١) السالفة : صفحة العنق ، وهما سالفتان من جانبيه ، ولا تنفرد إحداهما عما يليها إلا بالموت .

(٢) وفى طليعة هؤلاء القواد : أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح الفهرى ، وعمرو بن العاص السهمى ، وخالد بن الوليد المخزومى ، وخالد بن سعيد بن العاص الأموى ، ويزيد بن أبى سفيان ، وعكرمة بن أبى جهل ، والمهاجر بن أبى أمية شقيق أم المؤمنين أم سلمة ، وشرحبيل بن حسنة ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وسهيل بن عمرو العامرى خطيب قريش ، والقعقاع بن عمرو التيمى ، وعرفجة بن هرثمة البارقى ، والعلاء بن الحضرمى حليف بنى أمية ، والمثنى بن حارثة الشيبانى ، وحذيفة بن محصن الغطفانى . وفى طليعة ولاته : عتاب بن أسيد الأموى ، وعثمان بن العاص الثقفى ، وزياد بن لبيد الأنصارى ، وأبو موسى الأشعرى ، ومعاذ بن جبل ، ويعلى بن منية ، وجرير بن عبد الله البجلى ، وعياض بن غنم ، والوليد بن عقبة بن أبى معيط ، وعبد الله بن ثور أحد بنى غوث ، وسويد بن مقرن المزنى .

وقال لفاطمة وعليّ والعباس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : « لا نُورث ، ما تركناه صدقة » . فذكر الصحابة ذلك [1] .

---

(١) فى كتاب فضائل الصحابة من صحيح البخارى (٦٢ ب ١٢ — ج ٤ ص ٢٠٩ — ٢١٠) حديث الزهرى عن عروة بن الزبير عن عائشة أن فاطمة أرسلت إلى أبى بكر تسأله ميراثها من النبى صلى الله عليه وسلم فيما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم تطلب صدقة النبى صلى الله عليه وسلم التى بالمدينة وفدك وما بقى من خمس خيبر ، فقال أبو بكر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة . إنما يأكل آل محمد من هذا المال — يعنى مال الله — ليس لهم أن يزيدوا على المأكل » وإنى والله لا أغير شيئاً من صدقات النبى صلى الله عليه وسلم التى كانت عليها فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ولأعملن فيها بما عمل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فتشهد علىّ ثم قال : إنا عرفنا يا أبا بكر فضيلتك (وذكر قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقهم) فتكلم أبو بكر فقال : والذى نفسى بيده ، لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبّ إلىّ أن أصل من قرابتى . وأوسع منه فى كتاب المغازى بباب غزوة خيبر من صحيح البخارى (ك ٦٤ ب ٢٨ — ج ٥ ص ٨٢) .

وفى كتاب الوصايا من صحيح البخارى (ك ٥٥ ب ٣٢ — ج ٣ ص ١٩٧) وكتاب فرض الخمس من (ك ٥٧ ب ٣ — ج ٤ ص ٤٥) حديث أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يقتسم ورثتى ديناراً ، ما تركته بعد نفقة نسائى ومؤونة عاملى فهو صدقة » . قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة (٢ : ١٥٨) : قول النبى صلى الله عليه وسلم « لا نورث ، ما تركنا صدقة » رواه عنه أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن ابن عوف ، والعباس بن عبد المطلب ، وأزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبو هريرة ، والرواية عن هؤلاء ثابتة فى الصحاح والمسانيد . وقال قبل ذلك (٢ : ١٦٧) : إن الله تعالى صان الأنبياء أن يورثوا دنيا ، لئلا يكون ذلك شبهة لمن يقدح فى نبوتهم بأنهم طلبوا =

= الدنيا وورثوها لورثتهم . ثم إن من ورثة النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه ومنهم عائشة بنت أبي بكر وقد حرمت نصيبها بهذا الحديث النبوى ، ولو جرى أبو بكر مع ميله الفطرى لأحب أن ترث ابنته .

وفى كتاب فرض الخمس من صحيح البخارى (ك ٥٧ ب ١ — ج ٤ ص ٤٢) حديث ابن شهاب عن عروة بن الزبير أن عائشة أم المؤمنين أخبرت أن فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت أبا بكر الصديق بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسم لها ميراثها ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أفاء الله عليه ، فقال لها أبو بكر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا نورث ، ما تركنا صدقة » ... ، فأبى أبو بكر عليها ذلك وقال : « لست تاركاً شيئاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملت به . فإنى أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ » .

وفى الباب نفسه من صحيح البخارى (ج ٤ ص ٤٢ — ٤٤) من حديث الإمام مالك ابن أنس عن ابن شهاب عن مالك بن أوس عن الحدثان النصرى أنه قال : بينا أنا جالس فى أهلى حين متع النهار ، إذا رسول عمر بن الخطاب ، فقال : أجب أمير المؤمنين ، فانطلقت معه . فبينا أنا جالس عنده أتاه حاجبه يرفأ فقال : هل لك فى عثمان وعبد الرحمن ابن عوف والزبير وسعد بن أبى وقاص يستأذنون ؟ قال : نعم . فأذن لهم ... ثم جلس يرفأ يسيراً ثم قال : هل لك فى على وعباس ؟ قال : نعم . فأذن لهما ، فدخلا فسلما فجلسا ، فقال عباس : يا أمير المؤمنين اقض بينى وبين هذا — وهما يختصمان فيما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من بنى النضير — فقال الرهط ، عثمان وأصحابه : يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرح أحدهما من الآخر . قال عمر : تيدكم . أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه ؟ قال الرهط : قد قال ذلك ، فأقبل عمر على على وعباس فقال : أنشدكما الله ، أتعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال ذلك ؟ قالا : قد قال ذلك . (وبعد أن ذكر أنه صلى الله عليه وسلم كان ينفق على أهل سنتهم من هذا المال ثم يجعل ما بقى مال الله ، واستشهد على ذلك فشهدوا ، قال) : ثم توفى الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : أنا ولى رسول الله صلى الله =

= عليه وسلم ، فقبضها ، فعمل فيها بما عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله يعلم أنه فيها لصادق بار راشد تابع للحق . ثم توفى الله أبا بكر ، فكنت أنا ولى أبى بكر ، فقبضتها سنتين من إمارتى ، أعمل فيها بما عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما عمل فيها أبو بكر ، والله يعلم أنى فيها لصادق بار راشد تابع للحق . ثم جئتمانى تكلمانى وكلمتكما واحدة وأمركما واحد ، جئتنى يا عباس تسألنى نصيبك من ابن أخيك ، وجاءنى هذا – يريد علياً – يريد نصيب امرأته من أبيها ، فقلت لكما : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » . فلما بدا لى أن أدفعه إليكما قلت : إن شئتما دفعتها إليكما على أن عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما عمل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبما عمل فيها أبو بكر ، وبما عملتُ فيها منذ وليتها . فقلتما : ادفعها إلينا . فبذلك دفعتها إليكما . فأنشدكم بالله ، هل دفعتها إليهما بذلك ؟ قال الرهط : نعم : ثم أقبل على على وعباس فقال : أنشدكما بالله ، هل دفعتها إليكما بذلك ؟ قال : نعم . قال : أفتلتمسان منى قضاء غير ذلك ! فوالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، لا أقضى فيها قضاء غير ذلك ، فإن عجزتما عنها فادفعاها إلى فإنى أكفيكماها .

وأورد البخارى حديث مالك بن أوس هذا فى كتاب المغازى من صحيحه (ك ٦٤ ب ١٤ – ج ٥ ص ٢٣ – ٢٤) من حديث شعيب عن الزهرى عن مالك بن أوس ؛ وفى كتاب النفقات من صحيحه (ك ٦٩ ب ٣ – ج ٦ ص ١٩٠ – ١٩٢) ، وفى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيحه (ك ٩٦ ب ٥ – ج ٨ ص ١٤٦ – ١٤٧) . وانظر كتاب الفرائض من صحيح البخارى (ك ٨٥ ب ٣ – ج ٨ ص ٣ – ٥) . ومسند الإمام أحمد (١ : ١٣ الطبعة الأولى – ورقم ٧٧ و ٧٨ الطبعة الثانية) .

وقد نبه شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة (٣ : ٢٣٠) إلى أن أبا بكر وعمر أعطيا من مال الله أضعاف هذا الميراث للذين كانوا سيرثونه قال : وإنما أخذ منهم قرية ليست كبيرة ، لم يأخذ منهم مدينة ولا قرية عظيمة . ثم قال (٣ – ٢٣١) وقدتولى=

وقال : سمعته صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يُدفَن نبيٌّ إلا حيث يموت [1] » وهو فى ذلك كله رابطُ الجأْش ، ثابتُ العلم والقَدم فى الدين

ثم استخلف عمرَ ، فظهرت بركةُ الإسلام ، ونفذ الوعدُ الصادق فى الخليفتين [2] .

= علىّ بعد ذلك ، وصارت فدك وغيرها تحت حكمه ، ولم يعط لأولاد فاطمة ولا زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ولا ولد العباس شيئاً من ميراثه ... الخ .

(1) فى كتاب الجنائز من موطأ مالك (ك ١٦ ج ٢٧ — ص ٢٣١) أن مالكاً بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى يوم الإثنين ودفن يوم الثلاثاء : وصلى الناس أفذاذاً لا يؤمهم أحد . فقال ناس : يدفن عند المنبر : وقال آخرون : يدفن بالبقيع ؛ فجاء أبو بكر الصدّيق فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما دفن نبى قط إلا فى مكانه الذى توفى فيه » . قال الحافظ ابن عبد البر : صحيح من وجوه مختلفة وأحاديث شتى جمعها مالك : وفى كتاب الجنائز من جامع الترمذى (ك ٨ ب ٣٣) حديث عائشة : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى دفنه ، فقال أبو بكر : سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ما نسيته ، قال « ما قبض الله نبياً إلا فى الموضع الذى يجب أن يدفن فيه » ادفنوه فى موضع فراشه . وفى كتاب الجنائز من سنن ابن ماجه (ك ٦ ب ٦٥) عن ابن عباس : لقداختلف المسلمون فى المكان الذى يحفر له ، فقال قائلون : يدفن فى مسجده ، وقال قائلون : يدفن مع أصحابه ، فقال أبو بكر : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما قُبض نبى إلا دفن حيث يقبض » ؛ ورواه ابن إسحاق (فى السيرة لابن هشام ٣ : ١٠٣ بولاق) من حديث عكرمة عن ابن عباس : وانظر البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٥ : ٢٦٦ — ٢٦٨) ؛

(2) وهو وعد الله عز وجل فى سورة النور : ٥٥ ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم =

ثم جعلها عمرُ شُورى ، فأَخرج عبدُ الرحمن بن عوف نفسه من الأَمر حتى ينظر ويتحرَّى فيمن يقدّم [1] ، فقدَّم عثمانَ ، فكان عند

= الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ . ولقد كان المجتمع الإسلامى – بتوجيه هذين الخليفتين – أسعد مجتمع إنسانى عرفه التاريخ ، لأن الناس – من ولاة ورعية – كانوا يتعاملون بالإيثار ، وكان الواحد منهم يكتفى بما بفى بحاجته ، ويبذل من ذات نفسه أقصى ما يستطيع أن يستخرج منها من جهد لإقامة الحق فى الأرض وتعميم الخير بين الناس . ويلتى الرجل الخيرُ منهم رجلا لا تزال تنزع به نزعات الشر ، فلا يزال به حتى يخدر عناصر الشر المتوثبة فى نفسه ، ويوقظ ما كمن فيها من عناصر الخير إلى أن يكون من أهل الخير . المنتسبين إلى الإسلام حى يومنا هذا طوائف امتلأت قلوبهم بالضغن حتى على أبى بكر وعمر ، فضلا عمن استعان بهم أبو بكر وعمر من أهل الفضل والإحسان ، فصنعوا لهم من الأخبار الكاذبة شخصيات أخرى غير شخصياتهم التى كانوا عليها فى نفس الأمر ، ليقنعوا أنفسهم بأنهم إنما أبغضوا أناساً يستحقون منهم هذه البغضاء . ولهذا امتلأ التاريخ الإسلامى بالأكاذيب ، ولن تتجدد للمسلمين نهضة إلا إذا عرفوا سلفهم على حقيقته واتخذوا منه قدوة لهم ولن يعرفوا سلفهم على حقيقته إلا بتطهير التاريخ الإسلامى مما لصق به .

(1) فى كتاب فضائل الصحابة من صحيح البخارى (ك ٦٢ ب ٨ – ج ٤ ص ٢٠٤ – ٢٠٧) حديث عمرو بن ميمون أحد تلاميذ معاذ وابن مسعود ومن شيوخ الشعبى وسعيد ابن جبير وطبقتهما ، وقد اشتمل هذا الحديث على خبر مقتل أمير المؤمنين عمر ، وكيف جعل عمر الخلافة شورى بين الستة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وكيف أخرج عبد الرحمن بن عوف نفسه منها . ثم انتهى إلى تقديم عثمان . وهذا =

الظن به : ما خالف له عهدًا ، ولا نكث عقداً ، ولا اقتحم مكروهاً ، ولا خالف سُنَّة (١) .

= الحديث من أصح ماثبت في هذا الموضوع وأجوده . واقرأ بعد ذلك ماكتبه شيخ الإسلام ابن تيمية عن موقف عمر في جعله الأمر شورى في كتاب منهاج السنة (٣ : ١٦٨ – ١٧٢)، وفيه إرشاد دقيق إلى ماكان عليه بنو هاشم وبنو أمية من الاتفاق والمحبة والتعاون في أيام النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر ، وأن عثمان وعلياً كان أحدهما أقرب إلى صاحبه من سائر الأربعة إليهما . ونقل ابن تيمية (في ٣ : ٢٣٣ – ٢٣٤) قول الإمام أحمد : لم يتفق الناس على بيعة كما اتفقوا على بيعة عثمان : ولاه المسلمون بعد تشاورهم ثلاثة أيام ، وهم مؤتلفون متفقون متحابون متوادون معتصمون بحبل الله جميعاً . وقد أظهرهم الله ، وأظهر بهم ما بعث به نبيه من الهدى ودين الحق ، ونصرهم على الكفار ففتح بهم بلاد الشام والعراق وبعض خراسان .. الخ .

(١) وكيف لا يكون عثمان عند الظن به وقد شهد له بطهارة السيرة وحُسن الخاتمة رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . قال الحافظ ابن حجر في ترجمة عثمان من (الإصابة) : جاء من أوجه « متواترة » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر عثمان بالجنة ، وعدَّه من أهل الجنة ، وشهد له بالشهادة . والحديث الذي يتواتر بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرتاب فيه ولا يجنح إلى غير مدلوله إلا الذي يرضى لنفسه بأن يقتحم أبواب الجحيم . وروى الترمذي من طريق الحارث بن عبد الرحمن ، عن طلحة أحد العشرة المبشرين بالجنة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لكل نبي رفيق ، ورفيقي بالجنة عثمان » . وقال الحافظ ابن عبد البر في ترجمة عثمان من كتاب (الاستيعاب) ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « سألت ربي عز وجل أن لا يدخل النار أحداً صاهر إليَّ أو صاهرتُ إليه » : وشهادة أخرى من رسول الله صلى الله =

= عليه وسلم لهذا الإنسان الأفضل يتمنى مثلها أبوبكر وعمر وعلى . فقد روى الإمام مسلم فى كتاب فضائل الصحابة من صحيحه (ك ٤٤ ج ٢٦ — ج ٧ ص ١١٦ — ١١٧) عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى عثمان : ألا أستحيى من رجل تستحيى منه الملائكة ؟ » : وفى صحيح البخارى (ك ٦٢ ب ٧ — ج ٤ ص ٢٠٣) عن نافع ، عن عبد الله ابن عمر بن الخطاب قال : كنا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم لا نعدل بأبى بكر أحداً ، ثم عمر ، ثم عثمان . ثم نترك أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم لا نفاضل بينهم . وقيل للمهلب ابن أبى صفرة : لم قيل لعثمان ذا النورين ؟ قال : لأنه لم يعلم أن أحداً أرسل ستراً على ابنتى نبى غيره . وروى خيثمة فى فضائل الصحابة عن النزال بن سبرة العامرى (أحد الذين أخذوا عن أبى بكر وعثمان وعلى ، وهو من شيوخ الشعبى والضحاك وطبقتهما) قال : قلنا لعلى حدثنا عن عثمان ، فقال « ذاك امرؤ يدعى فى الملإ الأعلى ذا النورين » . وقال ابن مسعود حين بويع عثمان بالخلافة « بايعنا خيرنا ، ولم نأل » . ووصفه على بن أبى طالب بعد انقضاء أجله فقال « كان عثمان أوصلنا للرحم ، وكان من الذين آمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين » . وروى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أن أباه قال « لقد عتبوا على عثمان أشياء لو فعلها عمر ما عتبوا عليه » . وعبد الله بن عمر كان شاهد عيان لخلافة عثمان من أولها إلى آخرها ، وكان أشد الناس فى التزام السنة المحمدية ، ومع ذلك فإنه يشهد لعثمان بأن كل ما عتبوا به عليه كان يحتمل أن يكون من عمر — وهو أبوه — ولو كان ذلك من عمر لما عتب أحد به عليه . وقال مبارك بن فضالة مولى زيد بن الخطاب : سمعت عثمان يخطب وهو يقول « يا أيها الناس ما تنقمون علىّ ، وما من يوم إلا وأنتم تقسمون فيه خيراً » . وقال الحسن البصرى : شهدت منادى عثمان ينادى : يا أيها الناس اغدوا على أعطياتكم ، فيغدون ويأخذونها وافية . يا أيها الناس اغدوا على أرزاقكم ، فيغدون ويأخذونها وافية . حتى — والله — سمعته أذناى يقول : اغدوا على كسوتكم

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بأن عمرَ شهيد ، وبأن عثمانَ شهيد ، وبأن له الجنَّة على بلْوى تصيبه [1] .

= فيأخذون الحلل . واغدوا على السمن والعسل . قال الحسن : أرزاق دارَّة ، وخير كثير ، وذات بين حسن . ما على الأرض مؤمن يخاف مؤمناً ، إلا يوده وينصره ويألفه . فلو صبر الأنصار على الأثرة لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق ، ولكنهم لم يصبروا ، وسلوا السيف مع من سل ، فصار عن الكفار مغمداً ، وعلى المسلمين مسلولا (روى ذلك عنه الحافظ ابن عبد البر) . وقال ابن سيرين — صنو الحسن البصري وزميله ، وهو أيضاً كان معاصراً لعثمان — : « كثر المال في زمن عثمان حتى بيعت جارية بوزنها ، وفرس بمائة ألف درهم ، ونخلة بألف درهم » . وسئل عبد الله بن عمر بن الخطاب عن علي وعثمان . فقال للسائل : « قبحك الله ! تسألني عن رجلين — كلاهما خير مني — تريد أن أغض من أحدهما وأرفع من الآخر !؟ » .

(1) في كتاب فضائل الصحابة من صحيح البخاري (ك ٦٢ ب ٧ — ج ٤ ص ٢٠٢) حديث أبي موسى الأشعري قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم دخل حائطاً (أي بستاناً) وأمرني بحفظ باب الحائط ، فجاء رجل يستأذن ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ائذن له وبشره بالجنة » فإذا أبو بكر . ثم جاء آخر يستأذن ، فقال : « ائذن له وبشره بالجنة » فإذا عمر ، ثم جاء آخر يستأذن ، فسكت هنيهة ثم قال : « ائذن له وبشره بالجنة على بلوى ستصيبه » فإذا عثمان بن عفان . (وانظر صحيح البخاري ك ٦٢ ب ٥ و ٦ — ج ٤ ص ١٩٥ — ١٩٧ و ٢٠١ — ٢٠٢) . ومثله في كتاب فضل الصحابة من صحيح مسلم (ك ٤٤ ح ٢٨ و ٢٩ — ج ٧ ص ١١٧ — ١١٩) من حديث أبي موسى الأشعري أيضاً . وروى ابن ماجه في الباب ١١ رقم ١١١ من مقدمة السنن (ج ١ ص ٤١ بتحقيق الاستاذ فؤاد عبد الباقي) عن محمد بن سيرين من أئمة التابعين ، عن كعب بن عجرة البلوي حليف =

وهو وزوجه رُقيَّة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أولُ مهاجر بعد إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم ، دخل به فى باب « أَوَّلُ من ... »[1] وهو علم كبير جمعه الناس .

ولما صحت إمامته قُتل مظلوما [2] ، وليقضى الله أمرًا كان مفعولا .

= الأنصار وأحد الذين شهدوا عمرة الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت فيه آية الفدية ١٩٥ من سورة البقرة ، قال كعب بن عجرة : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة فقرَّبها ، فمر رجل مقنع رأسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا يومئذ على الهدى » فوثبت فأخذت بضبعى عثمان ، ثم استقبلت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : هذا ؟ قال : هذا . ومن مسند أحمد (١ : ٥٨ الطبعة الأولى — رقم ٤٠٧ الطبعة الثانية) عن أبى سهلة مولى عثمان — وهو تابعى ثقة — أن عثمان قال يوم الدار حين حصر : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلى عهداً ، فأنا صابر عليه » والحديث عند الترمذى (٤ : ٣٢٤) من طريق وكيع . وقال : حديث حسن صحيح . وعند ابن ماجه (١ : ٤١ ، ٤٢ رقم ١١٢ ، ١١٣) حديثان أحدهما لأبى سهلة مولى عثمان والآخر لعائشة . وأوردهما الحاكم فى المستدرك على الصحيحين (١ : ٩٩) عن عائشة .

(١) الجلال السيوطى وغيره من العلماء قبله وبعده كتب ألفوها فى تسمية الأشخاص الذين سبقوا غيرهم إلى شىء من الأعمال المحمودة وغيرها ، فيقولون (مثلا) : كان عثمان أول من هاجر فى سبيل الله الهجرة الأولى إلى الحبشة .

(٢) روى الإمام أحمد فى مسنده (٢ : ١١٥ الطبعة الأولى — ج ٨ رقم ٥٩٥٣ الطبعة الثانية) عن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة ، فمر رجل ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يقتل فيها هذا المقنع يومئذ مظلوماً » قال (عبد الله بن عمر) : فنظرتُ ، فإذا هو عثمان بن عفان . قال الشيخ أحمد شاكر : والحديث رواه الترمذى (٤ : ٣٢٣) ونقل شارحه عن الحافظ ابن حجر أنه قال : إسناده صحيح . وروى الحاكم فى المستدرك (٣ : ١٠٢) نحوه من حديث مرة بن كعب وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

ما نصب حرباً [1] ولا جيَّش عسكرًا [2] ، ولا سعى إلى فتنة [3] ، ولا دعا إلى بيعة [4] ، ولا حاربه ولا نازعه من هو من أضرابه ولا أشكاله [5] ، ولا كان يرجوها لنفسه . ولا خِلافَ أنه ليس لأحد أن

---

(١) أى لقتال أهل القبلة . أما حروبه لإعلاء كلمة الله ونشر دعوة الحق فكانت من أنشط ما عرفه التاريخ الإسلامى .

(٢) أى للدفاع عن نفسه ، وكبح جماح البغاة عليه .

(٣) بل كان أشد خلق الله كرهاً لها وحرصاً على تضييق دائرتها ، حقناً لدماء المسلمين ، ولو أدى ذلك به إلى أن يكون هو ضحية لغيره .

(٤) وإنما أتته منقادة على غير تشوُّف منه إليها . قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة (٣ : ١٦٤) : « إن الصحابة اجتمعوا على عثمان رضى الله عنه لأن ولايته كانت أعظم مصلحة وأقل مفسدة من ولاية غيره . ثم قال فى الصفحة التالية : ولا ريب أن الستة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض —أى الذين عينهم عمر— لا يوجد أفضل منهم ، وإن كان فى كل منهم ما كرهه فإن غيرهم يكون فيه من المكروه أعظم ، ولهذا لم يتول بعد عثمان خير منه ولا أحسن سيرة .

(٥) أضراب أمير المؤمنين عثمان وأشكاله هم إخوانه الذين أشركهم أمير المؤمنين عمر فى الشورى ، أما الذين استطاع عبد الله بن سبأ وتلاميذه أن يوقعوهم فى حبائل الفتنة فبينهم وبين مستوى أهل الشورى أبعد مما بين الحضيض والقمة ، بل أبعد مما بين الشر والخير . وإن الشر الذى أقحموه على تاريخ الإسلام بحماقاتهم وقصر أنظارهم لو لم يكن من نتائجه إلا وقوف حركة الجهاد الإسلامى فيما وراء حدود الإسلام سنين طويلة لكفى به إثماً وجناية . قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة (٢ : ١٨٦) : إن =

يفعل ذلك فى غير عثمان ، فكيف بعثمان رضى الله عنه !

وقد سموا من قام عليه ، فوجدناهم أهل أغراض سوء حِيل بينهم وبينها[1] ، فوعظوا وزجروا [2] ، وأقاموا عند عبد الرحمن بن خالد

= خيار المسلمين لم يدخل واحد منهم فى دم عثمان . لا قتل ، ولا أمر بقتله، وإنما قتله طائفة من المفسدين فى الأرض من أوباش القبائل وأهل الفتن . وكان على رضى الله عنه يقول « اللهم العن قتلة عثمان فى البر والبحر والسهل والجبل » .

(١) الذين شاركوا فى الجناية على الإسلام يوم الدار طوائف على مراتب : فيهم الذين غلب عليهم الغلو فى الدين ، فأكبروا الهنات ، وارتكبوا فى إنكارها الموبقات . وفيهم الذين ينزعون إلى عصبية يمنية على شيوخ الصحابة من قريش ، ولم تكن لهم فى الإسلام سابقة . فحسدوا أهل السابقة من قريش على ما أصابوا من مغانم شرعية جزاء جهادهم وفتوحهم ، فأرادوا أن يكون لهم مثلها بلا سابقة ولا جهاد . وفيهم الموتورون من حدود شرعية أقيمت على بعض ذويهم ، فاضطغنوا فى قلوبهم الإحنة والغل لأجلها . وفيهم الحمقى الذين استغل السبئيون ضعف قلوبهم فدفعوهم إلى الفتنة والفساد والعقائد الضالة . وفيهم من أثقل كاهله خير عثمان ومعروفه نحوه ، فكفر معروف عثمان عندما طمع منه بما لا يستحقه من الرئاسة والتقدم بسبب نشأته فى أحضانه . وفيهم من أصابهم من عثمان شيء من التعزير لبوادر بدرت منهم تخالف أدب الإسلام ، فأغضبهم التعزير الشرعى من عثمان ، ولو أنهم قد نالهم من عمر أشد منه لرضوا به طائعين . وفيهم المتعجلون بالرياسة قبل أن يتأهلوا لها اغتراراً بما لهم من ذكاء خلاب أو فصاحة لا تغذيها الحكمة ، فثاروا متعجلين بالأمر قبل إبانة . وبالإجمال ، فإن الرحمة التى جبل عليها عثمان وامتلأ بها قلبه أطمعت الكثير فيه ، وأرادوا أن يتخذوا من رحمته مطية لأهوائهم . ولعلى إذا اتسع لى الوقت أتفرغ لدراسة نفسيات هؤلاء الخوارج على عثمان ، وتنظيم المعلومات الصحيحة التى بقيت لنا عنهم ، ليكون من ذلك درس عبرة لطلاب التاريخ الإسلامى .

(٢) وقد وعظهم وزجرهم أهل العافية والحكمة والرضا من أعيان أمصارهم وعلمائها=

ابن الوليد [١] ، وتوعّدهم حتى تابوا [٢] ، فأرسل بهم إلى عثمان فتابوا [٣] .
وخيرهم فاختاروا التفرّق فى البلاد ، فأرسلهم : فلما سار كل إلى ما اختار أنشأُوا الفتنة ، وألّبوا الجماعة ، وجاءُوا إليه [٤] بجملتهم ، فاطلع عليهم من حائط داره ووعظهم ، وذكّرهم ، وورّعهم عن دمه [٥] ، وخرج طلحة يبكى ويورع الناس ، وأرسل علىّ ولديه [٦] ، وقال الناس لهم [٧] : إنكم أرسلتم إلينا « أقبلوا إلى من غيّر سنة الله [٨] » ، فلما جئنا قعد هـــــــــــــــذا فى بيته - يعنون عليًا -

= فى الكوفة والبصرة والفسطاط ، ثم وعظهم وزجرهم معاوية فى مجالس له معهم عندما سيرهم عثمان إلى الشام كما سيجىء عند كلام المؤلف على سطوهم على المدينة - بحجة الحج - فحولوا حجهم الكاذب إلى البغى على خليفتهم وسفك دمه الحرام فى الشهر الحرام بجوار قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام .

(١) وكان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد والياً لمعاوية على حمص وما يليها من شمال الشام إلى أطراف جزيرة ابن عمر ، وسيأتى الحديث عن أحوالهم عند ما قبض عليهم هذا الشبل المخزومى بمثل مخالب أبيه .

(٢) بل تظاهروا بأنهم تابوا ، ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ﴾ .

(٣) خيرهم عبد الرحمن بن خالد فى أن يذهبوا إلى عثمان ، فذهب كبيرهم الأشتر النخعى ، وله قصة نذكرها فى موضعها من هذا الكتاب .

(٤) أى إلى أمير المؤمنين عثمان .

(٥) ورّعهم عن الشىء : كفهم ومنعهم بالحجة والحق المنير .

(٦) ليكونا فى حراسة أمير المؤمنين عثمان ، وبدافعا عنه

(٧) أى قال البغاة يخاطبون علياً وطلحة والزبير .

(٨) زعم البغاة أنهم تلقوا من على وطلحة والزبير يدعونهم بها للثورة على عثمان بدعوى أنه غير سنة الله . وسيأتى إنكار على وطلحة والزبير أنهم كتبوا بذلك ، والظاهر أن الفريقين صادقان ، وأن منظمى الفتنة من السبأيين زوروا الرسائل التى ذكرها البغاة الثائرون .

وخرجتَ أنت [1] تفيض عينيك . والله لا برحنا حتى نريق دمه .

وهذا قهرٌ عظيم ، وافتئاتٌ على الصحابة ، وكذبٌ فى وجوههم وبهت لهم . ولو أراد عثمان لكان مستنصرًا بالصحابة ، ولنصروه فى لحظة [2] . وإنما جاء القوم مستجيرين متظلمين [3] . فوعظهم ، فاستشاطوا . فأراد الصحابة أَلَّهُم [4] ، فأوعز إليهم عثمان ألا يقاتل أحد بسببه أبدا . فاستسْلم ، وأسلموه برضاه .

وهى مسألةٌ من الفقه كبيرة : هل يجوز للرجل أن يستسلم ، أم يجب عليه أن يدافع عن نفسه ؟

وإذا استسلم وحرَّم على أحد أن يدافع عنه بالقتل ، هل يجوز لغيره أن يدافع عنه ولا يلتفت إلى رضاه ؟ اختلف العلماء فيها .

فلم يأتِ عثمان منكراً لا فى أول الأمر ، ولا فى آخره ، ولا جاء الصحابة بمنكر . وكل ما سمعت من خبر باطل إياكَ أن تلتفت إليه [5]

---

(١) الخطاب لطلحة بن عبيد الله .

(٢) ولقد راودوه فى ذلك مراراً ، وعرض عليه معاوية أن ينقل دار الخلافة إلى الشام ، أو يمده بجند من الشام لا يعرف له التاريخ إلا التقدم والظفر .

(٣) أى أن البغاة ظهروا بمظهر المتظلم وهو يدعى أموراً يشكوها ، فكان عثمان يرى لهم حقاً عليه أن يبين لهم وللناس حجته فيما ادعوا ، ووجهة نظره فى الأمور التى زعموا أنهم جاءوا يتظلمون منها .

(٤) ألَّه : طعنة بالألَّة ، وهى الحربة العريضة النصل .

(٥) ومعيار الأخبار فى تاريخ كل أمة الوثوق من مصادرها ، والنظر فى ملاءمتها لسجايا الأشخاص المنسوبة إليهم. وأخبار التاريخ الإسلامى نقلت عن شهود عيان ذكر بعضـ

قاصمة

قالوا متعدّين ، متعلّقين برواية كذّابين : جاء عثمان فى ولايته بمَظالم ومَناكير ، منها :

١ ــ ضربُه لعمار حتى فتقَ أمعاءه .

٢ ــ ولابن مسعود حتى كسر أضلاعه ومنعه عطاءه .

٣ ــ وابتدع فى جمع القرآن وتأليفه ، وفى حرق المصاحف .

٤ ــ وحمىٰ الحِمىٰ .

٥ ــ وأجلىٰ أبا ذرّ إلى الرَبذَة .

= لمن جاءوا بعدهم . وهؤلاء رووها لمن بعدهم وقد اندس فى هؤلاء الرواة أناس من أصحاب الأغراض زوروا أخباراً على لسان آخرين وروجوها فى الكتب ، إما تقرباً لبعض أهل الدنيا ، أو تعصباً لنزعة يحسبونها من الدين . ومن مزايا التاريخ الإسلامى ــ تبعاً لما جرى عليه علماء الحديث ــ أنه قد تخصص فريق من العلماء فى نقد الرواية والرواة ، وتمييز الصادقين منهم عن الكذبة ، حتى صار ذلك علما محترماً له قواعد ، وألفت فيه الكتب ، ونظمت للرواة معاجم حافلة بالتراجم ، فيها التنبيه على مبلغ كل راو من الصدق والتثبت والأمانة فى النقل ، وإذا كان لبعضهم نزعات حزبية أو مذهبية قد يجنح معها إلى الهوى ذكروا ذلك فى ترجمته ليكون دارس أخبارهم ملما بنواحى القوة والضعف من هذه الأخبار ، والذين يتهجمون عن الكتابة فى تاريخ الإسلام وتصنيف الكتب فيه قبل أن يستكملوا العدة لذلك ــ ولا سيما فى نقد الرواة ومعرفة ما حققه العلماء فى عدالتهم أو تجريحهم ــ يقعون فى أخطاء كان فى إمكانهم أن لا يقعوا فيها لو أنهم استكملوا وسائل العلم بهذه النواحى ٥

٦ — وأخرج من الشام أبا الدَّرْداء

٧ — وردَّ الحَكَم بعد أن نفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٨ — وأبطلَ سنَّة القصْر فى الصلوات فى السفر .

٩ — ١٢ — وولَّى معاوية ، [وعبد الله بن عامر بن كريز [1]] ، ومروان . وولَّى الوليد بن عُقْبة وهو فاسق ليس من أهل الولاية .

١٣ — وأعطى مروانَ خُمس إفريقية .

١٤ — وكان عمرُ يضرب بالدِّرة وضرب هو بالعصا [2] .

١٥ — وعلا على درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد انحطَّ عنها أبو بكر وعمر .

١٦ — ولم يحضر بدرًا . وانهزم يوم أُحد ، وغاب عن بيعة الرضوان

١٧ — ولم يقتل عبيدَ الله بن عمر بالهرْمزان (الذى أعطى السكين إلى أبى لؤلؤة ، وحرَّضه على عمر حتى قتله) .

١٨ — وكتب مع عبده على جمله كتابا إلى ابن أبى سَرْج فى قتل من ذكر فيه .

---

(١) سقط اسم ابن كريز من الأصل سهواً من الناسخ أو من الطابع فى مطبوعة الجزائر ، مع أنه ذكر فى الدفاع الآتى بعد . ومطبوعة الجزائر طبعت على أصل سقيم بخط ناسخ غير متمكن : وقد وقع تقديم وتأخير فى ترتيب التهم وأجوبتها ، ويلوح لنا أن مجلد الأصل المخطوط الذى طبعت عليه مطبوعة الجزائر وضع بعض الورق فى غير مواضعه عند التجليد ، فأعدنا ترتيب التهم وأجوبتها على نسق ، ولم نزد عن الأصل كلمة ولم ننقص منه كلمة ، وبذلك تلافينا الاضطراب الذى كان بادياً للقارئ فى المطبوعة الجزائرية .

(٢) الدرة عصا صغيرة يحملها السلطان يزع بها .

عاصمة

هذا كلُّه باطلٌ سنداً ومتناً . أما قولُهم « جاء عثمان بمظالم ومناكير » فباطل [1] .

١ ـ ٢ ـ وأما ضربُه لابن مسعود ومنعهُ عطاءه فزور [2] ، وضربُه

(١) كما ترى من الأدلة التى سيوردها المؤلف فى نقض هذه التهم واحدة بعد واحدة حتى يأتى على آخرها .

(٢) تقدم فى هامش ص ٥٤ قول عبد الله بن مسعود لما بويع عثمان : « بايعنا خيرنا ولم نأل » ويروى « ولينا أعلانا ذا فوق ولم نأل » . وعند ولاية عثمان كان ابن مسعود والياً لعمر على أموال الكوفة ، وسعد بن أبى وقاص والياً على صلاتها وحربها ، فاختلف سعد وابن مسعود على قرض استقرضه سعد ـ كما سيأتى ـ فعزل عثمان سعداً وأبقى ابن مسعود . وإلى هنا لا يوجد بين ابن مسعود وخليفته إلا الصفو . فلما عزم عثمان على تعميم مصحف واحد فى العالم الإسلامى يجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه هو المصحف الكامل الموافق الآخر عرضة عرض بها كتاب الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته ، كان ابن مسعود يود لو أن كتابة المصحف نيطت به ، وكان يود أيضاً لو يبقى مصحفه الذى كان يكتبه لنفسه فيما مضى . فجاء عمل عثمان على خلاف ما كان يوده ابن مسعود فى الحالتين : أما فى اختيار عثمان زيد بن ثابت لكتابة المصحف الموحد فلأن أبا بكر وعمر اختاراه قبل ذلك لهذا العمل فى خلافة أبى بكر ، بل إن أبا بكر وعمر اختارا زيد بن ثابت فى البداية لأنه هو الذى حفظ العرضة الأخيرة لكتاب الله على الرسول صلوات الله عليه قبيل وفاته ، فكان عثمان على حق فى هذا ، وهو يعلم ـ كما يعلم سائر الصحابة ـ مكانة ابن مسعود وعلمه وصدق إيمانه : ثم إن عثمان =

لعمار إفك مثله ، ولو فتق أمعاءه ما عاش أبدا [1]

=كان على حق أيضاً فى غسل المصاحف الأخرى كلها ومنها مصحف ابن مسعود ، لأن توحيد كتابة المصحف على أكمل ما كان فى استطاعة البشر هو من أعظم أعمال عثمان بإجماع الصحابة ، وكان جمهور الصحابة فى كل ذلك مع عثمان على ابن مسعود (انظر منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣ : ١٩١ — ١٩٢) . وعلى كل حال فإن عثمان لم يضرب ابن مسعود ولم يمنعه عطاءه ، وبقى يعرف له قدره كما بقى ابن مسعود على طاعته لإمامه الذى بايع له وهو يعتقد أنه خير المسلمين وقت البيعة .

(١) روى الطبرى (٥ : ٩٩) عن سعيد بن المسيب أنه كان بين عمار وعباس ابن عتبة بن أبى لهب خلاف حمل عثمان على أن يؤدبهما عليه بالضرب . قلت وهذا مما يفعله ولى الأمر فى مثل هذه الأحوال قبل عثمان وبعده ، وكم فعل عمر مثل ذلك بأمثال عمار ومن هم خير من عمار بما له من حق الولاية على المسلمين . ولما نظم السبئيون حركة الإشاعات ، وصاروا يرسلون الكتب من كل مصر إلى الأمصار الأخرى بالأخبار الكاذبة فأشار الصحابة على عثمان بأن يبعث رجالا ممن يثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليه بحقيقة الحال ، تناسى عثمان ما كان من عمار ، وأرسله إلى مصر ليكون موضع ثقته فى كشف حالها . فأبطأ عمار فى مصر ، والتف به السبئيون ليستميلوه إليهم ، فتدارك عثمان وعامله على مصر هذا الأمر ، وجيء بعمار إلى المدينة مكرماً . وعاتبه لما قدم عليه فقال له — على ما رواه الحافظ ابن عساكر فى تاريخ دمشق (٧ : ٤٢٩) — : « يا أبا اليقظان قذفت ابن أبى لهب أن قذفك .. وغضبت على أن أخذت لك بحقك وله بحقه ؟ اللهم قد وهبت ما بينى وبين أمتى من مظلمة ، اللهم إنى متقرب إليك بإقامة حدودك فى كل أحد ولا أبالى . اخرج عنى يا عمار » فخرج ، فكان إذا لقى العوام نضح عن نفسه وانتفى من ذلك ، وإذا لقى من يأمنه بذلك وأظهر الندم ، فلامه الناس هجروه وكرهوه ؟ قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة (٣ : ١٩٢ — ١٩٣) : وعثمان أفضل من كل=

وقد اعتذر عن ذلك العلماءُ بوجوه لا ينبغي أن يُشتَغل بها لأنها مبنية

=من تكلم فيه ، هو أفضل من ابن مسعود ، وعمار ، وأبي ذر ، ومن غيرهم من وجوه كثيرة كما ثبت ذلك بالدلائل ، فليس جعل كلام المفضول قادحاً في الفاضل بأولى من العكس . وكذلك ما نقل من تكلم عمار في عثمان ، وقول الحسن فيه (أي في عمار) ، نقل أن عماراً قال : لقد كفر عثمان كفرة صلعاء . فأنكر الحسن بن علي ذلك عليه ، وكذلك علي وقال له : يا عمار ، أتكفر برب آمن به عثمان ؟ قال ابن تيمية : وقد تبين من ذلك أن الرجل المؤمن الذي هو ولي لله قد يعتقد كفر الرجل المؤمن الذي هو ولي لله ، ويكون مخطئاً في هذا الاعتقاد ولا يقدح هذا في إيمان واحد منهما وولايته . كما ثبت في الصحيح أن أسيد بن حضير قال لسعد بن عبادة بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم : إنك منافق تجادل عن المنافقين . كما قال عمر بن الخطاب لحاطب بن أبي بلتعة : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق . فقال صلى الله عليه وسلم : «إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . فعمر أفضل من عمار ، وعثمان أفضل من حاطب بن أبي بلتعة بدرجات كثيرة ، وحجة عمر فيما قال لحاطب أظهر من حجة عمار ، ومع هذا فكلاهما من أهل الجنة ، فكيف لا يكون عثمان وعمار من أهل الجنة وإن قال أحدهما للآخر ما قال ؟ مع أن طائفة من العلماء أنكروا أن يكون عمار قال ذلك ... ثم قال شيخ الإسلام : وفي الجملة ، فإذا قيل إن عثمان ضرب ابن مسعود أو عمار فهذا لا يقدح في أحد منهم . فإنا نشهد أن الثلاثة في الجنة ، وأنهم من أكابر أولياء الله المتقين . وإن ولي الله قد يصدر عنه ما يستحق عليه العقوبة الشرعية ، فكيف بالتعزير . وقد ضرب عمر بن الخطاب أبيّ بن كعب بالدرة لما رأى الناس يمشون خلفه وقال : « هذا ذلة للتابع وفتنة للمتبوع » فإن كان عثمان أدب هؤلاء : فإما أن يكون عثمان مصيباً في تعزيرهم لاستحقاقهم ذلك ، ويكون ذلك الذي عزروا عليه تابوا منه وكفر عنهم بالتعزير وغيره من المصائب أو بحسناتهم العظيمة أو بغير ذلك : وإما أن يقال=

على باطل [1] ، ولا يُبنىٰ حقٌّ على باطل . ولا نُنادِ . الزمان فى مماشاة الجهال ، فإن ذلك لا آخر له .

٣ — وأما جمع القرآن ، فتلك حسنتُه العظمىٰ ، وخصْلتُه الكبرىٰ ، وإن كان وَجدها كاملة ، لكنه أظهرها وردَّ الناس إليها ، وحسم مادة الخلاف فيها . وكان نفوذُ وعد الله بحفظ القرآن على يديه حسبما بيناه فى كتب القرآن وغيرها [2]

روى الأئمةُ بأجمعهم [3] أن زيدَ بن ثابت قال : أرسلَ إلىَّ أبو بكر

= كانوا مظلومين مطلقاً ، فالقول فى عثمان كالقول فيهم وزيادة ، فإنه أفضل منهم ، وأحق بالمغفرة والرحمة ... الخ .

(١) أى على ادعاء الكاذبين أعداء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمير المؤمنين عثمان ضرب عماراً حتى فتق أمعاءه ، وضرب ابن مسعود حتى كسر أضلاعه ومنعه عطاءه !

(٢) أ[illegible] فى مؤلفات ابن العربى المتعلقة بعلوم القرآن ، وقد ذكرنا فى ترجمته (ص ١، [illegible]) أن منها (أنوار الفجر) فى ثمانين أو تسعين مجلداً ، و (قانون التأويل) من مؤلفاته الكبرى ، و (أحكام القرآن) المطبوع فى مصر ، و (كتاب المشكلين) و (الناسخ والمنسوخ)

(٣) وفى مقدمتهم الإمام أحمد فى مسنده (١ : ١٣ الطبعة الأولى — رقم ٧٦ الطبعة الثانية . و ٥ : ١٨٨ — ١٨٩ الطبعة الأولى) . والإمام البخارى فى صحيحه (كتاب التفسير ك ٦٥ السورة ٩ ب ٢٠ ج ٥ ص ٢١٠ — ٢١١ ؛ وكتاب فضائل القرآن ك ٦٦ ب ٣ و ٤ ج ٦ ص ٨٨ — ٩٩ ، وكتاب الأحكام ك ٩٣ ب ٣٧ ج ٨ ص ١١٨ — ١١٩ ؛ وكتاب التوحيد ك ٩٧ ب ٢٢ ج ٨ ص [illegible] — [illegible])

مقْتلَ أهل اليمامة [1] فإذا عمرُ بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر :
« إن عمرَ أتانا فقال : إن القتلَ قد استحرَّ يوم اليمامة بقرّاء القرآن ،
وإنى أخشى أن يستحرَّ القتلُ بالقرّاء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن ،
وإنى أرى أن تجمع القرآن . قلتُ لعمر : كيف نفعل شيئًا لم يفعله

(١) وذلك لما ارتدت بنو حنيفة برآسة مسيلمة الكذاب وبتحريض عدو الله الرّجال ابن عنفوة بن نهشل الحنفى . وكانت قيادة المسلمين لسيف الله خالد بن الوليد ، واستشهد فى هذه الملحمة زيد بن الخطاب أخو عمر . وكان حفظة القرآن من الصحابة يتواصون بينهم ويقولون : يا أصحاب سورة البقرة بطل السحر اليوم . وتحنط خطيب الأنصار وحامل لوائهم ثابت بن قيس ولبس كفنه وحفر لقدميه فى الأرض إلى أنصاف ساقيه ولم يزل يقاتل وهو ثابت بالراية فى موضعه حتى استشهد . وقال المهاجرون لسالم مولى أبى حذيفة : أتخشى أن نؤتى من قبلك ؟ فأجاب : بئس حامل القرآن أنا إذن . وقاتل حتى استشهد . وقال أبو حذيفة : زينوا القرآن بالفعال ، وما زال يقاتل حتى أصيب ؛ وممن استشهد يومئذ حزن بن أبى وهب المخزومى جد سعيد بن المسيب ، وكان شعار الصحابة يومئذ : وامحمداه ! وصبروا يومئذ صبراً لم يعهد مثله حتى ألجأوا المرتدين إلى حديقة الموت فاعتصم فيها مسيلمة ورجاله . فقال البراء بن مالك : يا معشر المسلمين ألقونى عليهم فى داخل الحديقة أفتح لكم بابها . فاحتملوه فوق الجحف ورفعوه بالرماح وألقوه فى الحديقة من فوق سورها ، فما زال يقاتل المرتدين دون بابها حتى فتحه ودخل المسلمون وكان النصر ، وممن اقتحم الحديقة أبو دجانة من مجاهدى بدر حتى وصل إلى مسيلمة وعلاه بالسيف فقتله ، وكسرت رجله رضى الله عنه فى تلك الوقعة ثم نال الشهادة ؛ وفى البداية والنهاية (٦ : ٣٢٤ — ٣٤٠) أسماء كثيرين من شهداء هذا اليوم العظيم فى الإسلام ، ومنهم حفظة كتاب الله ؛ والشيعة يذمون موقف الصحابة من مسيلمة وقومه ويدافعون عن المرتدين . انظر (المنتقى من منهاج الاعتدال) ص ٢٧٠ — ٢٧٢

رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هذا والله خير . فلم يزل يراجعنى حتى شرح اللهُ صدرى لذلك ، ورأيتُ فى ذلك الذى رأى عمر » . قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شابٌّ عاقل لَا نَتَّهِمُكَ ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فتتَّبع القرآن فاجمعْه » . فوالله لو كلَّفونى نقلَ جبل من الجبال ما كان أثقل علىَّ مما أمرونى به من جمع القرآن . قلتُ : كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : « هذا والله خير » . فلم يزل يراجعى حتى شرح اللهُ صدرى للذى شرح له صدرَ أبى بكر وعمر . فتتبعتُ القرآنَ أجمعُه من العُسُب واللِّخاف وصُدور الرجال [1] ، حتى وجدتُ آخر سورة التوبة مع خزَيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِن أَنْفُسِكُمْ ﴾ حتى خاتمة براءة .

فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفْصة بنت عمر . حتى قدم حُذيفةُ بن اليمان على عثمان [2] ، وكان يُغازى أهل الشَّام فى فتح أرمينيَّة وأذْرِبيَجان مع أهل العراق ، فحدَّثه حذيفة عن اختلافهم فى القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أَدْرِكْ هذِهِ الأُمَّةَ قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلافَ اليهود والنصارى : فأرسل عثمان إلى حفصة أنْ أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ، ثم نردُّها إليك . فأرسلتْ بها حفصةُ إلى عثمان ، فأمر

(١) العسب (جمع عسيب) أى جريدة النخل ، وهى السعفة التى لا ينبت عليها الخوص . واللخاف (جمع لخفة) وهى حجارة بيض رقاق . كانوا يكتبون عليهما إذا تعذر الورق .

(٢) وحديثه عن ذلك فى صحيح البخارى (ك ٦٦ ب ٣ — ج ٦ ص ٩٩) عن ابن شهاب الزهرى عن أنس بن مالك .

زيد بن ثابت ، وعبدَ الله بن الزُّبيْر ، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف [1] .

(١) العناية التى بذلها عظما الإسلام أبو بكر وعمر ، وأتمها أخوهما وصنوهما ذو النورين عثمان فى جمع القرآن وتثبيته وتوحيد رسمه ، كان لهم بها أعظم المنة على المسلمين ، وبها حقق الله وعده فى قوله سبحانه ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون ﴾ . وقد تولى الخلافة بعد هؤلاء الشيوخ الثلاثة أمير المؤمنين على فأمضى عملهم وأقر مصحف عثمان برسمه وتلاوته ، فى جميع أمصار ولايته، وبذلك انعقد إجماع المسلمين فى الصدر الأول على أن ما قام به أبو بكر وعمر وعثمان هو أعظم حسناتهم . بل نقل بعض علماء الشيعة هذا الإجماع على لسان أمير المؤمنين على بن أبى طالب . جاء فى كتاب تاريخ القرآن لأبى عبد الله الزنجانى (ص ٤٦) من شيعة عصرنا أن على بن موسى المعروف بابن طاوس (٥٨٩ — ٦٦٤) وهو من علمائهم نقل فى كتابه (سعد السعود) عن الشهرستانى فى مقدمة تفسيره عن سويد بن غفلة (*) قال : سمعت على بن أبى طالب عليه السلام يقول : « أيها الناس ، الله ، الله ، إياكم والغلو فى أمر عثمان وقولكم حراق المصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جمعنا وقال : ما تقولون فى هذه القراءة التى اختلف الناس فيها . يلقى الرجل فيقول قراءتى خير من قراءتك : وهذا يجر إلى الكفر ؟ فقلنا : ما الرأى ؟ قال : أريد أن أجمع الناس على مصحف واحد، فإنكم إن اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافاً . فقلنا : نعم ما رأيت » . ومما لا ريب فيه أن البغاة أنفسهم كانوا فى خلافة على رضى الله عنه يقرأون فى مصاحف عثمان التى أجمع عليها الصحابة وعلىٌّ فيهم . ولكن نجم لهم أذناب فى العصور التالية فضحوا أنفسهم بسخفهم وكفرهم ، كشيطان الطاق محمد بن جعفر الرافضى فيما رواه الإمام ابن حزم فى (الفِصَل) ٤ : ١٨١ عن الجاحظ قال : أخبرنى أبو إسحاق إبراهيم النظام وبشر بن خالد =

(*) هو أبو أمية الجعفى الكوفى . قدم المدينة حين نقضت الأيدى من دفنه صلى الله عليه وسلم وشهد اليرموك . يروى عن أبى بكر وعمر وعلى وعثمان . ويروى عنه النخعى والشعبى وعبدة بن أبى لبابة : ثقة . مات سنة ٨٠ وقيل ٨١ عن مائة وثلاثين سنة .

وقال عثمان للرهط القُرشيين الثلاثة : « إذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت من شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم » ففعلوا .

حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمانُ الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أُفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة ومصحف أن يُحرق .

= أنهما قالا لمحمد بن جعفر الرافضي المعروف بشيطان الطاق : ويحك ، أما استحييت من الله أن تقول في كتابك في الإمامة : أن الله تعالى لم يقل قط في القرآن ﴿ ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ ؟ قالا : فضحك والله شيطان الطاق ضحكاً طويلاً حتى كأنا نحن الذين أذنبنا » وشيطان الطاق هذا أكبر دعاة الشيعة في زمن الإمامين زيد وابن أخيه جعفر الصادق ، وهو الذي ابتدع أكذوبة أن الإمامة معهود بها إلى أشخاص بأعيانهم ، ولم يكن أحد يقول بذلك قبل شيطان الطاق هذا . وأنكرها عليه الإمام زيد في مجلس جعفر .

ودعوى الرافضة بتبديل القرآن » مع تصريح على بإجماع الصحابة على ما قام به عثمان ، صارت مادة دسمة لدعاة النصارى يحتجون بها ، فقال لهم الإمام ابن حزم في الفصل (٢ : ٧٨) : « إن الروافض ليسوا من المسلمين ..... وهي طائفة تجرى مجرى اليهود والنصارى في الكذب والكفر » قلت : وآخر من افتضح منهم بهذا الأمر وفضح به الشيعة جميعاً حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي بكتابه الذي اقترفه في المشهد المنسوب لأمير المؤمنين عليّ في النجف سنة ١٢٩٢ وطبع في إيران سنة ١٢٩٨ وعندي نسخة منه . وإن من طبيعة التحزب والتعصب والتشيع أن يذهب بعقول أصحابه وأخلاقهم ، ثم يذهب بحيائهم ودينهم ، كما برهن على ذلك علماء علم النفس الاجتماعي وفي مقدمتهم الدكتور غوستاف لبون .

قال ابن شهاب [1] : وأخبرنى خارجةَ بن زيد بن ثابت أنه سمع زيد بن ثابت قال : « فقدتُ آيةً من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنتُ أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة الأنصارى ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ فألحقناها فى سورتها فى المصحف » .

وأما ما روى أنه حرّقها أو خرّقها — بالحاء المهملة أو الخاء المعجمة . وكلاهما جائز — إذا كان فى بقائها فساد ، أو كان فيها ما ليس من القرآن ، أو مانسخ منه ، أو على غير نظمه ، فقد سلّم فى ذلك الصحابة كلهم : إلّا أنه روى عن ابن مسعود أنه خطب بالكوفة فقال : « أما بعد، فإن الله قال ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ وإنى غالٌّ مصحفى ، فمن استطاع منكم أن يغلّ مصحفه فليفعل » . وأراد ابن مسعود أن يؤخذ بمصحفه ، وأن يثبت ما يعلم فيه . فلما لم يُفعل ذلك له قال ما قال ، فأكرهه عثمان على رفع مصحفه ، ومحا رُسومَه فلم تثبت له قراءة أبدًا ، ونصر الله عثمان والحقَّ بمحوها من الأرض [2] .

---

(1) فيما رواه عنه الإمام البخارى فى صحيحه (ك ٥٦ ب ١٢ ج ٣ ص ٢٠٥ — ٢٠٦ ، و ك ٦٤ ب ١٧ ج ٥ ص ٣١ ، و ك ٦٥ السورة ٩ ب ٢٠ والسورة ٣٣ ب ٣، و ك ٦٦ ب ٣ و ٤ ، و ك ٩٣ ب ٢٧ ، و ك ٩٧ ب ٢٢) .

(2) عبد الله بن مسعود من كبار علماء الصحابة ومن أجودهم قراءة لكتاب الله ، وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة على حسن تلاوة ابن مسعود للقرآن ، فتسارع أبو بكر وعمر ليوصلا إليه البشرى بهذا الثناء النبوى : (انظر مسند أحمد ١ : ٢٥—٢٦ الطبعة الأولى — رقم ١٧٥ الطبعة الثانية) . إلا أن ابن مسعود كان يكتب ما يوحى من القرآن فى مصحفه كلما بلغه نزول آيات منه ، فهو يختلف فى ترتيبه هذه الآيات عما=

٤ ــ وأما الحِمىٰ ، فكان قديماً [1] ، فيقال إن عثمان زاد فيه لما

= امتازت به مصاحف عثمان من الترتيب بحسب العرض الأخير على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدر ما أدى إليه اجتهاد الصحابة المؤيد بإجماعهم . ويحتمل أن يكون ابن مسعود فإنه في مصحفه بعض ما استقصاه زيد بن ثابت وزملاؤه من الآيات التي كانت عند آخرين من قراء الصحابة ؟ زد على ذلك أن ابن مسعود كانت تغلب عليه لهجة قومه من هذيل ، والنبي صلى الله عليه وسلم رخص لمثل ابن مسعود أن يقرأوا بلهجاتهم ، ولكن ليس لابن مسعود أن يحمل الأمة في زمنه والأزمان بعده على لهجته الخاصة ، فكان من الخير توحيد الأمة على قراءة كتاب ربها باللهجة المضرية التي كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) كان الشريف في الجاهلية إذا نزل أرضاً في حيه استعوى كلباً ، فحمى لخيله وإبله وسوائمه مدى عواء الكلب لا يشركه فيه غيره . فلما جاء الإسلام نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، واختص الحمى بإبل الزكاة المرصدة للجهاد والمصالح العامة ، فقال صلى الله عليه وسلم « لا حمى إلا لله ورسوله » رواه البخاري من حديث الصعب ابن جثامة في كتاب المساقاة (ك ٤٢ ب ١١) وكتاب الجهاد (ك ٥٦ ب ١٤٦) من صحيحه . ورواه الإمام أحمد في مسنده (٤ : ٧١ و ٧٣ الطبعة الأولى) من حديث الصعب بن جثامة أيضاً . وقد حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكاناً يسمى (النقيع) وهو « نقيع الخضمات » كما في مسند الإمام أحمد (٢ : ٩١ و ١٥٥ و ١٥٧ الطبعة الأولى — رقم ٥٦٥٥ و ٦٤٣٨ و ٦٤٦٤ الطبعة الثانية) من حديث أبي عبد الرحمن عبد الله ابن عمر العمري عن نافع عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم حمى النقيع للخيل . قال حماد بن خالد راوي هذا الحديث عن عبد الله بن عمر العمري : يا أبا عبد الرحمن خيله ؟ قال : خيل المسلمين (أي المرصودة للجهاد ، أو ما يملكه بيت المال) . والنقيع هذا في المدينة على عشرين فرسخاً منها ومساحته ميل في ثمانية أميال كما في موطأ مالك برواية =

زادت الراعية . وإذا جاز أصله للحاجة إليه جازت الزيادة لزيادة الحاجة.

٥ ــ وأما نفيُه أبا ذَرّ إلى الرَّبذة فلم يفعل [1] ، كان أبو ذرزاهدًا ، وكان يقرّع عمال عثمان ، ويتلو عليهم ﴿ والذين يَكنِزُونَ الذَّهب وَالْفِضَّة

= ابن وهب . ومعلوم أن الحال استمر فى خلافة أبى بكر على ماكان عليه فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن أبا بكر لم يخرج عن شىء كان عليه الحال فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، لاسيما وأن حاجة الجهاد إلى الخيل والإبل زادت عن قبل . وفى زمن عمر اتسع الحمى فشمل (سرف) و (الربذة) ، وكان لعمر عامل على الحمى هو مولى له يدعى هنياً ، وفى كتاب الجهاد من صحيح البخارى (ك ٥٦ ب ١٨٠) من حديث زيد ابن أسلم عن أبيه نص وصية أمير المؤمنين عمر لعامله هذا على الحمى بأن يمنع نعم الأثرياء كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ، وأن يتسامح مع رب الغنيمة ورب الصريمة لئلا تهلك ماشيتهما . وكما اتسع عمر فى الحمى عما كان عليه فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر لزيادة سوائم بيت المال فى زمنه ، اتسع عثمان بعد ذلك لاتساع الدولة وازدياد الفتوح . فالذى أجازه النبى صلى الله عليه وسلم لسوائم بيت المال ، ومضى على مثله أبو بكر وعمر ، يجوز مثله لبيت المال فى زمن عثمان ، ويكون الاعتراض عليه اعتراضاً على أمر داخل فى التشريع الإسلامى . ولما أجاب عثمان على مسألة الحمى عندما دافع عن نفسه على ملأ من الصحابة أعلن أن الذين يلون له الحمى اقتصروا فيه على صدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ، وأنهم ما منعوا ولا نحوا منها أحداً . وذكر عن نفسه أنه قبل أن يلى الخلافة كان أكثر العرب بعيراً وشاء ، ثم أمسى وليس له غير بعيرين لحجه . وسأل من يعرف ذلك من الصحابة : أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

(١) وإنما اختار أبو ذر أن يعتزل فى الربذة ، فوافقه عثمان على ذلك كما صح فى حديث عبد الله بن الصامت عند ابن حبان (١٥٤٩ : موارد الظمآن) ، وصح فى ص ٧٦ ، فأكرمه عثمان وجهزه بما فيه راحته.

وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣٤] ، ويراهم يتسعون فى المراكب والملابس حين وجدوا ، فينكر ذلك عليهم ، ويريد تفريق جميع ذلك من بين أيديهم ، وهو غير لازم . قال ابن عمر وغيره من الصحابة : إن ما أديت زكاته فليس بكنز [1] . فوقع بين أبى ذر ومعاوية كلام بالشام [2] ، فخرج إلى المدينة ، فاجتمع إليه الناس ، فجعل يسلك تلك الطرق ، فقال له عثمان : « لو اعتزلت » . معناه : إنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس ، فإن للخلطة شروطاً وللعزلة مثلها [3] ، ومن كان على طريقة أبى ذر فحاله يقتضى أن ينفرد بنفسه ، أو يخالط ويسلّم لكل أحد حاله مما ليس بحرام فى الشريعة . فخرج إلى الربذة زاهدًا فاضلا ، وترك جلة فضلاء ، وكلٌّ على خير

(١) انظر البيان الفقهى والتفصيل الشرعى لهذه المسألة فى منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣ : ١٩٨ –١٩٩) ومقالتنا فى مجلة الأزهر (شوال ١٣٧٤) .

(٢) نقل الطبرى (٥ : ٦٦) وأكثر المصادر الإسلامية أنه لما ورد ابن السوداء (عبد الله بن سبأ) الشام لقى أبا ذر فقال : يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية يقول « المال مال الله ، ألا إن كل شىء لله » كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ، ويمحو اسم المسلمين . فأتاه أبو ذر فقال : ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين « مال الله » ؟ قال معاوية : يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق والأمر أمره ؟ قال أبو ذر : فلا تقله . قال معاوية : فإنى لا أقول إنه ليس لله ، ولكن سأقول « مال المسلمين » : وأتى ابن السوداء (عبد الله بن سبأ) أبا الدرداء ، فقال له (أبو الدرداء) : من أنت أظنك والله يهودياً . فأتى (ابن سبأ) عبادة بن الصامت ، فتعلق به (ابن الصامت) فأتى به معاوية فقال : هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر .

(٣) وقد أحسن الكلام على ذلك أبو سليمان الخطابى فى كتاب (العـزلة)

وبركة وفضل ، وحالُ أبى ذر أفضل . ولا تمكن لجميع الخلق ، فلو كانوا عليها لهلكوا [1] . فسبحان مرتب المنازل .

ومن العجب أن يُؤخذ عليه فى أمر فعله عمر ، فقد رُوى أن عمر

---

(١) الذى تحصل عندى من تتبع نصوص الشريعة فى أمر المال ، ومراقبتى لتطبيق هذه النصوص فى سيرة السلف وعملهم بها ، أن المسلم له فى نفسه وذويه من المال الذى يملكه ما يكفيه ويكفيهم بالمعروف كأمثاله وأمثالهم من أهل العفة والقناعة والدين ، وما زاد عن ذلك فعليه أولا أن يؤدى زكاته الشرعية مباشرة بحسب اجتهاده إن لم يكن أداها للحكومة الإسلامية العاملة بأحكام الشرع وبعد أداء زكاته يكون صاحب المال فى امتحان من الله كيف يحسن التصرف فيه بما يرضى الله ويزيد المسلمين قوة وسعادة وعزاً ، فإن كان تاجراً فمن طريق التجارة أو مزارعاً فمن طريق الزراعة ، أو صاحب مصنع فمن طريق الصناعة . والإسلام فى دور قيامه استفاد من ثروة أغنياء الصحابة عوناً ويسراً وقوة . وتجارة التاجر المسلم إذا أغنت المسلمين عن متاجر أعدائهم تعتبر قوة لهم بقدر ما يصدق صاحبها فى هذه النية ، وكذلك مصنع الصانع المسلم ، وزراعة الزارع المسلم . والنية فى هذه الأمور أمرها عظيم ، وميزانها العمل عندما تمس الحاجة إليه . وبالجملة فإن للمسلم أن يكون غنياً بلا تحديد . بشرط أن يكون ذلك من حله ، وأن يكتفى منه بما يكفيه بالمعروف ، محاولا دائماً أن يحرر نفسه من العبودية والانقياد للكماليات فضلا عن توافه الحضارة وسفاسفها . وبعد أن يؤدى زكاة ما يملك يعتبر ما زاد عن حاجته كالأمانة لله تحت يده ، فيتصرف فيها بما يزيد المسلمين ثروة وقوة ويسراً وعزاً وسعادة ، أما طريقة أبى ذر فى أن لا يبيت المسلم وعنده مال فليست الآن من مصلحة المسلمين ، وطريقة أغنياء المسلمين الآن — فى أن يعيشوا لأنفسهم ومتعهم غير مبالين بعزة الإسلام وقوة دولته وحاجة أهله — فليست من الإسلام ، والإسلام لا يعرف الذين لا يعرفونه انظر مقالتنا (المال فى نظام الإسلام) فى أول جزء شوال ١٣٧٤ من مجلة الأزهر .

ابن الخطاب رضى الله عنه سجن ابن مسعود فى نفر من الصحابة سنة بالمدينة حتى استشهد ، فأطلقهم عثمان ، وكان سجنهم لأن القوم أكثروا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

ووقع بين أبي ذر ومعاوية كلام ، وكان أبو ذر يطلق من الكلام ما لم يكن يقوله فى زمان عمر ، فأعلم معاويةُ بذلك عثمانَ ، وخشي من العامة أن تثور منهم فتنة ، فإن أبا ذر كان يحملهم على التزهد وأمور لا يحتملها الناس كلهم ، وإنما هي مخصوصة ببعضهم ، فكتب إليه عثمان — كما قدمنا — أن يَقدم المدينة ، فلما قدم اجتمع إليه الناس ، فقال لعثمان : أريد الربذة . فقال له : افعل . فاعتزل . ولم يكن يصلح له إلا ذلك لطريقته (٢) .

(١) فى كتاب الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم (٢ : ١٣٩) خبر مرسل رواه شعبة عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه (إبراهيم بن عبد الرحمن ابن عوف) قال : قال عمر لابن مسعود ولأبى الدرداء ولأبى ذر « ما هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » . قال : وأحسبه لم يدعهم أن يخرجوا من المدينة حتى مات . وقد نبه ابن حزم على أن هذا الخبر مرسل ولا يجوز الاحتجاج به ، وعلق عليه الشيخ أحمد شاكر بأن البيهقى وافق ابن حزم على أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف (المتوفى سنة ٦٦ أو ٦٥ عن ٧٥ سنة) لم يسمع من عمر . ولست أدرى هل اعتمد ابن العربى فى هذه الفقرة على هذا الخبر المرسل أم على خبر آخر لم نطلع عليه . وليس فى الخبر — على ضعفه — ذكر السجن .

(٢) وقد صح من حديث عبد الله بن الصامت عند ابن حبان (برقم : ١٥٤٩ موارد الظمآن) أن أبا ذر هو الذى استأذن عند عثمان أن يقيم فى الربذة . وذكر القاضى ولى الدين بن خلدون فى العبر (بقية ٢ : ١٣٩) أن أبا ذر استأذن عثمان فى الخروج من المدينة وقال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلعاً » فأذن له ، ونزل الربذة وبنى بها مسجداً ، وأقطعه عثمان صرمة من الإبل ، وأعطاه مملوكين ، وأجرى عليه رزقاً . وكان يتعاهد المدينة . وبين المدينة والربذة ثلاثة أميال ، قال ياقوت : وكانت من أحسن منزل فى طريق مكة

٦ – ووقع بين أبي الدَّرْداء ومعاوية كلام. وكان أبو الدرداء زاهداً فاضلا قاضيًا لهم [١] فلما اشتدَّ في الحق، وأخرج طريقة عمر في قوم لم يحتملوها عزلوه [٢]، فخرج إلى المدينة.

وهذه كلها مصالح لا تقدح في الدين، ولا تؤثِّر في منزلة أحد من من المسلمين بحال وأبو الدرداء وأبو ذر بريئان من عاب، وعثمان بريء أعظم براءة وأكثر نزاهة، فمن روى أنه نفي وروى سببًا فهو كله باطل

٧ – وأما ردُّ الحكم فلم يصحّ [٣].

وقال علماؤنا في جوابه. قد كان أذن له فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال [أي عثمان] لأبي بكر وعمر، فقالا له: إن كان معك شهيد رددناه. فلما ولي قضى بعلمه في ردِّه. وما كان عثمان ليصل مهجورَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو كان أباه، ولا لينقض حكمه [٤].

(١) أي في دمشق.

(٢) بل إن معاوية نفسه حاول السير على طريقة عمر، كما نقل ذلك الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٨ : ١٣١) عن محمد بن سعد قال: حدثنا عارم، حدثنا حماد بن يزيد، عن معمر، عن الزهري « أن معاوية عمل سنتين عمل عمر ما يخرم فيه ثم إنه بعُد عن ذلك ». وقد يظن من لا نظر له في حياة الشعوب وسياستها أن الحاكم يستطيع أن يكون كما يريد أن يكون حيثما يكون: وهذا خطأ. فللبيئة من التأثير في الحاكم وفي نظام الحكم أكثر مما للحاكم ونظام الحكم من التأثير على البيئة. وهذا من معاني قول الله عز وجل: ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ الرعد ١١.

(٣) أي لم يصح زعم البغاة على عثمان أن عثمان خالف بذلك ما يقتضيه الشرع.

(٤) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٣ : ١٩٦): وقد =

٨ ـ وأما تركُ القصْر فاجتهاد ، إذ سمع أن الناس افتتنوا بالقصر ،

= طعن كثير من أهل العلم فى نفيه (أى فى نفى النبى صلى الله عليه وسلم الحكم) وقالوا « ذهب باختياره . وقصة نفى الحكم ليست فى الصحاح ، ولا لها إسناد يعرف به أمرها » ثم قال « لم تكن الطلقاء تسكن بالمدينة ، فإن كان طرده فإنما طرده من مكة لا من المدينة ، ولو طرده من المدينة لكان يرسله إلى مكة . وقد طعن كثير من أهل العلم فى نفيه كما تقدم وقالوا : هو ذهب باختياره .. وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد عزر رجلا بالنفى لم يلزم أن يبقى منفياً طول الزمان ، فإن هذا لا يعرف فى شيء من الذنوب ، ولم تأت الشريعة بذنب يبقى صاحبه منفياً دائماً ... وقد كان عثمان شفع فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح فقبل صلى الله عليه وسلم شفاعته فيه وبايعه ، فكيف لا يقبل شفاعته فى الحكم ، وقد رووا أن عثمان سأله أن يرده فأذن له فى ذلك . ونحن نعلم أن ذنبه دون ذنب عبد الله ابن سعد بن أبى سرح . وقصة عبد الله ثابتة معروفة بالإسناد ، وأما قصة الحكم فإنما ذكرت مرسلة ، وقد ذكرها المؤرخون الذين يكثر الكذب فيما يروونه ، فلم يكن هناك نقل ثابت يوجب القدح فيمن هو دون عثمان . والمعلوم من فضائل عثمان ومحبة النبى صلى الله عليه وسلم له وثنائه عليه وتخصيصه بابنتيه وشهادته له بالجنة وإرساله إلى مكة ومبايعته له عنه وتقديم الصحابة له فى الخلافة وشهادة عمر وغيره له بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وهو عنه راض وأمثال ذلك مما يوجب العلم القطعى بأنه من كبار أولياء الله المتقين الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه . فلا يدفع هذا بنقل لا يثبت إسناده ولا يعرف كيف وقع ويجعل لعثمان ذنب بأمر لا تعرف حقيقته ... الخ » وانظر أيضاً ٣ : ٢٣٥ — ٢٣٦ من منهاج السنة : ونقل الإمام أبو محمد بن حزم فى كتاب (الإمامة والمفاضلة) المدرج فى الجزء الرابع من كتابه « الفِصَل » ص ١٥٤ قول من احتج لعثمان على من أنكروا ذلك عليه : « ونفى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن حداً واجباً ، ولا شريعة على التأبيد ، وإنما كان عقوبة على ذنب استحق به النفى ، والتوبة مبسوطة ، فإذا تاب سقطت =

وفعلوا ذلك فى منازلهم ، فرأى أن السُّنة ربما أدّت إلى إسقاط الفريضة ، فتركها خوف الذريعة [1] . مع أن جماعة من العلماء قالوا : إن المسافر

= عنه تلك العقوبة بلا خلاف من أحد من أهل الإسلام، وصارت الأرض كلها مباحة » . ونقل مجتهد الزيدية السيد محمد بن إبراهيم الوزير اليمنى (المتوفى سنة ٨٤٠) فى كتابه الروض الباسم فى الذب عن سنة أبى القاسم (١ : ١٤١ — ١٤٢) قول الحاكم المحسن ابن كرامة المعتزلى المتشيع فى كتابه سرح العيون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن فى فى ذلك لعثمان . قال ابن الوزير : إن المعتزلة والشيعة من الزيدية يلزمهم قبول هذا الحديث وترك الاعتراض على عثمان بذلك ، لأن راوى الحديث عندهم من المشاهير بالثقة والعلم وصحة العقيدة . ثم بسط ابن الوزير الكلام على هذا الموضوع بحجج واستدلالات — استغرقت ثلاث صفحات — دفاعاً عن أمير المؤمنين عثمان فى رده الحكم . وهذه الحجج من أحد أئمة الزيدية ومجتهديهم — بعد روايته ذلك الحديث عن الإمام المعتزلى المتشيع — لها دلالتها الخاصة ، مع الذى سمعته من إمامى أهل السنة شيخ الإسلام ابن تيمية والقاضى ابن العربى ، ومن إمام أهل الظاهر أبى محمد بن حزم .

(١) كان ذلك فى منى فى موسم الحج سنة ٢٩ . وقد عاتب عبد الرحمن بن عوف عثمان فى إتمامه الصلاة وهم فى منى ، فاعتذر له عثمان بأن بعض من حج من أهل اليمن وجفاة الناس قالوا فى العام الماضى : إن الصلاة للمقيم ركعتان ، وهذا إمامكم عثمان يصلى ركعتين . ثم قال عثمان لعبد الرحمن بن عوف : وقد اتخذت بمكة أهلا (أى أنه صار فى حكم المقيم ، لا المسافر) ، فرأيت أن أصلى أربعاً لخوف ما أخاف على الناس . ثم خرج عبد الرحمن بن عوف من عند عثمان فلقى عبد الله بن مسعود وخاطبه فى ذلك فقال ابن مسعود : « الخلاف شر ، قد بلغنى أنه صلى أربعاً فصليت بأصحابى أربعاً » . =

مخيَّر بين القصر والإتمام ، واختلف فى ذلك الصحابة [1] .

٩ — وأما مُعاويةُ فعمرُ ولّاه ، وجمع له الشامات كلها ، وأقرّه عثمان.

= فقال عبد الرحمن بن عوف : « قد بلغنى أنه صلى أربعاً فصليت بأصحابى ركعتين : وأما الآن فسوف يكون الذى تقول » يعنى : نصلى معه أربعاً (الطبرى ٥ : ٥٦ — ٥٧)

(١) نقل محمد بن يحيى الأشعرى المالكى المعروف بابن بكر (٦٧٤ — ٧٤١) فى كتابه (التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان) وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية (برقم ٢٣ تاريخ) أنه روى عن جماعة من الصحابة إتمام الصلاة فى السفر ، منهم عائشة وسلمان وأربعة عشر من الصحابة . وفى أبواب التقصير من صحيح البخارى (ك ١٨ ب ٥ — ج ٢ ص ٣٦) حديث الزهرى عن عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت : « الصلاة أول ما فرضت ركعتان — فأقرّت صلاة السفر — وأتمت صلاة الحضر » قال الزهرى فقلت لعروة : ما بال عائشة تتم ؟ قال : تأولت ما تأول عثمان . وفى مسند أحمد (٤ : ٩٤) عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : لما قدم علينا معاوية حاجاً قدمنا معه مكة ؛ فصلى بنا الظهر ركعتين ، ثم انصرف إلى دار الندوة . وكان عثمان حين أتم الصلاة إذا قدم مكة صلى بها الظهر والعصر والعشاء الآخرة أربعاً أربعاً ، فإذا خرج إلى منى وعرفات قصر الصلاة ، فإذا فرغ من الحج وأقام بمنى أتم الصلاة حتى يخرج من مكة . فلما صلى بنا (أى معاوية) الظهر ركعتين نهض إليه مروان وعمرو بن عثمان فقالا له : ما عاب أحد ابن عمك بأقبح مما عبته ، قال لهما : وما ذاك ؟ فقالا له : ألم تعلم أنه أتم الصلاة بمكة (فذكر لهما أنه صلاهما مع النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر) قالا : فإن ابن عمك كان أتمها (والظاهر أن معاوية رأى أن القصر رخصة ، وأن المسافر على التخيير ، فصلى العصر أربعاً) :

بل إنَّما(*) ولَّاه أبو بكر الصدِّيق رضى الله عنه ؛ لأَنه ولَّى أَخاه يزيد ، واستخلفه يزيد ، فأَقرَّه عمرُ لتعلقه بولاية أَبى بكر لأَجل استخلاف واليه له ، فتعلَّق عثمان بعمر وأَقرَّه . فانظروا إلى هذه السلسلة ما أَوثق عراها [1] ... ولن يأْتى أَحد مثلها أَبدًا بعدها [2]

---

(١) هنا فى الأصل كلمة « وأقدر » وبياض لكلمة أخرى ، ولا يختل المعنى بسقوطها .

(٢) إنما بلغت دولة الإسلام فى خلافة أبى بكر وعمر الذروة فى العزة ، وكانتا مضرب الأمثال فى الفلاح الإنسانى وسعادة المجتمع ، لأن أبا بكر وعمر كانا يتكشفان بنور الله عز وجل كوامن السجايا فى أهلها وعناصر الرجولة فى [illegible] القيادة ، ويبوئانهم مقاعد السيادة ، ويأتمنانهم على أمة محمد صلى الله [illegible] يعلمان أنهما مسئولان عن ذلك بين يدى الله عز وجل . وقد رأيت فى هامش [illegible] أن يزيد بن أبى سفيان وأخاه معاوية كانا من رجال دولة أبى بكر الصديق الذين [illegible] لحمل أعباء الأمة فى حربها وسلمها فأحسن بذلك كل الإحسان . ولما ولى يزيد قيادة [illegible] جيوشه خرج معه أبو بكر يشيعه ماشياً (الطبرى ٤ : ٣٠) . ومعاوية مذكور فى التاريخ بعد أخيه يزيد لأنه أصغر منه سناً ، لا لأنه أقل منه فى استكمال صفات القيادة والسيادة . وقبل أن يكون معاوية من رجال الدولتين البكرية والعمرية كان أحد الذين استعملهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستعان بهم ، وكان يدعوه لذلك فى بعض الأحيان — ومعاوية يأكل — ويلح فى دعوته ويرسل إليه المرة بعد المرة يستعجله المجىء إليه . فالنبى صلى الله عليه وسلم ولى معاوية شيئاً من عمله قبل أن يوليه أبوبكر وعمر ، وولى يزيد بن أبى سفيان أيضاً كما فى فتوح البلدان للبلاذرى (ص ٤٨ طبع مصر سنة [illegible]) . والذين يضطغنون البغضاء والحقد لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — ولا سيما بنى أمية منهم — لم يستطيعوا أن ينكروا أن النبى صلى الله عليه وسلم استعمل معاوية فى الكتابة =

= له فقالوا إنه كان يكتب له ولكنه لم يكن يكتب الوحي. وهم يقولون هذا بوحي أوحي إليهم من الشيطان ، وليس فى يدهم نص تاريخى أو دليل شرعى يرجعون إليه ، فيزوا بين أمور لا حجة لهم فى التمييز بينها . والنبى صلى الله عليه وسلم لو كان يميز بين كتبته فى أمور دون أمور لتواتر ذلك عنه ولنقله الناقلون كما وقع فيما هو أقل من هذا شأناً .
سألنى مرة أحد شباب المسلمين ممن يحسن الظن برأيى فى الرجال : ما تقول فى معاوية ؟ فقلت له : ومن أنا حتى أسأل عن عظيم من عظماء هذه الأمة وصاحب من خيرة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؟ إنه مصباح من مصابيح الإسلام ، لكن هذا المصباح سطع إلى جانب أربع شموس ملأت الدنيا بأنوارها فغلبت أنوارها على نوره . نقل الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٨ : ١٣٣) عن الليث بن سعد (وهو إمام مصر وعالمها ورئيسها المتوفى سنة ١٧٥) قال : حدثنا بكير (وهو ابن عبد الله الأشج المدنى ثم المصرى المتوفى سنة ١٢٧ قال عنه الإمام النسائى : ثقة ثبت) عن بُسر بن سعيد المدنى (المتوفى سنة ١٠٠ قال عنه ابن معين : ثقة ، وقال عنه الليث بن سعد : كان من العباد المنقطعين أهل الزهد فى الدنيا والورع) أن سعد بن أبى وقاص (أحد العشرة المبشرين بالجنة) قال : « ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحق من صاحب هذا الباب » يعنى معاوية . وروى ابن كثير أيضاً (٨ : ١٣٥) عن عبد الرزاق بن همام الصنعانى أحد الأئمة الأعلام الحفاظ (وكان ينسب إلى التشيع) ، عن معمر بن راشد أبى عروة البصرى ثم اليمنى وكان أحد الأعلام ، عن همام بن منبه الصنعانى وكان ثقة قال : سمعت ابن عباس يقول : « ما رأيت رجلا أخلق بالملك من معاوية » . وهل يكون الرجل أخلق الناس بالملك إلا أن يكون عادلا حكيما ، يحسن الدفاع عن ملكه ، ويستعين الله فى نشر دعوة الله فى الممالك الأخرى ، ويقوم بالأمانة فى الأمة التى ائتمنه الله عليها ؟ والذى يكون أخلق الناس بالملك هل يلام عثمان على توليته ؟ ويا عجباً كيف يلام عثمان على توليته وقد ولاه من قبله عمر ، وتولى لأبى بكر من قبل عمر ، وتولى بعض عمل رسول الله صلى الله عليه =

١٠ – وأما عبدُ الله بن [عامر بن] كُريز فولّاه – كما قال –

= وسلم قبل أن تصير الخلافة إلى أبي بكر وعمر وعثمان . إن المخ الذى يعبث به الشيطان فيسوّل له مثل هذه الوساوس لا شك أنه مخ فاسد ، يفسد على الناس عقولهم ومنطقهم قبل أن يفسد عليهم دينهم وتاريخهم ، فمن الواجب على محبى الحق والخير أن يتحاموا كل من يحمل فى رأسه مثل هذا المخ كما يتحامون المجذوم . روى الإمام الترمذى عن أبى إدريس الخولانى من كبار علماء التابعين – وأعلم أهل الشام بعد أبى الدرداء – أن عمر ابن الخطاب لما عزل عمير بن سعد الأنصارى الأوسى عن حمص وولى معاوية . قال الناس : عزل عميراً وولى معاوية (قال البغوى فى معجم الصحابة : وكان عمير يقال له « نسيج وحده » . قال ابن سيرين : (إن عمر كان يسميه بذلك لإعجابه به . وكان عمير من الزهاد) فقال عمير : لا تذكروا معاوية إلا بخير فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم اهد به » . ويروى أن الذى شهد هذه الشهادة لمعاوية أمير المؤمنين عمر ، فإن كان هو الذى شهدها له وروى دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاوية بأن يهدى الله به فذلك أمر عظيم لعظم مكانة عمر . وإن كان الذى شهد بذلك عمير بن سعد الأنصارى – مع أنه هو المعزول بمعاوية عن ولاية حمص – فإن ذلك لا يقل عظمة عما لو كانت الشهادة لمعاوية من عمر ، وقد علمت أن عميراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه من زهاد الأنصار. قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة (٣ : ١٨٩) : وكانت سيرة معاوية مع رعيته من خيار سير الولاة ، وكان رعيته يحبونه ، وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم : وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » . ولم يتسع المقام هنا لأكثر من هذا ، وسنكمل الصورة الحقيقية لمعاوية عند ذكر خلافته ، لتعلم إلى أى حد كنا مخدوعين بأكاذيب أعداء الصدر الأول للإسلام .

لأنه كريم العمّات والخالات (١)

---

(١) هو عبشمي الآباء ، هاشمي الخئولة . فإن أم أبيه أروى بنت كريز أمها البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم عمة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولما ولد أتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لبني عبد شمس : « هذا أشبه بنا منه بكم » ثم تفل في فيه فازدرده ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أرجو أن يكون مسقياً » ؟ فكان لا يعالج أرضاً إلا ظهر منها الماء ونشأ سخياً كريماً شجاعاً ميمون النقيبة كثير المناقب ؛ افتتح خراسان كلها ، وأطراف فارس ، وسجستان ، وكرمان حتى بلغ أعمال غزنة ، وقضى على يزدجرد ابن شهريار آخر ملوك الفرس . ويعتقد الإيرانيون أن سلسلة ملوكهم بدأت بآدمهم الذي يسمونه (جيومرت) فلم يزل ملك أولاده منتظماً على سياق إلى أن كان القضاء الأخير عليه بسلطان الإسلام في خلافة أمير المؤمنين عثمان بجهاد هذا العبشمي الآباء الهاشمي الخئولة عبد الله بن عامر بن كريز. وهي حرقة في قلوب أهل النزعة المجوسية على الإسلام ، وعلى عثمان ، وابن كريز ، فهم يحقدون على هؤلاء ويحاربونهم إلى اليوم بسلاح الكذب ، والبغض والدسائس ، وسيستمر ذلك إلى يوم القيامة . أما صادقو الإسلام ممن أنجبت إيران أيام كانت شافعية المذهب ، ولما كان ينبغ منها علماء السنة المحمدية قبل ذلك ، وفيهم كبار الأئمة والمحدثون والفقهاء ، فقد نزهوا قلوبهم عن أن يكون فيها غل للذين آمنوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم حتى فتح الله الأقطار على أيديهم ، وهدى الأمم بسببهم ، فهم يحبونهم ويجلونهم على أقدارهم . ونحن لا ندعي العصمة لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونتوقع الخطأ من كل إنسان ، صحابياً كان أو من التابعين أو الذين يتبعونهم بإحسان . ولكن الذين ملأوا الدنيا بالحسنات كأنها الجبال ، فإن الذي يعمى عنها ، ويدس أنفه في مرمى القاذورات ليستخرج منها ما يذم العظماء به ، وإن لم يجد يختلق ويكذب.. فإن من كرامة المسلم على نفسه أن يترفع عن الإصغاء لأمثال هؤلاء والانخداع لهم . ودع عنك فتوح عبد الله بن عامر بن كريز التي وصلت إلى أقصى المشارق ، وتقويضه آخر =

١١ ــ وأما تولية الوليد بن عُقْبَة فإن الناس ــ على فساد النيات ــ أسرعوا إلى السيئات قبل الحسنات . فذكرَ الافترائيّون أنه إنما ولاه للمعنى الذى تكلم به . قال عثمان : ما ولَّيتُ الوليد لأنه أخى [1] ، وإنما ولَّيته لأنه ابن أم حكيم البيضاء عمةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوأمة أبيه . وسيأتى بيانه إن شاء الله [2] .

=أمل للإمبراطورية المجوسية ، فإن حسناته الإنسانية أيضاً جديرة بالتسجيل ، قال ابن كثير فى البداية والنهاية (٨ : ٨٨) : إنه « أول من اتخذ الحياض بعرفة لحجاج بيت الله الحرام وأجرى إليها الماء المعين » : وقال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة (٣ : ١٨٩ـ ١٩٠) : « إن له من الحسنات والمحبة فى قلوب الناس مالا ينكر » . ومثل هؤلاء الرجال لو كانوا من سلف الإنكليز أو الفرنسيين لخلدوا عظمتهم فى كتب الدراسة والثقافة والتهذيب ، فتهافتت وزارات معارفنا على نقل ذلك من كتبهم إلى كتبنا المدرسية ، ليؤمن جيلنا بعظمة أسلاف المستعمرين . أما عظمه أسلافنا نحن فقد سلط الشيطان عليها قلوباً فاسدة تفيض بالسوء ، وصدّق أكاذيبها الأكثرون منا ، فأمسينا كالأمة التى لا مجد لها ، بينما هى نائمة على تراث من المجد لا تحلم الإنسانية بمثله .

(١) هو أخوه لأمه أروى بنت كريز ، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم .

(٢) قد يظن من لا يعرف صدر هذه الأمة أن أمير المؤمنين عثمان جاء بالوليد ابن عقبة من عرض الطريق فولاه الكوفة : أما الذين أنعم الله عليهم بنعمة الأنس بأحوال ذلك العصر وأهله فيعلمون أن دولة الإسلام الأولى فى خلافة أبى بكر تلقفت هذا الشاب الماضى العزيمة الرضىّ الخلق الصادق الإيمان فاستعملت مواهبه فى سبيل الله إلى أن توفى=

= أبو بكر ، وأول عمل له فى خلافة أبى بكر أنه كان موضع السر فى الرسائل الحربية التى دارت بين الخليفة وقائده خالد بن الوليد فى وقعة المذار مع الفرس سنة ١٢ (الطبرى ٤ : ٧) ، ثم وجهه مدداً إلى قائده عياض بن غنم الفهرى (الطبرى ٤ : ٢٢) . وفى سنة ١٣ كان الوليد يلى لأبى بكر صدقات قضاعة ، ثم لما عزم الصديق على فتح الشام كان الوليد عنده بمنزلة عمرو بن العاص فى الحرمة والثقة والكرامة ، فكتب إلى عمرو بن العاص وإلى الوليد بن عقبة يدعوهما لقيادة فيالق الجهاد ، فسار ابن العاص بلواء الإسلام نحو فلسطين ، وسار الوليد بن عقبة قائداً إلى شرق الأردن (الطبرى ٤ : ٢٩ — ٣٠) ، ثم رأينا الوليد فى سنة ١٥ أميراً على بلاد بنى تغلب وعرب الجزيرة (الطبرى ٤ : ١٥٥) يحمى ظهور المجاهدين فى شمال الشام لئلا يؤتوا من خلفهم ، فكانت تحت قيادته ربيعة وتنوخ مسلمهم وكافرهم ؛ وانتهز الوليد بن عقبة فرصة ولايته وقيادته على هذه الجهة التى كانت لا تزال مليئة بنصارى القبائل العربية فكان — مع جهاده الحربى وعمله الإدارى — داعياً إلى الله يستعمل جميع أساليب الحكمة والموعظة الحسنة لحمل نصارى إياد وتغلب على أن يكونوا مسلمين كسائر العرب . وهربت منه إياد إلى الأنضول وهو تحت حكم للبيزنطيين ، فحمل الوليدُ خليفته عمرَ على كتابة كتاب تهديد إلى قيصر القسطنطينية بأن يردهم إلى حدود الدولة الإسلامية ، وحاولت تغلب أن تتمرد على الوليد فى نشره الدعوة الإسلامية بين شبانها وأطفالها ، فغضب غضبته المضرية المؤيدة بالإيمان الإسلامى ، وقال فيهم كلمته المشهورة :

إذا ما عصبتُ الرأسَ منى بمشوذ ... فغيِّك منى تغلب ابنة وائـل

وبلغت هذه الكلمة عمر ، فخاف أن يبطش قائده الشاب بنصارى تغلب فيفلت من يده زمامهم فى الوقت الذى يحاربون فيه مع المسلمين حمية للعروبة ، فكف عنهم يد الوليد ونحاه عن منطقتهم . وبهذا الماضى المجيد جاء الوليد فى خلافة عثمان فتولى الكوفة =

والولايةُ اجتهاد [1] ، وقد عزل عمرُ سعد بن أبي وقّاص وقدَّم أقل

= له ، وكان من خير ولاتها عدلا ورفقاً وإحساناً ، وكانت جيوشه مدة ولايته على الكوفة تسير في آفاق الشرق فاتحة ظافرة موفقة على ما سنذكره فيما بعد .

(١) للمؤلف في أواخر هذا الكتاب ص ٢٤٣ فصل عنوانه (نكتة) أشار فيه إلى المعاني والحقائق التي يلاحظها ولي الأمر عند « اجتهاده » في تولية الولاة وعزلهم ، وذلك لفقه عظيم ومعارف بديعة بينها أئمة الإسلام وعلماؤه في الفصول التي عقدوها للإمامة وسياسة الدولة وفي كتبهم المصنفة في أصول الدين . وقد زعم طاغية الشيعة ومدلسهم الحسن بن المطهر الحلي في كتابه منهاج الكرامة أن عثمان ولى أمور المسلمين من لا يصلح للولاية ، فأجابه شيخ الإسلام ابن تيمية في (منهاج السنة ٣ : ١٧٣ – ١٧٦ والمنتقى منه للذهبي ٣٨٢ – ٣٨٣) أن علياً رضي الله عنه ولى زياد بن أبي سفيان وولى الأشتر النخعي وولى محمد بن أبي بكر وأمثال هؤلاء . ولا يستريب عاقل أن معاوية بن أبي سفيان كان خيراً من هؤلاء كلهم . قال : ومن العجب أن الشيعة ينكرون على عثمان أنه ولى أقاربه من بني أمية ، ومعلوم أن علياً ولى أقاربه من قبل أبيه وأمه ، فولى عبيد الله بن عباس على اليمن ، وولى على مكة والطائف قثم بن العباس ، وأما المدينة فقيل إنه ولى عليها سهل ابن حنيف وقيل ثمامة بن العباس ، وأما البصرة فولى عليها عبد الله بن عباس ، وولى على مصر ربيبه محمد بن أبي بكر الذي رباه في حجره (لأنه تزوج أمه بعد وفاة أبي بكر وكان محمد صغيراً) . ثم إن الإمامية تدعي أن علياً نص على أولاده في الخلافة – أو على ولده ، وولده على ولده الآخر وهلم جرا – ومن المعلوم إن كان تولية الأقربين منكراً ، فتولية الخلافة العظمى أعظم من إمارة بعض الأعمال .. وإذا قال القائل : لعليّ حجة فيما فعله ، قيل له : وحجة عثمان فيما فعله أعظم . وإذا ادعى لعلي العصمة ونحوها مما يقطع عنه ألسنة الطاعنين ، كان مايدعى لعثمان من «الاجتهاد» الذي يقطع ألسنة الطاعنين =

منه درجة (١)

١٧ — وأما قول القائلين فى مرْوان والوليد فشديد عليهم ، وحكمهم

— أقرب إلى المعقول والمنقول ... ثم قال : إن بنى أمية كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعملهم فى حياته ، واستعملهم بعده من لا يتهم بقرابة فيهم : أبو بكر وعمر ، ولا تعرف قبائل قريش فيها عمال الرسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من بنى عبد شمس ، كانوا كثيرين ، وكان فيهم شرف وسؤدد ، فاستعمل النبى صلى الله عليه وسلم فى الإسلام على أفضل الأرض مكة عتاب بن أسيد بن أبى العاص بن أمية ، واستعمل على نجران أبا سفيان بن حرب بن أمية ، واستعمل خالد بن سعيد بن العاص على صدقات بنى مذحج وعلى صنعاء واليمن حتى مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستعمل عثمان ابن سعيد بن العاص على تيماء وخيبر وقرى عرينة ، واستعمل أبان بن سعيد بن العاص على بعض السرايا ثم استعمله على البحرين فلم يزل عليها بعد العلاء بن الحضرمى (حليف بنى أمية) حتى توفى النبى صلى الله عليه وسلم ، فيقول عثمان : أنا لم أستعمل إلا من استعمله النبى صلى الله عليه وسلم ومن جنسهم ومن قبيلتهم ، وكذلك أبو بكر وعمر بعده . فكان الاحتجاج على جواز الاستعمال من بنى أمية بالنص الثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم أظهر عند كل عاقل من دعوى كون الخلافة فى واحد معين من بنى هاشم بالنص ، لأن هذا كذب باتفاق أهل العلم بالنقل ، وذلك صدق باتفاق أهل العلم بالنقل (وانظر أيضاً منهاج السنة ٣ : ٢٣٦ — ٢٣٧) . والذى يستعرض حياة عمال عثمان وجهادهم وفضائلهم يراهم فى الذروة العليا من رجال الدولة ، ولا يتردد فى أنهم من بناة الأساس الأقوم فى مجد الإسلام الإدارى والعسكرى ، ولهم ثواب نتائجه فى الفتوح وانتشار دعوة الإسلام بما يعده التاريخ من معجزاته الخارقة للعادات .

(١) كان ذلك سنة ٢١ ، والذين تولوا بعد سعد : عبد الله بن عبد الله بن عتبان (وفى زمانه كانت وقعة نهاوند) ثم زياد بن حنظلة (وألح فى الاستعفاء فأعفى وولى بعدهما عمار بن ياسر (الطبرى ٤ : ٢٤٦ وما قبلها) .

عليهما بالفسق فسقٌ منهم .

مَروانُ رجل عدل ، من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين . أما الصحابة فإن سَهْل بنَ سعْد السَّاعديّ روى عنه [1] . وأما التابعون فأصحابه فى السن ، وإن جازهم باسم الصحبة فى أحد القولين [2] . وأما فقهاءُ الأمصار فكلهم على تعظيمه . واعتبارِ خلافته ،

(١) وروايته عنه فى صحيح البخارى وغيره .

(٢) وفى طليعة من روى عنه من كبار التابعين زين العابدين على بن الحسين السبط ، نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة (٢ : ١٢٣) ، والحافظ ابن حجر فى الإصابة ، وترى تفصيله فى طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكى فى ترجمة اللغوى الشهير أبى منصور محمد بن أحمد بن الأزهر صاحب تهذيب اللغة (٢٨٢ — ٣٧٠) ؛ وممن نص الحافظ ابن حجر على روايتهم عن مروان : سعيد بن المسيب رأس علماء التابعين ، وإخوانه من الفقهاء السبعة أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وعروة بن الزبير ، وأضرابهم كعراك بن مالك الغفارى المدنى فقيه أهل دهلك وكان يصوم الدهر ، وكعبد الله بن شداد بن الهاد أحد الرواة عن عمر وعلى ومعاذ : وأن رواية عروة بن الزبير عن مروان فى كتاب الوكالة من صحيح البخارى (ك ٤٠ ب ٧ — ج ٣ ص ٦٢) وفى مسند الإمام أحمد (الطبعة الأولى ٤ : ٣٢١ و ٣٢٣ و ٣٢٦ و ٣٢٨ و ٥ : ١٨٩) . ورواية عراك عن مروان نقلها إمام أهل مصر الليث بن سعد عن يزيد بن أبى حبيب فى مسند أحمد (٤ : ٣٢٨) ورواية عبد الله ابن شداد بن الهاد عن مروان فى مسند أحمد (٧ : ٣١٧ و ٣٢٣) . والذى يتأمل الأحاديث المروية عن مروان يجد جملتها من الأئمة الثقات تتسلسل روايتهم عنه مدة جيلين وأكثر وكلهم أعلى مرتبة فى الإسلام من الذين يبردون الغل الذى فى قلوبهم بالطعن فى مروان ومن هو خير من مروان ، بل فى رواة أحاديث مروان عبدالرزاق إمام أهل اليمن وكانت =

والتلفُّتِ إلى فتواه ، والانقيادِ إلى روايته . وأما السفهاءُ من المؤرِّخين والأُدباء فيقولون على أقدارهم .

وأما الوليد فقد روى بعض المفسرين أن الله سماه فاسقًا فى قوله : ﴿ إنْ جاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبأٍ فَتبَيَّنُوا أنْ تُصِيبُوا قَوْما بِجهالَةٍ ﴾ ، [الحجرات ٦] فإنها — فى قولهم — نزلت فيه ، أرسله النبى صلى الله عليه وسلم إلى بنى المُصْطلِق ، فأخبر عنهم أنهم ارتدُّوا ، فأرسل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إليهم خالد بن الوليد فتثبَّتَ فى أمرهم فبيَّن بطلان قوله . وقد اختُلف فيه ، فقيل : نزلت فى ذلك [1] ، وقيل : فى علىٍّ والوليد فى قصة أُخرى : وقيل : إن الوليد سبق يوم الفتح فى جملة الصبيان

= فيه نزعة تشيع . وفى مسند أحمد (٦ : ٢١٢) حديث عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام أنه كان رسول مروان إلى أم المؤمنين أم سلمة فى تحقيق بعض الأحكام الشرعية ، وفى ٦ : ٢٩٩ من مسند أحمد نموذج لعظيم عناية مروان بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقصى ما يمكن أن يصدر عن أئمة المسلمين وأمرائهم .

(١) كنت فيما مضى أعجب كيف تكون هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة ، ويسميه الله فاسقاً ، ثم تبقى له فى نفس خليفتَى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى بكر وعمر المكانة التى سجلها له التاريخ وأوردنا الأمثلة عليها فى هامش ص ٨٦ عند استعراضنا ماضيه فى بضعة عشر عاماً قبل أن يوليه عثمان الكوفة ، إن هذا التناقض — بين ثقة أبى بكر وعمر بالوليد بن عقبة ، وبين ما كان ينبغى أن يعامل به لو أن الله سماه فاسقاً — حملنى على الشك فى أن تكون الآية نزلت فيه ، لا استبعاداً لوقوع أمر من الوليد يعدُّ به فاسقاً ، ولكن استبعاداً لأن يكون الموصومُ بالفسق فى صريح القرآن محل الثقة من رجلين لا نعرف فى أولياء الله عز وجل بعد رسوله صلى الله عليه وسلم من هو أقرب إلى الله منهما . وبعد أن ساورنى هذا الشك أعدت النظر فى الأخبار التى وردت عن سبب نزول الآية ﴿ إن جاءكم=

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح رؤوسَهم وترك عليهم ، إلا هو فقال : إنه كان على رأسي خَلُوق ، فامتنع صلى الله عليه وسلم من

= فاسق بنبأ ..) ، فلما عكفت على دراستها وجدتها موقوفة على مجاهد ، أو قتادة أو ابن أبي ليلى ، أو يزيد بن رومان ، ولم يذكر أحد منهم أسماء رواة هذه الأخبار في مدة مائة سنة أو أكثر مرت بين أيامهم وزمن الحادث ، وهذه المائة من السنين حافلة بالرواة من مشارب مختلفة وإن الذين لهم هوى في تسوىء سمعة مثل الوليد ومن هم أعظم مقاماً من الوليد قد ملأوا الدنيا أخباراً مريبة ليس لها قيمة علمية . وما دام رواة تلك الأخبار في سبب نزول الآية مجهولين من علماء الجرح والتعديل بعد الرجال الموقوفة هذه الأخبار عليهم ، وعلماء الجرح والتعديل لا يعرفون من أمرهم حتى ولا أسمائهم ، فمن غير الجائز شرعاً وتاريخاً الحكم بصحة هذه الأخبار المنقطعة التي لا نسب لها وترتيب الأحكام عليها . وهنالك خبران موصولان أحدهما عن أم سلمة زعم موسى بن عبيدة أنه سمعه من ثابت مولى أم سلمة . وموسى بن عبيدة ضعفه النسائي وابن المديني وابن عدي وجماعة . وثابت المزعوم أنه مولى أم سلمة ليس له ذكر في كل ما رجعت إليه من كتب العلم . فلم يذكر في تهذيب التهذيب ولا في تقريب التهذيب ولا في خلاصة تذهيب الكمال ، بل لم أجده ولا في قفصي الاتهام أعني (ميزان الاعتدال) و (لسان الميزان) . وذهبت إلى مجموعة أحاديث أم سلمة في مسند الإمام أحمد فقرأتها واحداً واحداً فلم أجد فيها هذا الخبر ، بل لم أجد لأم سلمة أي خبر ذكر فيه اسم مولى لها يدعى ثابت . زد على كل هذا أن أم سلمة لم تقل في هذا الخبر — إن صح عنها ، ولا سبيل إلى أن يصح عنها — إن الآية نزلت في الوليد ، بل قالت — أي قيل على لسانها — « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (رجلا) في صدقات بني المصطلق » . والخبر الثاني الموصول رواه الطبري في التفسير عن ابن سعد عن أبيه عن عمه عن أبيه عن أبيه عن ابن عباس . والطبري لم يلق ابن سعد=

مَسّه . فمن يكون فى مثل هذه السنّ يُرسل مصدِّقًا ؟ ! [1] وبهذا الاختلاف

=ولم يأخذ عنه ، لأن ابن سعد لما توفى ببغداد سنة ٢٣٠ كان الطبرى طفلا فى نحو السادسة من عمره ولم يخرج إلى ذلك الحين من بلده آمل فى طبرستان لا إلى بغداد ولا لغيرها . وابن سعد ، إن كان فى نفسه من أهل العدالة فى الدين والجلالة فى العلم ، إلا أن هذه السلسلة من سلفه يجهل علماء الجرح والتعديل أسماء أكثرهم فضلا عن أن يعرفوا شيئاً من أحوالهم (وبعد كتابة ما تقدم للطبعة الأولى من كتابنا تبين لى أن ابن سعد الذى روى عنه الطبرى هو محمد بن سعد العوفى . وقد وصف الشيخ أحمد شاكر سنده بأنه « سند مسلسل بالضعفاء من أسرة واحدة » . انظر تفسير الطبرى طبعة دار المعارف ١ : ٢٦٣ — ٢٦٤) فكل هذه الأخبار من أولها إلى آخرها لا يجوز أن يؤاخذ بها مجاهد كان موضع ثقة أبى بكر وعمر ، وقام بخدمات للإسلام يرجى له بها أعظم المثوبة إن شاء الله . أضف إلى كل ما تقدم أنه فى الوقت الذى حدثت فيه ابنى المصطلق الحادثة التى نزلت فيها الآية كان الوليد صغير السن كما سيأتى فى الفقرة التالية .

(١) هذا الخبر عن سن الوليد بن عقبة يوم فتح مكة رواه الإمام أحمد فى مسنده (٤ : ٣٢ الطبعة الأولى) عن شيخ له هو فياض بن محمد الرقى عن جعفر بن برقان الرقى عن ثابت بن الحجاج الكلابى الرقى عن عبد الله الهمدانى وهو (عبد الله بن مالك بن الحارث) عن الوليد بن عقبة ، والظاهر أن الوليد بن عقبة تحدث بهذا الحديث عندما اعتزل الناس فى السنين الأخيرة من حياته واختار الإقامة فى قرية له من أعمال الرقة ، فتسلسلت رواية الخبر فى الرواة الرقيين وأخذه الإمام أحمد عن شيخ له منهم . وعبد الله الهمدانى ثقة ، لكن التبس اسمه فى غير هذه الرواية بهمدانى آخر يكنى أبا موسى واسمه مالك بن الحارث (أى على اسم والد عبد الله الهمدانى) وهو مجهول عند أهل الجرح والتعديل ، أما عبد الله الهمدانى الذى ينتهى إليه الخبر فى رواية الإمام أحمد فمعروف وموثوق به ، وعلى روايته وأمثالها اعتمد القاضى ابن العربى فى الحكم على سن الوليد بن عقبة بأنه كان صبياً عند فتح =

يُسقِط العلماءُ الأحاديثَ القوية . وكيف يفسق رجل بمثل هذا الكلام ؟ فكيف برجل من أصحاب محمّد صلى الله عليه وسلم ؟!

وأما حَدُّه فى الخمر ، فقد حدَّ عمرُ قدامة بن مَظعون على الخمر وهو أمير وعزله ، وقيل إنه صالحه [1] .

= مكة وأن الذى نزلت فيه آية ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ﴾ هو شخص آخر . ومن عجيب أمر الذين كان لهم هوى فى تشويه سمعة هذا الصحابى الشاب المجاهد الطيب النفس الحسن السيرة فى الناس أنهم حاولوا إدحاض حجة صغر سنه فى ذلك الوقت بخبر آخر روى عن قدومه مع أخيه عمارة إلى المدينة فى السنة السابعة للهجرة ليطلبا من النبى صلى الله عليه وسلم رد أختهما أم كلثوم إلى مكة . وأصل هذا الخبر – إن صح – مقدّم فيه اسم عمارة على اسم الوليد ، وهذا مما يستأنس به فى أن عمارة هو الأصل فى هذه الرحلة وأن الوليد جاء فى صحبته ، وأى مانع يمنع قدوم الوليد صبياً بصحبة أخيه الكبير كما يقع مثل ذلك فى كل زمان ومكان ؟ فقول الوليد إنه كان فى سنة الفتح صبياً ليس فى خبر قدومه مع أخيه الكبير إلى المدينة فى السنة السابعة ما يمنعه أو يناقضه . فإذا تقرر عندك أن جميع الأخبار الواردة بشأن الوليد بن عقبة فى سبب نزول آية ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ﴾ لا يجوز علمياً أن يبنى عليها حكم شرعى أو تاريخى ، وإذا أضفت إلى ذلك حديث مسند الإمام أحمد عن سن الوليد فى سنة الفتح ، يتبين لك بعد ذلك حكمة استعمال أبى بكر وعمر للوليد وثقتهما به واعتمادهما عليه مع أنه كان لا يزال فى صدر شبابه .

(١) قدامة بن مظعون الجمحى أحد السابقين الأولين ، هاجر الهجرتين وشهد بدراً ، وكان صهر أمير المؤمنين عمر على أخته ، وقيل بل هو خال أم المؤمنين حفصة بنت عمر وأخيها عبيد الله . وفى إمارة قُدامة على البحرين فى خلافة عمر قدم الجارود سيد بنى عبد القيس على عمر من البحرين وادعى أن قدامة شرب فسكر . فقال له عمر : من يشهد معك ؟ قال : أبو هريرة . فاستشهد أبا هريرة فقال : : لم أره شرب ، ولكنى رأيته =

وليست الذنوبُ مسقطةً للعدالة إذا وقعت منها التّوبة [1] .

= سكران يقىء . فقال له عمر : لقد تنطعتَ فى الشهادة . واستقدم قدامة من البحرين ، فقال الجارود لعمر : أقم على هذا كتاب الله ، فقال له عمر : أخصم أنت أم شهيد ؟ فقال : شهيد . فقال عمر : قد أديت شهادتك . فصمت الجارود . ثم غدا على عمر فقال : أقم على هذا حد الله . فقال عمر : لتمسكن لسانك أو لأسوأنك . فقال : يا عمر ، ما ذلك بالحق أن يشرب ابن عمك الخمر وتسوؤنى . ثم جىء بزوجة لقدامة فأقامت الشهادة على زوجها . وأراد عمر أن يقيم عليه الحد . فقال له الصحابة : لا نرى أن تحده ما دام مريضاً، ثم عاوده فقالوا له كما قالوا من قبل فقال عمر : لأن يلقى الله تحت السياط أحبّ إلىّ من أن ألقاه وهو فى عنقى ، وجلده . فغاضبه قدامة . وعند قفولهما من الحج جىء به إلى عمر فكلمه عمر واستغفر له . ومن حسن حظ قدامة بن مظعون أنه قرشى من بنى جمح . ولو أنه كان قرشياً من بنى عبد شمس لانطلقت ألسنة السوء بالبذاءة عليه واختراع الأكاذيب فيه ما دام فى الدنيا كذب .

(1) هذا حق ، ولكن فى مثل ما تقدم عن قدامة بن مظعون ، وفى مثل ما هو مشهور عند الناس عن أبى محجن الثقفى الشاعر الفارس الذى كان له يوم أغر فى حرب القادسية . أما الوليد بن عقبة المجاهد الفاتح العادل المظلوم (الذى كان منه لأمته كل ما استطاعه من عمل طيب ، ثم رأى بعينه كيف يبغى المبطلون على الصالحين وينفذ باطلهم فيهم ، فاعتزل الناس بعد مقتل عثمان فى ضيعة له منقطعة عن صخب المجتمع ، وهى تبعد خمسة عشر ميلا عن بلدة الرقة من أرض الجزيرة التى كان يجاهد فيها ويدعو نصاراها إلى الإسلام فى خلافة عمر) فقد آن لدسائس الكذابين فيه أن ينكشف عنها عوارها . ولا يضير هذا الرجل أن يتأخر انكشاف الحق فيه ثلاثة عشر قرناً ، فإن الحق قديم ولا يؤثر فى قدمه احتجابه . أراد الوليد بن عقبة — منذ ولى الكوفة لأمير المؤمنين عثمان — أن يكون الحاكم المثالى فى العدل والنبل والسيرة الطيبة مع الناس ، كما كان المحارب المثالى فى جهاده =

= وقيامه للإسلام بما يليق بالذائدين عن دعوته ، الحاملين لرايته ، الناشرين لرسالته ، وقد لبث فى إمارته على الكوفة خمس سنوات وداره — إلى اليوم الذى زايل فيه الكوفة — ليس لها باب يحول بينه وبين الناس ممن يعرف أو لا يعرف ، فكان يغشاها كل من شاء ، متى شاء ، من ليل أو نهار ، ولم يكن بالوليد حاجة لأن يستتر عن الناس .

فالستر دون الفاحشات ولا   يلقاك دون الخير من ستر

وكان ينبغى أن يكون الناس كلهم محبين لأميرهم الطيب لأنه أقام لغربائهم دور الضيافة ، وأدخل على الناس خيراً حتى جعل يقسم المال للولائد والعبيد ، ورد على كل مملوك من فضول الأموال فى كل شهر ما يتسعون به من غير أن ينقص مواليهم من أرزاقهم . وبالفعل كانت جماهير الشعب متعلقة بحب هذا الأمير المثالى طول مدة حكمه . إلا أن فريقاً من الأشرار وأهل الفساد أصاب بنيهم سوط الشريعة بالعقاب على يد الوليد ، فوقفوا حياتهم على الرصد الأذى له . ومن هؤلاء رجال يسمى أحدهم أبا زينب بن عوف الأزدى ، وآخر يسمى أبا مورع ، وثالث اسمه جندب أبو زهير ، قبضت السلطات على أبنائهم فى ليلة نقبوا بها على ابن الحيسمان داره وقتلوه ، وكان نازلا بجواره رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أهل السابقة فى الإسلام وهو أبو شريح الخزاعى حامل راية رسول الله صلى الله عليه وسلم على جيش خزاعة يوم فتح مكة فجاء هو وابنه من المدينة إلى الكوفة ليسيرا مع أحد جيوش الوليد بن عقبة التى كان يواصل توجيهها نحو الشرق للفتوح ونشر دعوة الإسلام ، فشهد هذا الصحابى وابنه فى تلك الليلة سطو هؤلاء الأشرار على منزل ابن الحيسمان ، وأدى شهادته هو وابنه على هؤلاء القتلة السفاحين ، فأنفذ الوليد فيهم حكم الشريعة على باب القصر فى الرحبة ، فكتب آباؤهم العهد على أنفسهم للشيطان بأن يكيدوا لهذا الأمير الطيب الرحيم ، وبثوا عليه العيون والجواسيس ليترقبوا حركاته ، وكان بيته مفتوحاً دائماً . وبينما كان عنده ذات يوم ضيف له من شعراء الشمال =

= كان نصرانياً فى أخواله من تغلب بأرض الجزيرة وأسلم على يد الوليد، فظن جواسيس الموتورين أن هذا الشاعر الذى كان نصرانياً لابد أن يكون ممن يشرب الخمر ولعل الوليد أن يكرمه بذلك فنادوا أبا زينب وأبا المورع وأصحابهما ، فاقتحموا الدار على الوليد من ناحية المسجد ، ولم يكن لداره باب ، فلما فوجىء بهم نحى شيئاً أدخله تحت السرير ، فأدخل بعضهم يده فأخرجه بلا إذن من صاحب الدار ، فلما أخرج ذلك الشىء من تحت السرير إذا هو طبق عليه تفاريق عنب ، وإنما نحاه الوليد استحياء أن يروا طبقه ليس عليه إلا تفاريق عنب ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون من الخجل ، وسمع الناس بالحكاية فأقبلوا يسبونهم ويلعنونهم . وقد ستر الوليد عليهم ذلك وطواه عن عثمان وسكت عن ذلك وصبر . ثم تكررت مكايد جندب وأبى زينب وأبى المورع ، وكانوا يغتنمون كل حادث فيسيئون تأويله ويفترون الكذب . وذهب بعض الذين كانوا عمالا فى الحكومة ونحاهم الوليد عن أعمالهم لسوء سيرتهم فقصدوا المدينة وجعلوا يشكون الوليد لأمير المؤمنين عثمان ويطلبون منه عزله عن الكوفة. وفيما كان هؤلاء فى المدينة دخل أبو زينب وأبو المورع دار الإمارة بالكوفة مع من يدخلها من عمار الناس وبقيا فيها إلى أن تنحى الوليد ليستريح ، فخرج بقية القوم ، وثبت أبو زينب وأبو المورع إلى أن تمكنا من سرقة خاتم الوليد من داره وخرجا . فلما استيقظ الوليد لم يجد خاتمه ، فسأل عنه زوجتيه — وكانتا فى مخدع تريان منه زوار الوليد من وراء ستر — فقالتا إن آخر من بقى فى الدار رجلان ، وذكرتا صفتهما وحليتهما للوليد ، فعرف أنهما أبو زينب وأبو المورع ، وأدرك أنهما لم يسرقا الخاتم إلا لمكيدة بيتاها ، فأرسل فى طلبهما فلم يوجدا فى الكوفة ، وكانا قد سافرا توا إلى المدينة ، وتقدما شاهدين على الوليد بشرب الخمر (وأكبر ظنى أنهما استلها شهادتهما المزورة من تفاصيل الحادث الذى سبق وقوعه لقدامة بن مظعون فى خلافة عمر (فقال كنا من غاشيته ، فدخلنا عليه وهو يقىء الخمر . فقال عثمان : ما يقىء الخمر إلا شاربها ؛ فجىء بالوليد من الكوفة فحلف لعثمان وأخبره خبرهم ، فقال عثمان : «نقيم الحدود : =

وقد قيل لعثمان : إنك ولّيت الوليد لأنه أخوك لأمك أروى بنت

= ويبوء شاهد الزور بالنار » .

هذه قصة اتهام الوليد بالخمر كما فى حوادث سنة ٣٠ من تاريخ الطبرى ، وليس فيها — على تعدد مصادرها القديمة — شيء غير ذلك . وعناصر الخبر عند الطبرى أن الشهود على الوليد اثنان من الموتورين الذين تعادت شواهد غلهم عليه ، ولم يرد فى الشهادة ذكر الصلاة من أصلها فضلا عن أن تكون اثنتين أو أربعاً . وزيادة ذكر الصلاة هى الأخرى أمرها عجيب ، فقد نقل خبرها عن الحضين بن المنذر (أحد أتباع على) أنه كان مع على عند عثمان ساعة أقيم الحد على الوليد ، وتناقل الناس عنه هذا الخبر فسجله مسلم فى صحيحه (كتاب الحدود ب ٨ ح ٣٨ — ج ٥ ص ١٢٦) بلفظ « شهدتُ عثمان ابن عفان وأتى بالوليد قد صلى الصبح (ركعتين) ثم قال : أزيدكم ؟ فشهد عليه رجلان أحدهما حمران أنه شرب الخمر ، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ » . فالشاهدان لم يشهدا بأن الوليد صلى الصبح ركعتين وقال أزيدكم ، بل شهد أحدهما بأنه شرب الخمر وشهد الآخر بأنه تقيأ . أما صلاة الصبح ركعتين وكلمة أزيدكم فهى من كلام حضين ، ولم يكن حضين من الشهود ، ولا كان فى الكوفة فى وقت الحادث المزعوم ، ثم إنه لم يسند هذا العنصر من عناصر الاتهام إلى إنسان معروف . ومن العجيب أن نفس الخبر الذى فى صحيح مسلم وارد فى ثلاثة مواضع من مسند أحمد مروياً عن حضين ، والذى سمعه من حضين فى صحيح مسلم هو الذى سمعه منه فى مسند أحمد بمواضعه الثلاثة ، فالموضعان الأول والثانى (ج ١ ص ٨٢ و ١٤٠ الطبعة الأولى — ج ٢ رقم ٦٢٤ و ١١٨٤ الطبعة الثانية) ليس فيهما ذكر للصلاة عن لسان حضين فضلا عن غيره ، فلعل أحد الرواة من بعده أدرك أن الكلام عن الصلاة ليس من كلام الشهود فاقتصر على ذكر الحد . وأما فى الموضع الثالث من مسند أحمد (ج ١ ص ١٤٤ —١٤٥ الطبعة الأولى — ج ٢ رقم ١٢٢٩) فقد =

كريْز بن ربيعة بن حبيب بن عبدِ شمْس ، فقال : بل لأنه ابنُ عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمِّ حكيم البيضاءُ . وجدَّة عثمان وجدَّةُ الوليد لأمهما أرْوَىٰ المذكورة أمُّ حكيم توأمةُ عبد الله أبي رسول الله صلى الله

= جاء على لسان حضين «أن الوليد صلى بالناس الصبح أربعاً» وهويعارض ما جاء على لسان حضين نفسه فى صحيح مسلم ، ففى إحدى الروايتين تحريف الله أعلم بسببه . وفى الحالتين لا يخرج ذكر الصلاة عن أنه من كلام حضين وحضين ليس بشاهد ، ولم يرو عن شاهد ، فلا عبرة بهذا الجزء من كلامه ، وبعد أن علمت بأمر الموتورين فيما نقله الطبرى عن شيوخه ، أزيدك علما بأمر حمران ، وهو عبد من عبيد عثمان كان قد عصى الله قبل شهادته على الوليد فتزوج فى مدينة الرسول امرأة مطلقة ودخل بها وهى فى عدتها من زوجها الأول ، فغضب عليه عثمان لهذا ولأمور أخرى قبله فطرده من رحابه وأخرجه من المدينة . فجاء الكوفة يعيث فيها فساداً ، ودخل على العابد الصالح عامر بن عبد القيس فافترى عليه الكذب عند رجال الدولة وكان سبب تسييره إلى الشام . وأنا أترك أمر هذا الشاهد والشاهدين الآخرين قبله إلى ضمير القارئ يحكم به عليهم بما يشاء ، وفى اجتهادى أن مثل هؤلاء الشهود لا يقام بهم حد الله على ظنين من السوقة والرعاع ، فكيف بصحابى مجاهد وضع الخليفة فى يده أمانة قطر وقيادة جيوش فكان عند الظن به من حسن السيرة فى الناس وصدق الرعاية لأمانات الله ، وكان موضع الثقة عند ثلاثة من أكمل خلفاء الإسلام أبى بكر وعمر وعثمان . وإن قرابة الوليد من عثمان التى يزعم الكذبة أنها سبب المحاباة منه لهم إنما كانت سبب التسامح من عثمان فى عزلهم والقسوة عليهم لئلا يقول السفهاء إن له هوى فى ذوى قرابته . وقد رأينا الذين يتسلون بأعراض الناس يتفكهون بأبيات ستة منسوبة إلى ماجن خسيس النفس وردت فى ص ٨٥ من ديوانه ، ولا تحملهم سليقة النقد على الشعور بما فى هذه الأبيات من التضارب والتعارض ، فأين مدحه فيها للوليد بقوله : =

عليه وسلم . وأى حرج على المرء أن يولِّى أخاه أو قريبه (١) ؟

= ورأوا شمائل ماجد أنف يعطى على الميسور والعسر
فنزعتَ مكذوبا عليك ولم تردد إلى عــوز ولا فقــر

من بقية الأبيات التى فيها :

نادى وقــد تمت صلاتهم أأزيدكم ثمــلا وما يــدرى

فالذى يقول البيت الأخير لا يعقل أن يقول معه البيتين الأولين فيكون مادحاً وذاماً فى قطعة واحدة لا تزيد على ستة أبيات : وقد كانت لى مقالة مطولة عن (التخليط فى الشعر) ضربت فيها الأمثلة على دس أبيات غريبة فى قصائد من وزنها ورويها لغير ناظمها . وعلى كل حال فالشهود الذين شهدوا بين يدى عثمان لم يدَّعوا حكاية الصلاة ، مع أنهم لم يكونوا ممن يخاف الله واليوم الآخر . والآن أقولها لوجه الله صريحة مدوية : إن الوليد لو كان من رجال التاريخ الأوربى كالقديس لويس الذى أسرناه فى دار ابن لقمان بالمنصورة لعدُّوه قديساً ، لأن لويس التاسع لم يحسن إلى فرنسا كإحسان الوليد بن عقبة إلى أمته ، ولم يفتح للنصرانية كفتح الوليد للإسلام ، والعجب لأمة تسىء إلى أبطالها ، وتشوه جمال تاريخها ، وتهدم أمجادها كما يفعل الأشرار منا ، ثم ينتشر كيد هؤلاء الأشرار حتى يظن الأخيار أنه هو الحق .

(١) وقد تقدم فى هامش ص ٨٧ أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب جعل الأمراء فى مدة خلافته على أكثر أمصار حكمه من ذوى قرابته . وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولَّى رجال بنى أمية وشبابهم . وكذلك فعل أبو بكر وعمر ، فلم يفعل عثمان إلا الذى سبقه إليه النبى صلى الله عليه وسلم وصاحباه . بل إن عثمان لما أقام الحد على أخيه لأمه فعل ما لا نظن أحداً يفعله بشهادة الشهود المغرضين الذين لم يريدوا الله بشهادتهم . وإذا كان الشهود على الوليد من هذه الطبقة المغرضة ، فقد شهد له بظهر الغيب قاض من أعظم =

١٣ ـ وأما إعطاؤه خُمس إفريقية لواحد فلم يصحّ [١] . على أنه

= قضاة الإسلام فى التاريخ علماً وفضلا وإنصافاً وهو الإمام عامر بن شراحيل الشعبى ، روى الطبرى (٥ : ٦٠) أن الشعبى سمع فى أوائل بطولة مسلمة بن عبد الملك حفيداً للوليد بن عقبة يتحدث عن جهاد مسلمة ، فقال الشعبى : «كيف لو أدركتم الوليد غزوه وإمارته ؟ إنْ كان ليغزو فينتهى إلى كذا وكذا .:. ماقصر ، ولا انتقض عليه أحد . حتى عزل عن عمله وعلى الباب (أى الدربند ، وراء بحر الخزر فى روسيا ، وكان من أمنع معاقل الدنيا) عبد الرحمن الباهلى (وهو من أعظم قواد الوليد) . وإن كان مما زاد عثمان الناس على يده (أى على يد الوليد) أن رد على كل مملوك بالكوفة من فضول الأموال ثلاثة فى كل شهر يتسعون بها من غير أن ينقص مواليهم من أرزاقهم » . فهذه الشهادة من الإمام الشعبى للوليد فى جهاده الحربى الظافر ، وفى إحسانه لرعيته فى معايشهم ، تفقأ عيون المبطلين ، وتُقرُّ أعين الصالحين ، وصدق أمير المؤمنين عثمان يوم طيب قلب أخيه المظلوم بقوله « نقيم الحدود ، وينوء شاهد الزور بالنار » ، ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ .

(١) والذى صح هو إعطاؤه خمس الخمس لعبد الله بن أبى سرح جزاء جهاده المشكور ، ثم عاد فاسترده منه . جاء فى حوادث سنة ٢٧ من تاريخ الطبرى (٥ : ٤٩ مصر ، ١ : ٢٨١٤ ـ ٢٨١٥ طبع أوربا) أن عثمان لما أمر عبد الله بن سعد بن أبى سرح بالزحف من مصر على تونس لفتحها قال له : « إن فتحَ الله عليك غداً إفريقية فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلا » . فخرج بجيشه حتى قطعوا أرض مصر وأوغلوا فى أرض إفريقية وفتحوها سهلها وجبلها ، وقسم عبد الله على الجند ما أفاء الله عليهم وأخذ خمس الخمس وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان مع وثيمة النصرى . فشكا =

قد ذهب مالكٌ وجماعة إلى أن الإمام يرى رأيه فى الخُمس ، وينفذ فيه ما أدّاهُ إليه اجتهاده ، وأنَّ إعطاءه لواحد جائزٌ ، وقد بيّنا ذلك فى مواضعه (١) .

= وفد ممن معه إلى عثمان ماأخذه عبد الله بن سعد، فقال لهم عثمان : أنا أمرت له بذلك ، فإن سخطتم فهو رد . قالوا : إنا نسخطه . فأمر عثمان عبد الله بن سعد بأن يرده فرده . ورجع عبد الله بن سعد إلى مصر وقد فتح إفريقية . وقد ثبت فى السنة تنفيل أهل الغناء والبأس فى الجهاد ، كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم فى مكافأة سلمة بن الأكوع فى إغارة عبد الرحمن الفزارى على سرح النبى صلى الله عليه وسلم (انظر المنتقى للمجد ابن تيمية ٤٣١٤ وفى غزوات أخرى ٤٣١٩ ، ٤٣٢٠ ، ٤٣٢١) .

(١) أى فى مؤلفاته الأخرى عند بسطه هذه المسألة من أحكام الفقه الإسلامى . قال الإمام عامر بن شراحيل الشعبى : « إنما القطائع على وجه النفل من خمس ما أفاء الله » قال : « وأقطع عمرُ طلحة وجرير بن عبد الله والربيِّل بن عمرو . وأقطع (أى عمر) أبا مفزِّر دارَ الفيل » . وممن أقطعهم عمر بن الخطاب نافع أخو زياد وأبى بكرة لأمها ، أقطعه أرضاً فى البصرة لخيله وإبله مساحتها عشرة أجربة (انظر ترجمة نافع فى الإصابة) قال القاضى أبو يوسف فى كتاب الخراج (ص ٦١) وقد أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتألف على الإسلام أقواماً ، وأقطع الخلفاء من بعده من رأوا أن فى إقطاعه صلاحاً (وضرب أبو يوسف الأمثلة على ذلك) . وانظر باب القطائع فى ص ٧٧ — ٧٨ من كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشى طبع السلفية . وذكر الإمام الشعبى بعض الذين أقطعهم عثمان فقال : « وأقطع الزبير ، وخباب ، وعبد الله بن مسعود ، وعمار بن ياسر ، وابن هبّار أزمان عثمان ، فإن يكن عثمان أخطأ فالذين قبلوا منه الخطأ أخطأوا ، وهم الذين أخذنا عنهم ديننا » (الطبرى ٤ : ١٤٨) . وأقطع على بن أبى طالب كردوس بن هانئ الكردوسية ، وأقطع سويداً بن غفلة أرضاً لداذويه . فكيف ينكرون على عثمان ويسكتون عن عمر وعلى . وللقاضى أبى يوسف كلام سديد فى هذا الموضوع فى كتاب الخراج =

١٤ ـ وأما قولهم إنه ضرب بالعصا ، فما سمعته ممن أطاع أو عصى،

= (ص ٦٠–٦٢ طبعة السلفية سنة ١٣٥٢) ، وما زعمه الزاعمون من أن عثمان كان يود ذوى قرابته ويعطيهم ، فمودته ذوى قرابته من فضائله، وعلىّ أثنى على عثمان بأنه أوصلهم الصحابة للرحم ، وعثمان أجاب عن موقفه هذا بقوله : « وقالوا إنى أحب أهل بيتى وأعطيهم . فأما حبى لهم فإنه لم يمل معهم على جور ، بل أحمل الحقوق عليهم . وأما إعطاؤهم فإنى إنما أعطيهم من مالى ، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ، ولا لأحد من الناس ، وقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ، وأنا يومئذ شحيح حريص ، أفحين أتت علىّ أسنان أهل بيتى وفنى عمرى وودعت الذى لى فى أهلى قال الملحدون ما قالوا ؟ » . قال الطبرى (٥ : ١٠٣) : وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه فى بنى أمية ، وجعل ولده كبعض من يعطى ، فبدأ ببنى أبى العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف عشرة آلاف فأخذوا مائة ألف ، وأعطى بنى عثمان مثل ذلك ، وقسم فى بنى العاص وبنى العيص وفى بنى حرب . بل تمادى شيخ الإسلام ابن تيمية مع أوسع الاحتمالات فذكر فى منهاج السنة (٣ : ١٨٧ – ١٨٨) أن سهم ذوى القربى ذهب بعض الفقهاء إلى أنه لقرابة الإمام كما قاله الحسن أبو ثور ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعطى أقاربه بحكم الولاية .. وقيل هو لمن ولى الأمر بعده .. قال : وبالجملة فعامة من تولى الأمر بعد عمر كان يخص بعض أقاربه إما بولاية أو بمال . ثم قال (فى ٣ : ٢٣٧) : « إن ما فعله عثمان فى المال له ثلاثة مآخذ : أحدها أنه عامل عليه ، والعامل يستحق مع الغنى . الثانى أن ذوى القربى هم ذوو قربى الإمام . الثالث أنهم (أى ذوو قربى عثمان) كانوا قبيلة كثيرة ليسوا مثل قبيلة أبى بكر وعمر ، فكان يحتاج إلى إعطائهم وولايتهم أكثر من حاجة أبى بكر وعمر إلى تولية أقاربهما وإعطائهم . وهذا مما نقل عن عثمان الاحتجاج به » .

وإنما هو باطل يُحكى ، وزُور يُنْثَى[1] ، فيا لله وللنهى .

١٥ ـ وأما علوُّه على درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فماسمعته ممن فيه تقية . وإنما هى إشاعة منكر ، ليُروى ويُذكر ، فيتغيَّر قلب من يتغير ، قال علماؤنا : ولو صح ذلك فما فى هذا ما يُحِلُّ دمه . ولا يخلو أن يكون ذلك حقًّا فلم تنكره الصحابة عليه ، إذ رأت جوازه ابتداء أو لسبب اقتضى ذلك . وإن كان لم يكن فقد انقطع الكلام[2] .

١٦ ـ وأما انهزامُه يومَ حُنين ، وفرارُه يوم أُحُد ، ومغيبُه عن بدْر وبيعةِ الرِّضْوان ، فقد بيَّنَ عبدُ الله بن عمر وجه الحكم فى شأن البيعة وبَدْر وأُحد . وأما يوم حُنين فلم يبق إلا نفر يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن لم يجر فى الأمر تفسير من بقى ممن مضى فى الصحيح ، وإنما هى أقوال : منها أنه ما بقى معه إلا العباس وابناه عبدُ الله وقُثَم ، فناهيك بهذا الاختلاف ، وهو أمر قد اشترك فيه الصحابة ،

---

(١) نثى الخبر والحديث : أذاعه وأظهره . والنثا مثل الثناء . إلا أنه فى الخير والشر ، والثناء فى الخير خاصة .

(٢) كان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيق المساحة فى عصر النبوة وخلافة أبى بكر ، وكان من مناقب عثمان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم عندما زاد عدد الصحابة أن اشترى من ماله مساحة من الأرض وسع بها المسجد النبوى ، ثم وسعه أمير المؤمنين عمر فأدخل فيه دار العباس بن عبد المطلب . ثم ازداد عدد المصلين بازدياد عدد سكان المدينة وقاصديها فوسعه أمير المؤمنين عثمان مرة أخرى وجعل طوله ستين ومائة ذراع وعرضه خمسين ومائة ذراع وجدد بناءه . فاتساع المسجد وازدياد غاشيته وبعد أمكنة بعضهم عن منبر الخطابة يجوز أن يكون من ضرورات ارتفاع الخطيب ليراهم ويروه ويسمعوه

وقد عفا الله عنه ورسوله ، فلا يحلُّ ذكرُ ما أسقطه الله ورسوله والمؤمنون ، أخرج البخاريُّ [1] : جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن عثمان ، فذكر عن محاسن عمله وقال : لعلَّ ذلك يسوؤك ؟ قال : نعم . قال : فأرغم الله بأنفك ! ثم سأله عن علي ، فذكر محاسنَ عمله وقال : هو ذاك بيته أوسط بيوت النبي صلى الله عليه وسلم . ثم قال : لعل ذلك يسوؤك ؟ قال : أجل . قال : فأرغم الله بأنفك ! انطلقْ فاجهد عليَّ جهدَك . وقد تقدم فى حديث « بُنى الإسلام على خمس » زيادة فيه للبخارى فى عليّ وعثمان [2] . وقد أخرجَ البخاريُّ أيضًا [3] من حديث عثمان بن عبد الله ابن موهب قال : جاء رجل من أهل مصر يريد حجَّ البيت ، فرأى قومًا جلوسا ، فقال : من هؤلاءِ القوم ؟ قالوا : هؤلاءِ قُرَيش . قال : فمن الشيخ فيهم ؟ قالوا : عبد الله بن عمر . قال : يا ابن عمر ، إنى سائلك عن شئ فحدِّثْنى عنه . هل تعلم أن عثمان فرَّ يوم أُحد ؟ قال : نعم . فقال : تعلم أنه تغيَّب عن بدر ولم يشهد : قال ؟ نعم . قال : هل تعلم أنه تغيَّب عن بيعة الرِّضْوان فلم يشهدها ؟ قال : نعم . قال : الله أكبر ! قال ابن عمر ، تعا أُبيِّن لك . أما فرارُه يوم أُحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له . وأما تغيُّبه عن بدر فإنه كان تحته بنتُ رسول الله صلى الله

---

(1) فى كتاب فضائل الصحابة (ك ٦٢ ب ٩ — ج ٤ ص ٢٠٨) من حديث سعد بن عبيدة .

(2) لعل المؤلف يشير إلى حديث ابن عمر فى كتاب التفسير من صحيح البخارى (ك ٦٥ ب ٢ تفسير البقرة الحديث ٣٠ ج ٥ ص ١٥٧) .

(3) فى كتاب فضائل الصحابة (ك ٦٢ ب ٧ — ج ٤ ص ٢٠٣ — ٢٠٤)

عليه وسلم وكانت مريضة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لك أجر رجُل ممن شهد بدرا وسهمه [1] . وأما تغيُّبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحدٌ أعزَّ ببطن مكة من عثمانَ لبعثه مكانه ، فبعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عثمانَ [2] وكانت بيعةُ الرِّضْوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة [3] ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيده اليمنىٰ : « هٰذِهِ

---

(١) وبعث النبي صلى الله عليه وسلم ببشرى النصر فى بدر مع زيد بن حارثة إلى عثمان فى المدينة . قال أسامة بن زيد – فيما رواه الطبرى ٢ : ٢٨٦ – : « فأتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التى كانت عند عثمان ابن عفان ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفنى عليها مع عثمان » ثم فى ربيع الأول من السنة التالية لغزوة بدر تزوج عثمان أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأدخلت عليه فى جمادى الآخرة .

(٢) وقبل أن يبعث عثمان دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال عمر : يا رسول الله إنى أخاف قريشاً على نفسى وليس فى مكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى . ولكنى أدلك على رجل هو أعزُّ منى فيها : عثمان بن عفان . فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش . ويوم تدوّن الدول الإسلامية تاريخ السفارات فى الإسلام ، سيكون اسم عثمان أول سفراء الإسلام فى التاريخ .

(٣) لأن عثمان لما أدى رسالته فى السفارة التى بعث لها احتبس أياماً . فلم يعد إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى الموعد الذى كان يقدر له أن يعود فيه ، فوصل الخبر إلى النبى صلى الله عليه وسلم بأن سفيره قتل ، فدعا النبى صلى الله عليه وسلم الصحابة إلى بيعة الرضوان ، انتصاراً لعثمان ، على نية أن يذهب بالصحابة إلى مكة فيناجز المشركين لما بلغه عن قتلهم عثمان . فبيعة الرضوان كانت رمزاً من رموز الشرف لعثمان ، وأى شرف أعظم من اجتماع قوى الإسلام بقيادة الرسول الأعظم للأخذ بثأر هذا الرجل الحبيب إلى المسلمين ، والرفيع المنزلة عند سيد الأولين والآخرين ؟ ثم لما علم النبى صلى الله عليه وسلم – فى اللحظة الأخيرة التى اجتمع فيها الصحابة لعقد البيعة – أن عثمان حى ، =

يدُ عُثمان » فضرب بها على يده فقال : « هٰذه لعثمان » . ثم قال له ابن عمر : اذهب بها الآن معك [1] .

١٧ — وأما امتناعه عن قتل عُبيد الله بن عمر بن الخطاب بالهُرْمُزان ، فإن ذلك باطل [2] . فإن كان لم يفعل فالصحابة متوافرون ، والأَمر فى

= مضى فى إتمام البيعة على سنته صلى الله عليه وسلم فى أنه إذا بدأ بخير يمضى فى إكماله ولو زال سببه . وحينئذ كان لعثمان الشرف المضاعف بأن يد رسول الله صلى الله عليه وسلم نابت عن يده فى عقد البيعة عنه . فبيعة الرضوان كانت انتصاراً لعثمان ، وجميع الصحابة بايعوا بأيدى أنفسهم إلا عثمان فإن أشرف يد فى الوجود نابت عن يده فى إعطاء بيعته . ولو لم يكن لعثمان من الشرف فى حياته كلها إلا هذا لكفاه .

(١) لو أن أمير المؤمنين عثمان كان من حواريى المسيح عليه السلام ، وكانت له من سيدنا عيسى بن مريم مثل هذه المنقبة التى كرمه الله بها من نبى الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لعبدته النصارى لأجلها . فالعجب لأمة يكون فيها جهلة يعيبون على عثمان — فى زمانه — غيبته عن بيعة الرضوان ، ويكون فيهم من يستشعر الشجاعة فى نفسه عند الإقدام على سفك دم هذا الخليفة الرحيم لأمور هذا منها ، ثم يحمل مثل هذا الجهل فى دماغه رجل جاء يعبد الله بأداء فريضة الحج فيواجه به جماعة الصحابة من قريش ورئيسهم عبد الله ابن عمر . ثم تمس الحاجة إلى التعرض لبيان هذه الحقائق فى عصر القاضى أبى بكر بن العربى ، ثم يشعر أمثالنا فى عصرنا بأن عثمان لا يزال من بعض أمته فى موقف يحتاج فيه إلى إنصافه ودفع قالة السوء عنه . حقاً إننا أمة مسكينة .... ولأمر ما بلغ بنا الحال بين الأمم إلى ما كنا فيه ، وإلى ما لا نزال غارقين فيه ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾

(٢) بشهادة ابنه القماذبان . روى الطبرى (٥ : ٤٣ — ٤٤ مصر و ١ : ٢٨٠١ طبعة أوروبا) عن سيف بن عمر بسنده إلى أبى منصور قال : سمعت القماذبان يحدث عن=

أَوَّله [1] ، وقد قيل : إن الهرمزان سعى فى قتل عمر ، وحمل الخنجر وظهر تحت ثيابه [2] ، وكان قتل عُبيد الله له وعثمان لم يل بعد ، ولعل

=قتل أبيه .. قال : « فلما ولى عثمان دعانى فأمكننى منه » (أى من عبيد الله بن عمر بن الخطاب) ، ثم قال : « يا بنى هذا قاتل أبيك ، وأنت أولى به منا ، فاذهب ، فاقتله » . فخرجت به وما فى الأرض أحد إلا معى ، إلا أنهم يطلبون إلى فيه . فقلت لهم : ألىّ قتله ؟ قالوا : نعم . وسبّوا عبيد الله . فقلت : أفلكم أن تمنعوه ؟ قالوا : لا . وسبوه . فتركته لله ولهم . فاحتملونى . فوالله ما بلغت المنزل إلا على رءوس الرجال وأكفهم » . هذا كلام ابن الهرمزان وإن كل منصف يعتقد (ولعل ابن الهرمزان أيضاً كان يعتقد) أن دم أمير المؤمنين عمر فى عنق الهرمزان ، وأن أبا لؤلؤة لم يكن إلا آلة فى يد هذا السياسى الفارسى . وإن موقف عثمان وإخوانه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الحادث لا نظير له فى تاريخ العدالة الإنسانية .

(١) وقد تصرف عثمان فى هذا الأمر بعد أن ذاكر الصحابة فيه . قال الطبرى (٥ : ٤١) جلس عثمان فى جانب المسجد ودعا عبيد الله وكان محبوساً فى دار سعد بن أبى وقاص ، وهو الذى نزع السيف من يده .. فقال عثمان لجماعة من المهاجرين والأنصار : أشيروا علىّ فى هذا الذى فتق فى الإسلام ما فتق . فقال على : أرى أن تقتله . فقال بعض المهاجرين : قتل عمر أمس ، ويقتل ابنه اليوم ؟ فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين ، إن الله أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان ، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك . قال عثمان : أنا وليهم ، وقد جعلتها دية ، واحتملتها فى مالى .

(٢) وفى تاريخ الطبرى : (٥ : ٤٢) حديث سعيد بن المسيب أن عبد الرحمن ابن أبى بكر الصديق قال غداة طعن عمر : « مررتُ على أبى لؤلؤة عشى أمس ، ومعه جفينة (وكان نصرانياً من أهل الحيرة ظئراً لسعد بن أبى وقاص) والهرمزان ، وهم نجىٌّ ،=

عثمان كان لا يرى على عُبيد الله حقًا ، لما ثبت عنده من حال الهرمزان وفعله [1] ، وأيضًا فإن أحدًا لم يقم بطلبه . وكيف يصح مع هذه الاحتمالات كلها أن ينظر فى أمر لم يصح ؟

=فلما رهقتهم ثاروا ، وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه . فانظروا بأى شىء قتل ؟ وخرج فى طلبه رجل من بنى تميم ، فرجع إليهم التميمى وقد كان ألظّ بأبى لؤلؤة منصرفه عن عمر حتى أخذه . وجاء بالخنجر الذى وصف عبد الرحمن بن أبى بكر . فسمع بذلك عبيد الله بن عمر ، فأمسك حتى مات عمر ، ثم اشتمل على السيف فأتى الهرمزان فقتله .

(١) وكذلك حبر الأمة عبد الله بن عباس رأى جواز قتل علوج الفرس الذين فى المدينة بلا استثناء . قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة (٣ : ٢٠٠) : وقد قال عبد الله ابن عباس لما طعن عمر — وقال له عمر : كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة — فقال (أى ابن عباس) : « إن شئت أن نقتلهم » فقال عمر : « كذبت ، أفبعد أن تكلموا بلسانكم ، وصلوا إلى قبلتكم ؟ » . قال ابن تيمية : فهذا ابن عباس — وهو أفقه من عبيد الله ابن عمر وأدين وأفضل بكثير — يستأذن عمر فى قتل علوج الفرس مطلقاً الذين كانوا بالمدينة ، لما اتهموهم بالفساد ، اعتقد جواز مثل هذا ... وإذا كان الهرمزان ممن أعان على قتل عمر كان من المفسدين فى الأرض المحاربين فيجب قتله لذلك . ولو قدر أن المقتول معصوم الدم يحرم قتله ، لكن كان القاتل متأولا ويعتقد حل قتله لشبهة ظاهرة ، صار ذلك شبهة تدرأ عن القاتل (يعنى عن عبيد الله بن عمر) قلت : وإلى هذا ذهب عثمان فى اكتفائه بالدية واحتملها من ماله الخاص . ولو أن حادث مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — بجميع ظروفه — وقع مثله فى أى بلد آخر مهما بلغ فى ذروة الحضارة لما كان منهم مثل الذى كان من الصحابة فى تسامحهم إلى حد المطالبة حتى بقتل ابن أمير المؤمنين المقتول بيد الغدر والنذالة والبغى الذميم .

١٨ ــ وأما تعلّقهم بأن الكتاب وجد مع راكب ، أو مع غلامه ــ ولم يقل أحد قطّ إنه كان غلامه [١] ــ إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرْح

---

(١) وإنما قالوا إنه غلام الصدقة ، أى أحد رعاة إبل الصدقة . وإبل الصدقة ألوف كثيرة لها مئات من الرعاة . وإن صح أنه من رعاة إبل الصدقة فهؤلاء لكثرتهم وتبدلهم دائماً بغيرهم لا يكاد يعرفهم رؤساؤهم فضلا عن أن يعرفهم أمير المؤمنين وكبار عماله وأعوانه . ومع افتراض أنه من رعاة إبل الصدقة فما أيسر أن يستأجره هؤلاء البغاة لغرض من أغراضهم ، وقد ثبت أن الأشتر وحُكيم بن جبلة تخلفا فى المدينة عند رحيل الثوار عنها مقتنعين بأجوبة عثمان وحججه ، وفى مدة تخلف الأشتر وحكيم بن جبلة تم تدبير الكتاب وحامله للتذرع بها فى تجديد الفتنة ورد الثوار ، ولم يكن لأحد غير الأشتر وأصحابه مصلحة فى تجديد الفتنة ، وكم لهم من حيل أكثر التواء من استئجار راع يرعى إبل الصدقة . بل لقد ذكروا عن محمد بن أبى حذيفة ربيب عثمان الآبق من نعمته أنه كان فى نفس ذلك الوقت موجوداً فى مصر يؤلب الناس على أمير المؤمنين ويزور الكتب على لسان أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ويأخذ الرواحل فيضمرها ويجعل رجالا على ظهور البيوت فى الفسطاط ووجوههم إلى وجه الشمس لتلوح وجوههم تلويح المسافر ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق الحجاز بمصر ثم يرسلوا رسلا يخبرون عنهم الناس ليستقبلوهم ... فإذا لقوهم قالوا إنهم يحملون كتباً من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى الشكوى من حكم عثمان ، وتُتلى هذه الكتب فى جامع عمرو بالفسطاط على ملإ الناس وهى مكذوبة مزورة وحملتها كانوا فى مصر ولم يذهبوا إلى الحجاز (انظر كتاب الأستاذ المحقق الشيخ صادق عرجون عن « عثمان بن عفان » ص ١٢٢ ــ ١٣٣) فتزوير الكتب فى مأساة البغى على أمير المؤمنين عثمان كان من أسلحة للبغاة استعملوه من كل وجه وفى كل الأحوال وقد تقدم المثال على ذلك فى صفحة ٥٩ ، وسيأتى طرف منه فيما بعد .

يأمره بقتل حامليه [1] ، فقد قال لهم عثمان : إما أن تقيموا شاهدين على ذلك ، وإلا فيميني أني ما كتبتُ ولا أمرت [2] . وقد يُكتَب على لسان الرجل ، ويُضرب على خطه ، ويُنقَش على خاتمه [3] .

فقالوا لتسلِّم لنا مروان . فقال : لا أفعل . ولو سلمه لكان ظالمًا [4]

---

(١) وكيف يكتب إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح وقد أذن له بالمجيء إلى المدينة ويعلم أنه خرج من مصر (الطبري ٥ : ١٢٢) وكان المتسلط على الحكم في الفسطاط محمد ابن أبي حذيفة رئيس البغاة وعميدهم في هذه الجهة . ومضمون الكتاب المزور قد اضطرب رواة أخباره في تعيين مضمونه . وسيأتي الكلام على ذلك كله فيما بعد .

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٣ : ١٨٨) : كل ذي علم بحال عثمان يعلم أنه لم يكن ممن يأمر بقتل محمد بن أبي بكر ولا أمثاله ، ولا عرف منه قط أنه قتل أحداً من هذا الضرب . وقد سعوا في قتله (أي في قتل أمير المؤمنين عثمان) ودخل عليه محمد فيمن دخل ، وهو لا يأمر بقتالهم دفعاً عن نفسه ، فكيف يبتدئ بقتل معصوم الدم .

(٣) وقد حدث مثل ذلك في زمن عمر ، كما رواه البلاذري في فتوح البلدان (ص ٤٤٨ طبع سنة ١٣٥٠) والحافظ ابن حجر في الإصابة (٣ : ٥٢٨ طبع سنة ١٣٢٨) .

(٤) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٣ : ١٨٩) بل عثمان إن كان أمر بقتل محمد بن أبي بكر هو أولى بالطاعة ممن طلب قتل مروان . لأن عثمان إمام هدى وخليفة راشد يجب عليه سياسة رعيته وقتل من لا يدفع شره إلا بقتله . وأما الذين طلبوا قتل مروان فقوم خوارج مفسدون في الأرض ليس لهم قتل أحد ولا إقامة حدّ . وليس مروان أولى بالفتنة والشر من محمد بن أبي بكر ، ولا هو (أي ابن أبي بكر) أشهر بالعلم والدين منه (أي من مروان) . بل أخرج أهل الصحاح عدة أحاديث عن مروان ، وله =

وإنما عليهم أن يطلبوا حقهم عنده على مروان وسواه ، فما ثبت كان هو منفذه وآخذه والممكن لمن يأخذه بالحق . ومع سابقته وفضيلته ومكانته لم يثبت عليه ما يوجب خلعه فضلا عن قتله .

وأمثل ما روى فى قصته أنه – بالقضاء السابق – تألَّبَ عليه قوم لأحقاد اعتقدوها : ممن طلب أمرًا فلم يصل إليه ، وحسد حسادة أظهر داءها ، وحمله على ذلك قلة دين وضعف يقين ، وإيثار العاجلة على الآجلة [1] . وإذا نظرت إليهم دلَّلت صريحُ ذكرهم على دناءة قلوبهم وبطلان أمرهم [2] .

= قول مع أهل الفتيا ، واختلف فى صحبته . ومحمد بن أبى بكر ليس بهذه المنزلة عند الناس ... ومروان من أقران ابن الزبير ... الخ

(١) بمثل هذه الأوصاف وصفهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى الخطبة التى خطبها على الغرائر فى معسكره بالكوفة عندما كان الصحابى الفارس المجاهد القعقاع بن عمرو التميمى يسعى بإتمام المهمة التى جاءت عائشة وطلحة والزبير لإتمامها ، فروى الطبرى (٥ : ١٩٤) أن علياً ذكر إنعام الله على الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم الذى يليه ، ثم الذى يليه . وقال على مسمع من قتلة عثمان – : « ثم حدث هذا الحادث الذى جره على الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا ، حسدوا من أفاء الله عليه على الفضيلة ، وأرادوا رد الأشياء على أدبارها » ثم ذكر أنه راحل غداً إلى البصرة ليجتمع بأم المؤمنين وأخويه طلحة والزبير وقال : « ألا ولا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان رضى الله عنه بشىء فى شىء من أمور الناس ، وليغن السفهاء عنى أنفسهم » .

(٢) أجملنا فى هامش ص ٥٨ أوصاف البارزين ممن خرج على عثمان . أول من اكتشف سريرتهم ، ونظر إلى وجوههم بنور الله فتشاءم منهم ، رجل الإسلام المحدث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صاحب الفراسة التى لا تخطئ . روى الطبرى (٤ : ٨٦) =

كان الغافقيّ المصرى أمير القوم [1] ، وكنانة بن بِشْر التُّجِيبى [2] ،

= أن عمر لما استعرض الجيوش للجهاد سنة ١٤ مرت أمامه قبائل السكون اليمنية مع أول كندة يتقدمهم حصين بن نمير السكونى ومعاوية بن حديج أحد الصحابة الذين فتحوا مصر ثم كان أحد ولاتها ، فاعترضهم عمر ، فإذا فيهم فتيه دُلم سباط ، فأعرض عنهم ثم أعرض ثم أعرض ، حتى قيل له : مالك ولهؤلاء ؟ فقال : إنى عنهم لمتردد ، وما مر بى قوم من العرب أكره إلى منهم . فكان منهم سودان بن حمران وخالد بن ملجم وكلاهما من البغاة على عثمان .

(١) هو الغافقى بن حرب العكى من أبناء وجوه القبائل اليمنية التى نزلت مصر عند الفتح . فلما تظاهر ابن سبأ بالتشيع لعلىّ . ولم يجد مرتعاً لفساده فى الحجاز ولا فى الشام ، اكتفى باصطناع بعض الأعوان فى البصرة والكوفة ، واختار الإقامة فى الفسطاط ، فكان الغافقى هذا من قنائصه ، وقد استمالوه من ناحية تهافته على الرئاسة والجاه . وكان محمد ابن أبى حذيفة بن عتبة الأموى ربيب عثمان الآبق من نعمته هو اليد اليمنى لتنفيذ خطط السبإيين فى مصر ، والغافقى للتصدر والظهور . وفى شوال سنة ٣٥ أعدوا عدتهم للزحف من مصر على المدينة بأربع فرق مجموع رجالها نحو ستمائة ، وعلى كل فرقة رئيس ورئيسهم العام الغافقى هذا ، وتظاهروا بأنهم يقصدون الحج ، وفى المدينة تطورت حركاتهم إلى أن استفحل الأمر ومنعوا عثمان من الصلاة بالناس فى المسجد النبوى فصار الغافقى هو الذى يصلى بالناس (الطبرى ٥ : ١٠٧) ، ثم لما أقنعهم الشيطان بالجرأة على الجناية الكبرى كان الغافقى أحد المجترئين عليه وضربه بحديدة معه وضرب المصحف برجله فاستدار (الطبرى ٥ : ١٣٠) وبعد قتل عثمان بقيت المدينة خمسة أيام وأميرها الغافقى ابن حرب الطبرى (٥ : ١٥٥) .

(٢) وهذا أيضاً كان من قنائص ابن سبأ فى مصر . ولما أرسل عثمان عماراً إلى مصر ليكتشف له أمر الإشاعات وحقيقة الحال ، استماله السبإيون ، وكان كنانة بن بشر هذا =

وسُودان بن حمران [1] ،

= واحداً منهم (الطبرى ٥ : ٩٩) . وعندما جمعوا أوشاب القبائل للزحف على المدينة بحيلة الحج فى شوال سنة ٣٥ انقسموا فى مصر إلى أربع فرق على كل فرقة أمير ، وكان كنانة بن بشر أميراً على إحدى هذه الفرق (الطبرى ٥ : ١٠٣) ثم كان فى طليعة من اقتحم الدار على عثمان وبيده شعلة من نار تنضح بالنفط ، فدخل من دار عمرو بن حزم ودخلت الشعل على أثره (الطبرى ٥ : ١٢٣) . ووصل كنانة التجيبى إلى عثمان فأشعره مشقصاً (أى نصلا طويلا عريضاً) فانتضح الدم على آية ﴿فسيكفيكهم الله﴾ ، (الطبرى ٥ : ١٢٦) وقطع يد نائلة زوجة عثمان ، واتكأ بالسيف على صدر عثمان وقتله (الطبرى ٥ : ١٣١) ، قال محمد بن عمر الواقدى : حدثنى عبد الرحمن بن أبى الزناد المدنى ، عن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى المدنى المتوفى سنة ٤٣ قال : الذى قتل أمير المؤمنين عثمان هو كنانة بن بشر بن عتاب التجيبى (الطبرى ٥ : ١٣٢) . وفيه يقول الوليد بن عقبة بن أبى معيط :

ألا إن خير الخلق بعد ثلاثة قتيل التجيبى الذى جاء من مصر

وكانت عاقبة كنانة هذا وقوعه قتيلا فى الحرب التى نشبت سنة ٣٨ فى محمد بن أبى بكر الصديق نائب على وبين عمرو بن العاص ومن معه من جيش معاوية ابن حديج السكونى (الطبرى ٦ : ٥٨ — ٥٩ و ٦٠) .

(١) السكونى ، من قبائل مراد اليمنية النازلة فى مصر ، وقد تقدم فى هامش ص ١١٢ أنه كان — فى سنة ١٤ — أحد الذين قدموا فى خلافة عمر للجهاد مع جيوش اليمن بقيادة حصين بن نمير ومعاوية بن حديج ، فلما استعرضهم أمير المؤمنين عمر وقع نظره على سودان بن حمران هذا وعلى زميله خالد بن ملجم فتشاءم منهما وكرههما . ولما أرسل أمير المؤمنين عثمان عماراً إلى مصر ليكتشف له مصدر الإشاعات الكاذبة وحقيقة الحال التف السبئيون بعمار وكان سودان بن حمران منهم (الطبرى ٥ : ٩٩) . ولما سير =

وعبد الله بن بُديل بن وَرقاء الخُزاعىّ [1] ،

= السبإيون متطوعة الفتنة من أوشاب القبائل اليمنية التى فى مصر فى شوال سنة ٣٥ نحو المدينة وجعلوهم أربع فرق كان سودان قائد إحدى هذه الفرق (الطبرى ٥ : ١٠٣) ، ولما وصل متطوعة الفتنة إلى المدينة وخرج لهم محمد بن مسلمة ليعظم لهم حق عثمان وما فى رقابهم من البيعة له رآهم ينقادون لأربعة هذا واحد منهم (الطبرى ٥ : ١١٨) . وفى ٥ : ١٣١ من تاريخ الطبرى وصف تسوّر سودان ومعه آخرون من دار عمرو بن حزم إلى دار عثمان . وفى ٥ : ١٣٠ بعض تفاصيل ما وقع من سودان عند ارتكابهم الجناية العظمى ؛ ولما انتهوا من قتل أمير المؤمنين خرج سودان من الدار وهو ينادى : قد قتلنا عثمان بن عفان (الطبرى ٥ : ١٢٣) .

(١) كان أبوه رجلا مسناً من مسلمة الفتح . وورد ذكر عبد الله بن بديل فى الفتنة العظمى على أمير المؤمنين عثمان ، فذكر الطبرى (٥ : ١٢٤ – ١٢٥) أن المغيرة بن الأخنس ابن شريق الثقفى حليف بنى زهرة خرج هو وعبد الله بن الزبير ومروان وغيرهم يدافعون عن أمير المؤمنين على باب الدار ، فحمل عبد الله بن بديل على الأخنس بن شريق وقتله . ونقل الحافظ ابن حجر فى ترجمته فى الإصابة (٢ : ٢٨٠) عن ابن الكلبى أن عبد الله ابن بديل وأخاه عبد الرحمن شهدا صفين مع على وقتلا بها . والظاهر أن أخاه قتل قبله ، فقد نقل ابن حجر (فى الإصابة ٢ : ٢٨١) عن ابن إسحاق فى كتاب الفردوس أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب لما قدم الكوفة – أى مع جيش أهل الشام – لقى عبد الله بن بديل ، فنصح له ابن بديل بأن لا يهرق دمه فى هذه الفتنة ، فاعتذر عبيد الله بن عمر بأنه يطلب بدم أمير المؤمنين عثمان الذى قتل ظلماً ، واعتذر ابن بديل بأنه يطلب بدم أخيه الذى قتل ظلماً . وكيف يكون أخوه قتل ظلماً وقد قتل فى فتنة تطوع للمساهمة فيها مختاراً ، بينما عثمان وهو أمير المؤمنين الذى له حق الولاية عليهم كان مبغياً عليه من =

وحُكَيْم بن جبلة من أهل البصرة [1] ،

= ابن بديل وأمثاله ومن هم أقل منه شأناً ، ومع ذلك لم يقاتل أحداً ، ولم يدافع عن نفسه ، ونهى الناس عن أن يدافعوا عنه أوباشاً قدموا إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم من مختلف البلاد ليرتكبوا الشر والإثم . وأين عثمان الذى ملأت حسناته الأرض وتعطرت بأريجها السماء ، من عبد الرحمن بن بديل الذى لا يكاد يعرف له التاريخ عملا .

(١) حُكيم بن جبلة العبدى من قبائل عبد القيس ، أصلهم من عُمان وسواحل الخليج الفارسى ، وتوطن بالبصرة بعد تمصيرها . وكان حكيم هذا شاباً جريئاً ، وكانت الجيوش الإسلامية التى تزحف نحو الشرق لنشر الدعوة والفتوح تصدر عن البصرة والكوفة ، فكان حكيم بن جبلة يرافق هذه الجيوش ، ويجازف فى بعض حملات الخطر ، كما تفعل كتائب (الكوماندوس) فى هذا العصر . وقد استعملته جيوش أمير المؤمنين عثمان فى إحدى هذه المهمات عند محاولتها استكشاف الهند كما نوهتُ بذلك فى مقالة (طلائع الإسلام فى الهند) . ويؤكد شيوخ سيف بن عمر التميمى (وهو أعرف المؤرخين بتاريخ العراق) على ما نقله عنه الطبرى (٥ : ٩٠) أن حكيم بن جبلة كان إذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعى فى أرض فارس فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد فى الأرض ويصيب ما شاء ثم يرجع . فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان ، فكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر أن احبسه ومن كان مثله فلا يخرجن من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً ، فحبسه (أى منعه من مبارحة البصرة) . فلما قدم عبد الله بن سبأ البصرة نزل على حكيم بن جبلة ، واجتمع إليه نفر ، فنفث فيهم سمومه : فأخرج ابن عامر عبد الله بن سبأ من البصرة ، فأتى الكوفة فأخرج منها ، ومن هناك رحل ابن سبأ إلى الفسطاط ولبث فيه وجعل يكاتبهم ويكاتبونه ويختلف الرجال بينهم . وذكر الطبرى (٥ : ١٠٤) أن السبئية لما قرروا الزحف من الأمصار على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم كان عدد من خرج منهم من البصرة =

ومالك بن الحارث الأشتر [1] فى طائفة هؤلاءِ رؤوسهم ، فناهيك بغيرهم

= كعدد من خرج من مصر ، وهم مقسمون كذلك إلى أربع فرق ، والأمير على إحدى هذه للفرق حكيم بن جبلة ، ونزلوا فى المدينة فى مكان يسمى ذا خشب » ولما حصبوا أمير المؤمنين عثمان وهو يخطب على المنبر النبوى كان حكيم بن جبلة واحداً منهم (الطبرى ٥ : ١٠٦) ولما رحل الثوار عن المدينة فى المرة الأولى بعد مناقشتهم لعثمان وسماعهم دفاعه واقتناعهم ، تخلف فى المدينة الأشتر وحكيم بن جبلة (الطبرى ٥ : ١٢٠) وفى ذلك شبهة قوية بأن لهما دخلا فى افتعال الكتاب المزور على أمير المؤمنين : ولما جاءت عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة وأوشكوا أن يتفاهموا مع أمير المؤمنين علىّ على رد الأمور إلى نصابها كان حكيم بن جبلة هو الذى أنشب القتال لئلا يتم التفاهم والاتفاق (الطبرى ٥ : ١٧٦ وما بعدها) . وارتكب دناءة قتل امرأة من قومه سمعته يشتم أم المؤمنين عائشة فقالت له : يا ابن الخبيثة أنت أولى بذلك . فطعنها فقتلها (الطبرى ٥ : ١٧٦) ، وحينئذ تخلى قومه عن نصرته إلا الأغمار منهم ، وما زال يقاتل حتى قطعت رجله ، ثم قتل وقتل معه كل من كان فى الوقعة من البغاة على عثمان ، ونادى منادى الزبير وطلحة بالبصرة : « ألا من كان فيكم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم » فجيء بهم كما يجاء بالكلاب فقتلوا ، فما أفلت منهم إلا حرقوص بن زهير السعدى من بنى تميم (الطبرى ٥ : ١٨٠) ؛ روى عامر بن حفص عن أشياخه قال : ضرب عنقَ حكيم رجل من الحدّان يقال له ضخيم فمال رأسه فتعلق بجلده فصار وجهه فى قفاه ، الطبرى (٥ : ١٨٢) .

(١) من النخَع ، وهى قبيلة يمنية من قبائل مَذْحِج ، بطل شجاع من أبطال العرب ، كان أول مشاهده الحربية فى اليرموك ، وفيها فقد إحدى عينيه ، ثم شاء الله أن يكون سيفه مسلولا على إخوانه المسلمين فى مواقف الفتنة . ولو أنه لم يكن ممن ألب على أمير =

. . . .

=المؤمنين عثمان ، وكتب الله أن تكون وقائعه الحربية فى نشر دعوة الإسلام وتوسيع الفتوح ، لكان له فى التاريخ شأن آخر . والذى دفعه فى هذا الطريق غلوه فى الدين وحبه للرئاسة والجاه ، ولست أدرى كيف اجتمعا فيه . والأشتر أحد الذين اتخذوا الكوفة دار إقامة لهم ، فلما كانت إمارة الوليد بن عقبة على الكوفة كان الأشتر يشعر فى نفسه بأنه أهل للولاية والرئاسة ، فانزلق مع العائبين على الدولة ورجالها ، من الخليفة الأعلى فى المدينة إلى عامله على الكوفة الوليد بن عقبة . ولما سرق أبو زينب وأبو مورع خاتم الوليد من منزله وذهبا به إلى المدينة فشهدا على الوليد بشرب الخمر كما تقدم فى ص ٩٦ أسرع الأشتر وآخرون معه بالذهاب إلى المدينة لتوسيع دائرة الفتنة ؛ حتى إذا عزل عثمان الوليد بسعيد بن العاص عاد الأشتر مع سعيد إلى الكوفة (الطبرى ٥ : ٦٣) . وكان عثمان قد سن نظام مبادلة الأراضى ، فمن كانت له أرض من الفيء فى مكان بعيد عنه يبادل عليها بأرض قريبة منه بالتراضى بين المتبادلين . وبهذه الطريقة تخلى طلحة بن عبيد الله عن أسهمه فى خيبر واشترى بها من فى أهل المدينة بالعراق أرضاً يقال لها النشاستج (الطبرى ٥ : ٦٤) . وبينما كان سعيد بن العاص فى دار الإمارة بالكوفة والناس عنده أثنى رجل على طلحة بن عبيد الله بالجود ، فقال سعيد بن العاص : لو كان لى مثل أرض النشاستج لأعاشكم الله عيشاً رغداً : فقال له عبد الرحمن بن خنيس الأسدى : وددت لو كان هذا الملطاط لك : والملطاط أرض على جانب الفرات كانت لآل كسرى: فغضب الأشتر وأصحابه وقالوا للأسدى : تتمنى له من سوادنا ؟! فقال والده : ويتمنى لكم أضعافه : فثار الأشتر وصحبه على الأسدى وأبيه وضربوهما فى مجلس الإمارة حتى غشى عليهما . وسمعت بذلك بنو أسد فجاءوا وأحاطوا بالقصر ليدافعوا عن رجليهما ، فتلافى سعيد بن العاص هذه الفتنة بحكمته ، ورد بنى أسد عن الأشتر وجماعته . وكتب أشراف الكوفة وصلحاؤها إلى عثمان فى إخراج هؤلاء المشاغبين من بلدهم ، فأرسلهم إلى =

وقد كانوا أثاروا فتنة ، فأخرجهم عثمان بالاجتهاد ، وصاروا فى

= معاوية فى الشام (الطبرى ٥ : ٨٥ — ٨٦) ثم أخرجهم معاوية فنزلوا جزيرة ابن عمر تحت حكم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، إلى أن تظاهروا بالتوبة ، فذهب الأشتر إلى المدينة ليرفع إلى عثمان توبتهم ، فرضى عنه عثمان وأباح له الذهاب حيث شاء ، فاختار العودة إلى زملائه الذين عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فى الجزيرة (الطبرى ٥ : ٨٧ — ٨٨) . وفى الوقت الذى كان فيه الأشتر يعرض على عثمان توبته وتوبة زملائه وذلك فى سنة ٣٤ كان السبإيون فى مصر يكاتبون أشياعهم فى الكوفة والبصرة بأن يثوروا على أمرائهم واتعدوا يوماً ، فلم يستقم ذلك إلا لجماعة الكوفة ، فثار بهم يزيد بن قيس الأرحبى (الطبرى ٥ : ١٠١) . ولما وصل الأشتر من المدينة إلى إخوانه الذين عند عبدالرحمن ابن خالد بن الوليد وجد بين أيديهم كتاباً من يزيد بن قيس الأرحبى يقول لهم فيه : لا تضعوا كتابى من أيديكم حتى تجيئوا . فتشاءموا من هذه الدعوة وآثروا البقاء ، وخالفهم الأشتر فرجع عاصياً بعد توبته ، والتحق بثوار الكوفة وقد نزلوا فى الجرَعة مكان مشرف على القادسية ، وهناك تلقوا سعيد بن العاص أمير الكوفة وهو عائد من المدينة فردوه ، ولقى الأشتر مولى لسعيد بن العاص فضرب الأشتر عنقه . وبلغ عثمان أنهم يريدون إقالة سعيد بأبى موسى الأشعرى فأجابهم إلى ما طلبوا (الطبرى ٥ : ٩٣ — ٩٤) . ولما فشل موعد سنة ٣٤ واقتصرت الفتنة على ما كان فى الجرعة ، اتعد السبإيون للسنة التى بعدها (سنة ٣٥) ورتبوا أمرهم على التوجه إلى المدينة مع الحجاج كالحجاج ، وكان الأشتر مع خوارج الكوفة رئيساً على فرقة من فرقهم الأربع (الطبرى ٥ : ١٠٤) : وبعد وصولهم إلى المدينة ناقشهم أمير المؤمنين عثمان وبين لهم حجته فى كل ما كانوا يظنونه فيه ، فاقتنع جمهورهم بذلك وحملوا رؤساء الفتنة على الرضا بأجوبة عثمان وارتحلوا من المدينة للمرة الأولى . إلا أن الأشتر وحكيم بن جبلة تخلفا فى المدينة ولم يرتحلا معهم (الطبرى ٥ : =

جماعتهم عند مُعاوية[1]، فذكَّرهم بالله وبالتقوى لفساد الحال وهَتْك حرمة

= ١٢٠) . ولما وصل المصريون إلى مكان يسمى البويب اعترضهم راكب مثل لهم دور حامل الكتاب المزعوم ، وسيأتي الحديث عن ذلك في ص ١٢٦ . ونقل الطبري (٥ : ١٩٤) أن الأشتر كان في مؤتمر السبإيين الذي عقدوه قبيل ارتحال علي من الكوفة إلى البصرة للتفاهم مع طلحة والزبير وعائشة . فقرر السبإيون في مؤتمرهم هذا أن ينشبوا الحرب بين الفريقين قبل أن يصطلحا عليهم . وفي وقعة الجمل اصطرع عبد الله بن الزبير والأشتر واختلفا ضربتين وقال عبد الله بن الزبير كلمته المشهورة : « اقتلوني ومالكاً » فأفلت منه مالك الأشتر ، روى الطبري (٥ : ٢١٧) عن الشعبي أن الناس كانوا لا يعرفون الأشتر باسم مالك ، ولو قال ابن الزبير « اقتلوني والأشتر » وكانت للأشتر ألف ألف نفس ما نجا منها شيء ، وما زال يضطرب في يدي ابن الزبير حتى أفلت . وروى الطبري (٥ : ١٩٤) أن علياً لما فرغ من البيعة بعد وقعة الجمل واستعمل عبد الله ابن عباس على البصرة بلغ الأشتر الخبر باستعمال عليّ بنَ عباس فغضب وقال : « علامَ قتلنا الشيخ إذن ؟ ! اليمن لعبيد الله ، والحجاز لقُثَم ، والبصرة لعبد الله ، والكوفة لعلي ! » ثم دعا بدابته فركب راجعاً . وبلغ ذلك علياً فنادى : الرحيل ! ثم أجد السير فلحق به فلم يُرِه أنه بلغه عنه وقال : « ما هذا السير؟ سبقتنا ! » . وخشي إن ترك والخروج أن يوقع في نفس الناس شراً . ثم اشترك الأشتر في حرب صفين . وولاه عليّ إمارة مصر بعد صرف قيس بن سعد بن عبادة عنها . فلما وصل القلزم (السويس) شرب شربة عسل فمات ، فقيل إنها كانت مسمومة ، وكان ذلك سنة ٣٨ (الإصابة ٣ : ٤٨٢) .

(١) أثاروا الفتنة يوم ضربوا عبد الرحمن بن خنيس الأسدي وأباه وهم في دار الإمارة بالكوفة ، فكتب أشراف الكوفة وصلحاؤها إلى عثمان بإخراجهم =

الأُمة [1] ، حتى قال له زيد صُوحان – فيما يروى [2] – : « كما تكثر علينا بالإمرة وبقريش ، فما زالت العرب تأْكل من قوائم سيوفها وقريش تجار [3] » . فقال له معاوية : « لا أُمَّ لك . أُذكرُك بالإسلام وتذكِّرني بالجاهلية ! قبح الله من كثر على أمير المؤمنين بكم ، فما أنتم ممن ينفع أو يضرّ . أُخرجوا عني [4] » .

= إلى بلد آخر، فسيرهم إلى معاوية في الشام . والذين سُيِّروا إلى معاوية : هم الأشتر النخعي ، وابن الكواء اليشكري ، وصعصعة بن صوحان العبدي ، وأخوه زيد ، وكميل بن زياد النخعي ، وجندب بن زهير الغامدي . وجندب بن كعب الأزدي ، وثابت بن قيس ابن منقع ، وعروة بن الجعد البارقي ، عمرو بن الحمق الخزاعي .

(١) نص كلام معاوية كما رواه الطبري (٥ : ٨٦) : « إنكم قوم من العرب ، لكم أسنان وألسنة ، وقد أدركتم بالإسلام شرفاً ، وغلبتم الأمم ، وحويتم مراتبهم ومواريثهم؛ وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً ، وإن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم . إن أئمتكم لكم إلى اليوم جُنة ، فلا تسدوا عن جنتكم . وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ، ويحتملون منكم المؤونة . والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصبر ، ثم تكونون شركاؤهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم » .

(٢) بل القائل أخوه صعصعة .

(٣) وقال أيضاً لمعاوية : « وأما ما ذكرت من الجُنة ، فإن الجنة إذا اخترقت خُلص إلينا » أي إذا قتلنا ولاتنا صارت الولاية إلينا . ولو أن هذه الكلمة قالها ثائر وهو في قبضة حاكمه – منذ بدأت الحكومات إلى أن تقوم الساعة – ما وجد من حاكمه حلما وسعة صدر كالذي وجده صعصعة من معاوية مع قدرته عليه ؟

(٤) وجواب معاوية على كلام صعصعة في وصف قريش ومكانتها طويل ونفيس ، وقد أورده الطبري (٥ : ٨٦) ..

وأخبره ابن الكوّاء بأهل الفتنة فى كل بلد ومؤامرتهم [1] ، فكتب إلى عثمان يخبره بذلك ، فأرسل إليه بإشخاصهم إليه . فأخرجهم معاوية [2] ، فمرُّوا بعبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد [3] ، فحبسهم ، ووبّخهم، وقال لهم : « اذكروا ما كنتم تذكرون لمعاوية [4] » . وحصرهم ،

---

(١) قال ابن الكواء فيما نقله الحافظ ابن عساكر فى ترجمته من تاريخ دمشق (٧ : ٢٩٩) وأبو جعفر الطبرى فى تاريخه (٥ : ٩٢) يصف لمعاوية أهل الأحداث من أهل الأمصار : « أما أهل الأحداث من أهل المدينة فهم أحرص الأمة على الشر ، وأعجزهم عنه . وأما أهل الأحداث من أهل الكوفة فإنهم أنظر الناس فى صغير ، وأركبه لكبير . وأما أهل الأحداث من أهل البصرة فإنهم يردون جميعاً ويصدرون شتى . وأما أهل الأحداث من أهل مصرفهم أو فى الناس بشر ، وأسرعه ندامة . وأما أهل الأحداث من أهل الشام فأطوع الناس لمرشدهم ، وأعصاه لمغويهم » .

(٢) وكتب فيهم إلى عثمان : « إنه قدم عليّ أقوام ليست لهم عقول ولا أديان ؛ أثقلهم الإسلام ، وأضجرهم العدل . لا يريدون الله بشىء ، ولا يتكلمون بحجة ؛ إنما همهم الفتنة ، وأموال أهل الذمة . والله مبتليهم ومختبرهم ، ثم فاضحهم ومخزيهم ؛ وليسوا بالذين ينكون أحداً إلا مع غيرهم . فإنه سعيداً ومَن قِبله عنهم ، فإنهم ليسوا لأكثر من شغب أو نكير » (الطبرى ٥ : ٨٧) .

(٣) وكان يلى حمصاً لمعاوية . ويتبعه منطقة الجزيرة حران والرقة .

(٤) وذلك بعد قوله لهم : « يا آلة الشيطان ، لا مرحباً بكم ولا أهل . وقد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعد نشاط . خسر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم حتى يحسركم ؛ يا معشر من لا أدرى أعرب أم عجم ، لكى لا تقولوا لى ما يبلغنى أنكم تقولون لمعاوية . أنا ابن خالد بن الوليد ، أنا ابن من عجمته العاجمات ، أنا ابن فاقئ الردة . والله لئن بلغنى يا صعصعة بن ذل أن أحداً ممن معى دق أنفك ثم أمصك لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى » (الطبرى ٥ : ٨٧) .

وأمشاهم بين يديه أذلاء حتى تابوا بعد حول [١] .

وكتب إلى عثمان بخبرهم ، فكتب إليه أن سرِّحْهم إلى . فلما مثلوا بين يديه جدّدوا التوبة ، وحلفوا على صدقهم ، وتبرّأوا مما نسب إليهم[٢] وخيرهم حيث يسيرون ، فاختار كل واحد ما أراد من البلاد : كوفة ، وبصرة ، ومصر ، فأخرجهم . فما استقرّوا فى حيث ما ساروا حتى ثاروا وألّبوا ، حتى انضاف إليهم جمع [٣] .

---

(١) كان كلما ركب أمشاهم ، فإذا مر به (صعصعة) قال : يا ابن الخطيئة ، أعلمت أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر ؟ مالك لا تقول كما كان بلغنى أنك تقول لسعيد و معاوية ؟ فيقول ، ويقولون : نتوب إلى الله ، أقلنا أقالك الله (الطبرى ٥ : ٨٧ — ٨٨)

(٢) الذى قدم إلى أمير المؤمنين عثمان فى المدينة هو الأشتر النخعى وحده ، وهو الذى ناب عن ابنى صوحان وابن الكواء والآخرين فى تجديد التوبة التى أعلنوها من قبل لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد : غير أن الفتنة لم تكن مقتصرة على هؤلاء ، بل كانت جرثومتها فى يد ابن سبأ الذى اختار الإقامة فى الفسطاط ، وكان لها جناح فى البصرة ، وللأشتر وإخوانه بقية فى الكوفة . وبينما كان الأشتر يجدد توبته وتوبة إخوانه فى المدينة كان أعوان ابن سبأ يكاتبون البصرة والكوفة فى موعد يثبون فيه على ولاتهم ، فما رجع الأشتر بتوبته إلى إخوانه الذين كانوا عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد حتى وجد عندهم كتاباً من إخوانهم فى الكوفة يدعونهم للاشتراك فيما اتعدوا له ، فلم يبتهج بهذه الدعوة إلى الفتنة والشر إلا الأشتر الذى لم يكن قد نسى توبته بعد ، فأسرع إلى الكوفة وانضم إلى الفتنة التى تسمى فى التاريخ (يوم الجرَعة) وكان ذلك فى سنة ٣٤

(٣) لما خفق السبإيون فى الوثوب على ولاتهم سنة ٣٤ فى الموعد الذى وقعت فيه =

وساروا إليه [1] : على أَهل مصر عبدُ الرحمٰن بن عُدَيس البلَوِىّ [2] ،

= فتنة يوم الجرعة ، اتعدوا لفتنة أخرى بمقياس أوسع يقوسون بها فى العام التالى (سنة ٣٥) . عند استعداد حجاج بيت الله لقصد الحرمين الشريفين من مصر والبصرة والكوفة ، فيذهب الحجاج للقيام بطاعة الله ، ويذهب دعاة الفتنة للمجاهرة بمعصية الله : وقد نظموا أنفسهم فى اثنتى عشرة فرقة : أربع فرق من مصر ، وأربع من البصرة ، وأربع من الكوفة . وفى كل فرقة نحو مائة وخمسين مفتوناً ، أى من كل بلد نحو ستمائة رجل :

(١) أى إلى أمير المؤمنين عثمان فى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) فارس شاعر ، نزل مصر مع جيش الفتح ، ولم يعرف له فى سيرته شىء انفرد بالامتياز به غير اشتراكه فى هذه الفتنة ، مع دعواه أنه كان من الذين بايعوا تحت الشجرة . وأظنه لم يكن من الرءوس المدبرين للفتنة ، ولكن مدبريها استغلوا ميله إلى الرئاسة ، فاستفادوا من سنه ووجاهته بين فرسان القبائل العربية بمصر ، وولوه القيادة على إحدى الفرق الأربع التى خرجت من مصر إلى المدينة (وقادة الفرق الثلاث الأخرى : كنانة بن بشر التجيبى ، وسودان بن حمران السكونى ، وقتيرة السكونى . ورئيسهم الأعلى الغافقى بن حرب العكى) : وكان عبد الرحمن بن عديس فى مدة الحصار شديد الوطأة على أمير المؤمنين عثمان وأهل بيته . ثم كانت عاقبته القتل فى جبل الجليل بالقرب من حمص ، لقيه أحد الأعراب ، فلما اعترف له بأنه من قتلة عثمان بادر بقتله (معجم البلدان لياقوت : الجليل) : وأخطأ من نسب ابن عديس إلى تجيب ، فإنه بلوى من قضاعة . أما تجيب بنت ثوبان المذحجية فلا ينسب إليها إلا بنو ولديها سعد وعدى ابنى أشرس بن شبيب بن السكون من كندة ، وأين كندة من قضاعة !

وعلى أَهل البصرة حُكَيْم بن جبلة [1] ، وعلى أَهل الكوفة الأَشْتر مالك ابن الحارث النَّخَعِى [2] . فدخلوا المدينة هلال ذى القعدة سنة خمس وثلاثين [3] .

فاستقبلهم عثمان . فقالوا : ادعُ بالمصحف . فدعا به ، فقالوا : افتح التاسعة [4] - يعنى يونس - فقالوا : اقرأْ . فقرأَ حتى انتهى إلى قوله ﴿ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفتَرُون ﴾ قالوا له : قف. قالوا له : أَرأَيت ما حميتَ من الحِمَى ، أَذِنَ الله لك أَم على الله افتريت ؟ قال : امضِهْ ، إنما نزلت فى كذا . وقد حمىٰ عمرُ ، وزادت الإِبل فزدتُ [5] .

---

(١) تقدم التعريف به فى ص ١١٥ - ١١٦ . وهو أمير إحدى الفرق الأربع البصرية (والثلاثة الآخرون : ذريح بن عباد العبدى ، وبشر بن شريح « الحطم » ، وابن المحرش الحنفى . ورئيسهم الأعلى حرقوص بن زهير السعدى) .

(٢) تقدم التعريف به فى ص ١١٦ - ١١٩ . وهو أمير إحدى الفرق الأربع الكوفية (والثلاثة الآخرون : زيد بن صوحان العبدى ، وزياد بن النضر الحارثى ، وعبد الله بن الأصم . ورئيسهم الأعلى عمرو بن الأصم) .

(٣) نزلوا خارج المدينة على ثلاث مراحل منها ، ثم تقدم ثوار البصرة فنزلوا فى ذى خشب ، ونزل ثوار الكوفة الأعوص ، ونزل عامتهم بذى المروة .

(٤) كذا فى المطبوعة الجزائرية (٢ : ١١٧) ولعله خطأ صوابه « السابعة » كما فى تاريخ الطبرى (٥ : ١٠٧) ، ويقال إن ذلك ترتيب سورة يونس فى مصحف ابن مسعود على ما فى الفهرست لابن النديم ص ٣٩ طبع مصر .

(٥) تقدم الكلام على الحمى فى ص ٧٢ - ٧٣ بقدر ما يحتمل هذا المختصر .

فجعلوا يتبعونه هكذا ، وهو ظاهر عليهم . حتّى قال لهم : ماذا يريدون ؟

فأخذوا ميثاقه ، وكتبوا عليه ستًا أو خمساً [1] : أن المنفىّ يُعاد ، والمحرومَ يُعطى ، ويُوفَّر الفئ ، ويعْدل فى القسْم ، ويُسْتعمل ذوو الأمانة والقوّة . فكتبوا ذلك فى كتاب . وأخذ عليهم أن لا يشقّوا عصًا ، ولا يفرّقوا جماعة . ثم رجعوا راضين [2] . وقيل أرسل إليهم عليًّا فاتفقوا على الخمس المذكورة ورجعوا راضين . فبينما هم كذلك [3] ،

---

(١) أى اشترطوا عليه ستة شروط أو خمسة فى المعانى الآتية .

(٢) كان الزاحفون من أمصارهم على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فريقين : رؤساء خادعين على درجات متفاوتة ، ومرءوسين مخدوعين ، وهم الكثرة التى بثت فيها دعايات مغرضة حتى ظنت أن هنالك منفيين مظلومين ومحرومين سلبوا حقهم : . الخ . وقد رأيت فى ص ٥٤ — ٥٥ شهادة أصدق شاهدين فى العراق حينئذ وهما الحسن البصرى وصنوه ابن سيرين عن وفرة الأعطيات والأرزاق وأنواع الخيرات . حتى كان منادى عثمان ينادى بدعوة الناس لها فلا يمنع عنها أحد . ورأيت فى ص ١٠٠ شهادة الإمام الشعبى عن تعميم الرزق والخير حتى إلى الإماء والعبيد . ولما أصغى عامة الثائرين إلى أجوبة عثمان وعرفوا الحقيقة اقتنعوا ورجعوا ، وكان رجوعهم من طريقين مختلفين باختلاف اتجاه أمصارهم ، فالمصريون اتجهوا شمالا لغرب ليسايروا ساحل البحر الأحمر إلى السويس ومصر ، والعراقيون من بصريين وكوفيين اتجهوا شمالا لشرق منجدين ليبلغوا البصرة والكوفة من أرض العراق .

(٣) أى فبينما العراقيون من بصريين وكوفيين فى طريقهم نحو الشرق إلى الشمال ، والمصريون فى طريقهم نحو الغرب إلى الشمال ، وبين الفريقين مراحل بعيدة لأنهما تقدما فى السير والمسافة تزداد بعداً بينهما .

إذا راكب يتعرَّض لهم [1] ، ثم يفارقهم ، مراراً [2] قالوا : مالَكَ ؟ قال : أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر [3] . ففتَّشوه ، فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان عليه خاتمه إلى عامل مصر أن يصلِّبهُم ويقطِّع أيديهم وأرجُلَــــــــهم [4] .

---

(١) أى للمصريين وحدهم .

(٢) ولا يتعرض لهم ثم يفارقهم ويكرر ذلك إلا ليلفت أنظارهم إليه ، ويثير شكوكهم فيه . وهذا ما أراده مستأجرو هذا الرجل لتمثيل هذا الدور ، ومدبرو هذه المكيدة لتجديد الفتنة بعد أن صرفها الله وأراح المسلمين من شرورها . ولا يعقل أن يكون تدبير هذا الدور التمثيلى صادراً عن عثمان أو مروان أو أى إنسان يتصل بهما ، لأنه لا مصلحة لها فى تجديد الفتنة بعد أن صرفها الله ، وإنما المصلحة فى ذلك للدعاة الأولين إلى إحداث هذا الشغب ، ومنهم الأشتر وحكيم بن جبلة اللذان لم يسافرا مع جماعتها إلى بلديهما ، بل تخلفا فى المدينة (الطبرى ٥ : ١٢) ولم يكن لها أي عمل يتخلفان فى المدينة لأجله إلا مثل هذه الخطط والتدابير التى لا يفكران يومئذ فى غيرها .

(٣) وقد صرحوا بأنه عبد الله بن سعد بن أبى سرح (الطبرى ٥ : ١٢٠) ولا يعقل أن يكتب إليه عثمان أو مروان ، لأنه كان عقب حركة الثوار من مصر متوجهين إلى المدينة كتب إلى عثمان يستأذنه بالقدوم عليه (الطبرى ٥ : ١٢٢) ، وخرج بالفعل من مصر نحو العريش وفلسطين وأيلة (العقبة) وتغلب محمد بن أبى حذيفة على الحكم فى مصر ، وهو عدو لله ورسوله ، وخارج على خليفة المسلمين . فكيف يكتب عثمان أو مروان إلى عبد الله بن سعد وعندهما كتابه الذى يستأذن به فى القدوم إلى المدينة ؟

(٤) الأخبار التى جاء فيها أن الراكب غلام عثمان وأن الجمل جمل الصدقة ، وأن عثمان اعترف بذلك ، كلها أخبار مرسلة لا يعرف قائلها . أو مكذوبة أذاعها رواة مطعون فى صدقهم وأمانتهم . ومضمون الكتاب اضطربت الروايات فيه ، ففى بعض =

فأقبلوا حتى قدموا المدينة [1]، فأتوا عليًا فقالوا له : ألم تر إلى عدو الله .

= الروايات « إذا قدم عليك عبد الرحمن بن عديس فاجلده مائة واحدة، رأسه ولحيته وأطل حبسه حتى يأتيك أمرى . وعمرو بن الحمق فافعل به مثل ذلك . وسودان بن حمران مثل ذلك . وعروة بن التباع الليثى مثل ذلك » . وفى رواية « إذا أتاك محمد بن أبى بكر الصديق — وفلان وفلان — فاقتلهم وأبطل كتابهم وقر على عملك حتى يأتيك رأبى » ؛ وفى رواية ثالثة أن مضمون الكتاب أمر عامله بالقتل والقطع والصلب على هؤلاء الثوار . وهذا الاختلاف فى مضمون كتاب واحد مما يزيد الريبة فى أمره .

(١) وأعجب العجب أن قوافل الثوار العراقيين التى كانت متباعدة فى الشرق عن قوافل الثوار المصريين فى الغرب عادتا معاً إلى المدينة فى آن واحد ، أى أن قوافل العراقيين التى كانت بعيدة مراحل متعددة عن قوافل المصريين ولا علم لها بالرواية المسرحية التى مثلت فى البويب رجعت إلى المدينة من الشرق وقت رجوع المصريين من الغرب ووصلتا إلى المدينة معاً كأنما كانوا على ميعاد ! ومعنى هذا أن الذين استأجروا الراكب ليمثل دور حامل الكتاب أمام قوافل المصريين استأجروا راكباً آخر خرج من المدينة معه قاصداً قوافل العراقيين ليخبرهم بأن المصريين اكتشفوا كتاباً بعث به عثمان إلى عبد الله ابن سعد فى مصر بقتل محمد بن أبى بكر . قال الطبرى (٥ : ١٠٥) . فقال لهم على : « كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر ، وقد سرتم مراحل ، ثم طويتم نحونا ؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة ! » (يشير كرم الله وجهه إلى تخلف الأشتر وحكيم فى المدينة ، وأنهما هما اللذان دبرا هذه المسرحية) . قال الثوار العراقيون بلسان رؤسائهم : « فضعوه على ما شئتم . لا حاجة لنا إلى هذا الرجل : ليعتزلنا » وهذا تسليم منهم بأن قصة الكتاب مفتعلة ، وأن الغرض الأول والأخير هو خلع أمير المؤمنين عثمان وسفك دمه الذى عصمه الله بشريعة رسوله صلى الله عليه وسلم .

كتب فينا بكذا ؟ وقد أحل الله دمه ، قالوا له : فقم معنا إليه ، قال : والله لا أقوم معكم ، قالوا : فلم كتبت إلينا ؟ قال : والله ما كتبتُ إليكم ، فنظر بعضُهم إلى بعض [1] ، وخرج علىٌّ من المدينة .

---

(١) الطبرى (٥ : ١٠٨) . وهذا الحوار بين على والثوار مجمع عليه فى كل الروايات. وهو نص قاطع على أن اليد التى زورت الكتاب على عثمان ، وبعثت إلى العراقيين تخبرهم بذلك وتطلب منهم أن يعودوا إلى المدينة ، هى اليد التى زورت على علىّ كتاباً إلى الثوار العراقيين بأن يعودوا . وقد قلنا فى ص ١٢٥ إن الثوار فريقان — خادع ومخدوع — فالذين نظر بعضهم إلى بعض عندما حلف علىّ بأنه لم يكتب إليهم هم من الفريق المخدوع يتعجب كيف لم يكتب على إليهم وقد جاءهم كتابه . ومن ذا الذى يكون قد كتب الكتاب على لسانه إذا لم يكن هو الذى كتبه ؟ وسيأتى فى ص ١٣٦ أن مسروق بن الأجدع الهمدانى — وهو من الأئمة الأعلام المقتدى بهم — عاتب أم المؤمنين عائشة بأنها كتبت إلى الناس تأمرهم بالخروج على عثمان ، فأقسمت له بالله الذى آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون أنها ما كتبت إليهم سواداً فى بياض. قال سليمان بن مهران الأعمش — أحد الأئمة الأعلام الحفاظ — : « فكانوا يرون أنه كتب على لسانها » . أيها المسلمون فى هذا العصر وفى كل عصر ، إن الأيدى المجرمة التى زورت الرسائل الكاذبة على لسان عائشة وعلىّ وطلحة والزبير هى التى رتبت هذا الفساد كله ، وهى التى طبخت الفتنة من أولها إلى آخرها ، وهى التى زورت الرسالة المزعومة على لسان أمير المؤمنين عثمان إلى عامله فى مصر فى الوقت الذى كان يعلم فيه أنه لم يكن له عامل فى مصر ، وقد زورت هذه الرسالة على لسان عثمان بالقلم الذى زورت به رسالة أخرى على لسان على ، كل ذلك ليرتد الثوار إلى المدينة بعد أن اقتنعوا بسلامة موقف خليفتهم ، وأن ما كان قد أشيع عنه كذب كله ، وأنه كان يتصرف فى كل أمر بما كان يراه حقاً وخيراً . ولم يكن صهر =

فانطلقوا إلى عثمان فقالوا له : كتبت فينا كذا . قال لهم إما أن تقيموا اثنين من المسلمين ، أو يمينى – كما تقدَّم ذكره – فلم يقبلوا ذلك منه (١) . ونقضوا عهده (٢) وحصروه .

وقد رُوى أن عثمان جىء إليه بالأَشْتر ، فقال له : يريد القوم منك إما أن تخلع نفسك ، أو تُقِصَّ منها ، أو يقتلوك ! فقال : أما خلعى ، فلا أترك أُمة محمد بعضها على بعض . وأما القصاص ، فصاحباى قبلى لم يُقصّا من أنفسهما ، ولا يحتمل ذلك بدنى (٣)

وروى أن رجلا قال له : نذرتُ دمك . قال : خذ جُبَّتى . فشرط فيها شرطة بالسيف أراق منه دمه ، ثم خرج الرجل وركب راحلته وانصرف فى الحين (٤) .

= رسول الله صلى الله عليه وسلم المبشر منه بالشهادة والجنة هو المجنى عليه وحده بهذه المؤامرة السبإية الفاجرة ، بل الإسلام نفسه كان مجنياً عليه قبل ذلك . والأجيال الإسلامية التى تلقت تاريخ ماضيها الطاهر الناصع مشوَّهاً ومحرَّفاً هى كذلك ممن جنى عليهم ذلك اليهودى الخبيث ، والمنقادون له بخطام الأهواء والشهوات .

(١) لأنهم ما جاءوا ليقبلوا حقاً أو يرجعوا إلى شرع ، وإنما جاءوا ليخلعوه أو يسفكوه دمه .

(٢) الذى تقدم فى ص ١٢٥ أنهم قطعوه على أنفسهم بأن لا يشقوا عصاً ولا يفرقوا جماعة .

(٣) هذا الخبر فى تاريخ الطبرى (٥ : ١١٧ – ١١٨) ، وفى البداية والنهاية (٧ : ١٨٤) ، وفى أنساب الأشراف للبلاذرى (٥ : ٩٢) .

(٤) هذا الخبر فى كتاب (التمهيد) للإمام أبى بكر الباقلانى ص ٢١٦ . وأعجب من ذلك ما رواه الطبرى (٥ : ١٣٧ – ١٣٨) أن عمير بن ضابئ البرجمى وكميل =

ولقد دخل عليه ابنُ عمر ، فقال [له عثمان] : انظر ما يقول هؤلاء ، يقولون : اخلع نفسك أو نقتلك ، قال له [ابنُ عمر] : أمخلدٌ أنت فى الدنيا ؟ قال : لا ، قال : هل يزيدون على أن يقتلوك ؟ قال : لا . قال : هل يملكون لك جنّة أو نارًا ؟ قال : لا . قال : فلا تخلعْ قميص الله عنك ، فتكون سنّة ، كلما كره قومٌ خليفتهم خلعوه أو قتلوه [1] .

= ابن زياد النخعى حضرا إلى المدينة ليغتالا عثمان تنفيذاً لقرار اتخذوه فى الكوفة مع بقية عصابتهم ، فلما وصلا إلى المدينة نكل عمير ، وترصد كميل للخليفة حتى مر به ، فلما التقيا ارتاب منه عثمان ، ووجأ وجهه فوقع على إسته ، فقال لعثمان : أوجعتنى يا أمير المؤمنين ، قال عثمان : أو لست بفاتك ؟! قال : لا والله الذى لا إله إلا هو . فاجتمع الناس وقالوا : نفتشه يا أمير المؤمنين فقال : لا . قد رزق الله العافية ، ولا أشتهى أن أطلع منه على غير ما قال . ثم قال لكميل : « إن كان كما قلتَ فاقتدْ منى (وجثا) فوالله ما حسبتك إلّا تريدنى » وقال : « إن كنت صادقاً فأجزل الله ، وإن كنت كاذباً فأذل الله » وقعد له على قدميه وقال « دونك ! » فقال كميل : « تركتُ » . أيها القارئ الكريم ، إن هذا الموقف ليس موقف خليفة فضلا عمن دونه ، بل هو موقف المتخلقين بأخلاق الأنبياء . على أن الله يمهل ولا يهمل . فقد جاء الحجاج بعد أربعين سنة فقتل ضابئاً وقتل كميلا بما أراداه فى هذا الحادث من الفتك برجل خلق قلبه من رحمة الله ، و « إن الله يملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته » .

(١) أورد البلاذرى هذا الخبر فى أنساب الأشراف (٥ : ٧٦) من حديث نافع عن ابن عمر . وقبل أن يفتى ابن عمر لخليفته بذلك ويدعوه إلى هذه التضحية النبيلة ، كان عثمان على بينة من ذلك ونور من الله ، فقد أخرج بن ماجه فى مقدمة سننه (رقم ١١٢ الباب ١١ ج ١ ص ٤١) من حديث النعمان بن بشير عن أم المؤمنين عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعثمان : «يا عثمان إن ولاك الله هذا الأمر يوماً فأرادك المنافقون =

وقد أشرف عليهم عثمان ، واحتجَّ عليهم بالحديث الصحيح فى بنيان المسجد وحفر بئر رُومَة ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم حين رجف بهم أُحُد . وأقرُّوا له به فى أشياء ذكرها [1] .

وقد ثبت أن عثمان أشرف عليهم وقال : أفيكم ابنا مَحْدوج ؟ أنشِدكما الله ألستما تعلمان أن عمر قال : إن ربيعة فاجر أو غادر ، وإنى والله لا أجعل فرائضهم وفرائض قوم جاءُوا من مسيرة شهر ، وإنما مهر أحدهم عند طبيبه . وإنى زدتهم فى غزاة واحدة خمسمائة ، حتى ألحقتهم بهم ؟ قالوا : بلى .

قال : أذكركما الله ألستما تعلمان أنكما أتيتُمانى فقلتما ، إن كِنْدة أكلةُ رأس ، وإن ربيعةَ هى الرأس ، وإن الأشعث بن قيْس قد أكلهم . فنزعتُه واستعملتُكما ؟ قالا : بلى .

قال ، اللهم إنهم كفروا معروفى ، وبدَّلوا نعمتى ، فلا تُرْضِهم عن

= أن تخلع قميصك الذى قمصك الله فلاتخلعه» يقول ذلك ثلاث مرات : وفى مسند الإمام أحمد (ج ٦ الطبعة الأولى : ص ٧٥ و ٨٦ و ١١٤ و ١٤٩) حديث عائشة هذا بألفاظ مختلفة يرويه عنها ابن أختها عروة بن الزبير والنعمان بن بشير وغيرهما .

(١) انظر فى مسند الإمام أحمد (١ : ٥٩ الطبعة الأولى رقم ٤٢٠ الطبعة الثانية) حديث أبى سلمة بن عبد الرحمن . وسنن النسائى (٢ : ١٢٤ — ١٢٥) وجامع الترمذى (٤ : ٣١٩ — ٣٢٠) * وفى مسند أحمد (١ : ٧٠ الطبعة الأولى رقم ٥١١ الطبعة الثانية) من حديث الأحنف بن قيس التيمى . وسنن النسائى مطولا ومختصراً (٢ : ٦٥ — ٦٦ و ١٢٣ — ١٢٤) * وفى تاريخ الطبرى (٥ : ٢٢٥) من حديث أبى سعيد مولى أبى أسيد الأنصارى .

إمامهم ولا تُرْضِ إماماً عنهم .

وقد رَوى عبدُ الله بن عامر بن ربيعة قال : كنتُ مع عثمان فى الدار، فقال : أَعْزِمُ على كل من رأى أن عليه سمعًا وطاعة إلا كفَّ يده وسلاحه [1] . ثم قال : قم يا ابنَ عمر - وعلى ابنِ عمر سيفُه متقلدا - فأَخبِرْ به الناس [2] .

---

(١) الذى يدل عليه مجموع الأخبار عن موقف عثمان من أمر الدفاع عنه أو الاستسلام للأقدار ، هو أنه كان يكره الفتنة ، ويتقى الله فى دماء المسلمين . إلا أنه صار فى آخر الأمر يودُّ لو كانت لديه قوة راجحة يهابها البغاة ، فيرتدعون عن بغيهم ، بلا حاجة إلى استعمال السلاح للوصول إلى هذه النتيجة ، وقبل أن تبلغ الأمور مبلغها عرض عليه معاوية أن يرسل إليه قوة من جند الشام تكون رهن إشارته ، فأبى أن يضيق على أهل دار الهجرة بجند يساكنهم (الطبرى ٥ : ١٠١) . وكان لا يظن أن الجرأة تبلغ بفريق من إخوانه المسلمين إلى أن يتكالبوا على دم أول مهاجر إلى الله فى سبيل دينه . فلما تذاءب عليه البغاة واعتقد أن الدفاع عنه تسفك فيه الدماء جزافاً ، عزم على كل من له عليهم سمع وطاعة أن يكفوا أيديهم وأسلحتهم عن مزالق العنف . والأخبار بذلك مستفيضة فى مصادر أوليائه وشانئيه . على أنه لو ظهرت فى الميدان قوة منظمة ذات هيبة تقف فى وجوه البغاة ، وتضع حداً لغطرستهم ، لارتاح عثمان لذلك وسر به ، مع ما هو مطمئن إليه من أنه لن يموت إلا شهيداً .

(٢) فى البداية والنهاية (٧ : ١٨٢) عن (مغازى ابن عقبة) أن ابن عمر لم يلبس سلاحه إلا يوم الدار فى خلافة عثمان ، ويوم أراد نجدة الحرورى أن يدخل المدينة مع الخوارج أيام عبد الله بن الزبير .

فخرج ابن عمر و [الحسن بن] عليّ . ودخلوا فقتلوه [1] .

وجاء زيدُ بن ثابت فقال له : إن هؤلاء الأنصار بالباب يقولون : إن شئتَ كنا أنصار الله [مرّتين] . قال [عثمان] لا حاجة لى فى ذلك ، كُفُّوا [2] .

---

(١) فى تاريخ الطبرى (٥ : ١٢٩) : كان آخر من خرج عبد الله بن الزبير ، أمره عثمان أن يصير إلى أبيه بوصيته التى كتبها استعداداً للموت ، وأمره أن يأتى أهل الدار (أى المدافعين عنه فى ساحة القصر) فيأمرهم بالانصراف إلى منازلهم . فخرج عبد الله بن الزبير آخرهم ، فما زال يدعى بها ويحدث الناس عن عثمان بآخر ما مات عليه . وإنما أوصى عثمان إلى الزبير لأن الزبير كان محل الثقة من كبار الصحابة : روى الحافظ ابن عساكر (٥ : ٣٦٢) أن سبعة من الصحابة أوصوا به : عثمان ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وابن مسعود ، والمقداد ، ومطيع بن الأسود ، وأبو العاص بن الربيع . فكان ينفق على أيتامهم من ماله ، ويحفظ لهم أموالهم .

(٢) أورده البلاذرى فى أنساب الأشراف (٥ : ٧٣) من حديث ابن سيرين . وأخرج الحافظ ابن عساكر عن مؤرخ الصدر الأول موسى بن عقبة الأسدى (الذى قال فيه الإمام مالك : عليكم بمغازى ابن عقبة ، فإنه ثقة ، وهى أصح المغازى) أن أبا حبيبة الطائى (وهو ممن يروى عنهم أبو داود والنسائى والترمذى) قال : لما حصر عثمان جاء بنو عمرو بن عوف إلى الزبير فقالوا يا أبا عبد الله نحن نأتيك ثم نصير إلى ما تأمرنا به (أى من الدفاع عن أمير المؤمنين) قال أبو حبيبة : فأرسلنى الزبير إلى عثمان فقال : أقرئه السلام وقل «يقول لك أخوك: إن بنى عمرو بن عوف جاءونى ووعدونى أن يأتونى ثم يصيروا إلى ما أمرتهم به . فإن شئتَ أن آتيك فأكون رجلا من أهل الدار يصيبنى ما يصيب أحدهم ، فعلت . وإن شئتَ انتظرتُ ميعاد بنى عمرو فأدفع بهم عنك ، =

وقال له أبو هريرة : اليومَ طاب الضربُ معك . قال : عزمتُ عليك لَتخرُجنّ (1) .

وكان الحسنُ بن على آخرَ من خرج من عنده ، فإنه جاء الحسنُ والحسين وابنُ عمر وابنُ الزبير ومروانُ ، فعزم عليهم فى وضع سلاحهم ، وخروجهم ، ولزُوم بيوتهم .

فقال له ابنُ الزبير ومروان : نحن نعزم على أنفسنا لا نبرح .

= فعلت» قال أبو حبيبة : فدخلت عليه — أى على عثمان — فوجدته على كرسى ذى ظهر ، ووجدت رياطاً مطروحة ومراكن مغلوة ، ووجدت فى الدار الحسن بن على ، وابن عمر ، وأبا هريرة ، وسعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، وعبد الله بن الزبير ، فأبلغت عثمان رسالة الزبير ، فقال : « الله أكبر ، الحمد الله الذى عصم أخى . قل له : إنك إن تأت الدار تكن رجلا من المهاجرين ، حرمتك حرمة رجل ، وغناؤك غناء رجل . ولكن انتظر ميعاد بنى عمرو بن عوف فعسى الله أن يدفع بك » . قال : فقام أبو هريرة فقال : أيها الناس ، لقد سمعت أذناى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « تكون بعدى فتن وأحداث » فقلت : وأين النجاء منها يا رسول الله ؟ قال : « الأمير وحزبه » وأشار إلى عثمان . فقال القوم : ائذن لنا فلنقاتل ، فقد أمكنتنا البصائر . فقال [عثمان] : « عزمت على أحد كانت لى عليه طاعة ألا يقاتل » . قال : فبادر — أى سبق — الذين قتلوا عثمان ميعادَ بنى عمرو بن عوف فقتلوه (وانظر الخبر مختصراً فى كتاب « نسب قريش » للزبيرى ص ١٠٣) .

وبنو عمرو بن عوف قبيل كبير من الخزرج ، أحد فرعى الأنصار ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم عند وصوله إلى المدينة مهاجراً من مكة نزل ضيفاً عليهم ثلاثة أيام ثم انتقل إلى بنى النجار .

(1) هذا الخبر فى تاريخ الطبرى ٥ : ١٢٩) .

ففتح عثمان الباب ودخلوا عليه فى أصحِّ الأقوال [١] .

فقتله المرءُ الأسود [٢] .

وقيل : أخذ ابنُ أبى بكر بلحيته ، وذبحه كنانة [٣] ، وقيل : رجلٌ من أهل مصر يقال له حمار [٤] ، فسقطتْ قطرة من دمِه على

---

(١) أصل هذا الخبر فى تاريخ الطبرى (٥ : ١٢٨) عن سيف بن عمر التميمى عن أشياخه .

(٢) كذا فى مطبوعة الجزائر . والذى فى تاريخ الطبرى (٥ : ١٢٥) « الموت الأسود » ، والأصول التى طبع عليها تاريخ الطبرى أصح من الأصول التى طبع عليها كتابنا فى الجزائر ، ومن الثابت أن ابن سبأ كان من ثوار مصر عند مجيئهم من الفسطاط إلى المدينة (الطبرى ٥ : ١٠٣ — ١٠٤) وهو فى كل الأدوار التى مثلها كان شديد الحرص على أن يعمل من وراء ستار ، فلعل « الموت الأسود » اسم مستعار له أراد أن يُرمز به إليه ليتمكن من مواصلة دسائسه لهدم الإسلام .

(٣) هو كنانة بن بشر بن عتاب التجيبى قائد إحدى الفرق المصرية الأربع وكان قبل ذلك أحد الذين التفوا بعمار بن ياسر فى الفسطاط ليجعلوه سبإياً ، وهو أول داخل إلى دار عثمان بالشعلة من النفط ليحرق باب الدار ، وهو الذى اخترط السيف ليضعه فى بطن أمير المؤمنين ، فوقته زوجته نائلة فقطع يدها واتكأ بالسيف عليه فى صدره ، وكانت عاقبة التجيبى القتل مخذولا فى المعركة التى نشبت فى مصر بين محمد بن أبى بكر وعمرو بن العاص سنة ٣٨

وقد تحرف « كنانة » فى مطبوعة الجزائر برسم « رومان » ومطبوعة الجزائر كثيرة التحريف .

(٤) لم أر هذا الاسم فيمن اجترأوا على ارتكاب الجريمة العظمى ، ولعل النساخ حرفوا اسم سودان بن « حمران » ، أو اسم عمرو بن « الحمق » .

المصحف على قوله ﴿ فسيكْفِيكهُمُ ﴾ فإنها ما حُكَّت إلى الان .

ورُوى أن عائشه رضى الله عنها قالت : « غضبتُ لكم من السَّوط ، ولا أغضبُ لعثمان من السيف !؟ استعتبتُموه حتى إذا تركتُموه كالقنْد المصفَّى ، ومُصْتُموه موْص الإناءِ ، وتركتموه كالثوب المنقَّى من الدنس ثم قتلتموه [1] » قال مسروق [2] : فقلت لها : « عملُكِ ، كتبتِ إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه » . فقالت عائشة : « والذى آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبتُ إليهم سوادًا فى بياض » . قال الأعمش : فكانوا يرون أنه كُتِب على لسانها [3] .

وقد رُوى أنه ما قتله أحد إلا أعلاجٌ من أهل مصر .

قال القاضى أبو بكر (رضى الله عنه) : فهذا أشبه ما رُوى فى الباب وبه يتبين — وأصلُ المسألة سلوكُ سبيل الحق — أن أحدًا من الصحابة لم يسع عليه ، ولا قعد عنه . ولو استنصر ما غلب ألف أو أربعة آلاف

(١) قالت ذلك أول مرة عند وصولها إلى المدينة عائدة من الحج ، فاجتمع إليها للناس وخطبت فيهم خطبة بليغة وردت هذه الجملة فى آخرها (الطبرى ٥ : ١٦٥ — ١٦٦) . والموص : الغسل بالأصابع . والقند : عسل قصب السكر إذا جمد .

(٢) هو من أئمة التابعين المقتدى بهم ، توفى سنة ٦٣ . وهو الذى قال لعمار بالكوفة قبل يوم الجمل : يا أبا اليقظان علام قتلتم عثمان ؟ قال : على شتم أعراضنا وضرب أبشارنا. فقال مسروق : والله ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لكان خيراً للصابرين (الطبرى ٥ : ١٨٧) .

(٣) كما كتب على لسان على ولسان عثمان .

غرباءُ عشرين أَلْفًا بلديين أَو أَكثر من ذلك ، ولكنَّه أَلْقىٰ بيده إِلى المصيبة [1] .

وقد اختلف العلماءُ فيمن نزل به مثلُها : هل يُلقِى بيده ، أَو يسْتنصِر [2] ؟ وأَجاز بعضهم أَن يسْتسلم ويُلقِى بيده اقتداءً بفعل عثمان ، وبتوصية النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فى الفتنة [3]

قال القاضى أَبو بكر (رضى الله عنه) : ولقد حكمتُ بين الناس فأَلزمتُهم الصلاة ، والأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى لم يك يُرى فى الأَرض منكر ، واشتد الخَطْب على أَهل الغَصْب ، وعظُم على الفسقة

---

(١) لأنه اختار بذلك أهون الشرين فآثر التضحية بنفسه على توسيع دائرة الفتنة وسفك دماء المسلمين ، وعثمان افتدى دماء أمته بدمه مختاراً فما أحسن الكثيرون منا جزاءه ، وإن أوربا وأمريكا تعبدان بشراً بزعم الفداء ولم يكن فيه مختاراً .

(٢) من سياسة الإسلام أن يختار المرء فى كل حالة أقلها شراً وأخفها ضرراً ، فإذا كانت للخير قوة غالبة تقمع الشر وتضيق دائرته فالإسلام يهدى إلى قمع الشر بقوة الخير بلا تردد . وإن لم يكن للخير قوة غالبة تقمع الشر وتضيق دائرته — كما كانت الحال فى موقف أمير المؤمنين عثمان من البغاة عليه — فمصلحة الإسلام فى مثل ما جنح إليه عثمان أعلى الله مقامه فى دار الخلود .

(٣) وهو قوله صلى الله عليه وسلم على ما رواه الإمام البخارى فى كتاب المناقب (ك ٦١ ب ٢٥ — ج ٤ ص ١٧٧) وفى كتاب الفتن (ك ٩٢ ب ٩ — ج ٨ ص ٩٢) من صحيحه عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشى ، والماشى فيها خير من الساعى ، ومن يشرف لها تستشرفه ، ومن وجد ملجأ أو معاذاً فليعُذْ به » . وأعلن أبوموسى الأشعرى فى الكوفة قبل وقعة الجمل أنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم (الطبرى ٥ : ١٨٨)

الكَرْب ، فتألّبوا وألّبوا ، وثاروا إلىّ ، فاستسلمتُ لأمر الله ، وأمرتُ كل من حولى ألا يدفعوا عن دارِى ، وخرجتُ على السطوح بنفسى ، فعاثوا على ، وأمسيتُ سليب الدار ، ولولا ما سبق من حُسْن المقدار لكنت قتيلَ الدار [١] .

وكان الذى حملنى على ذلك ثلاثة أُمور : أَحدُها وصاية النبى صلى الله عليه وسلم المتقدّمة [٢] ، والثانى الاقتداءُ بعثمان ، والثالث سوءُ الأُحْدُوثة التى فرَّ منها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المؤيَّد بالوحى [٣] . فإن من غاب عنِّى ، بل من حضر من الحسدة معى ، خِفتُ أن يقول : إن الناس مشوا إليه مستغيثين به فأَراق دماءَهم .

وأَمرُ عثمان كلُّه سُنةٌ ماضية ، وسيرةٌ راضية . فإنه تحقق أنه مقتول بخبر الصادق له بذلك ، وأنه بشّره بالجنة على بلوىٰ تصيبه ، وأنه شهيد [٤] .

وروى أنه قال له فى المنام : إن شئت نصرتُك ، أو تُفْطر عندنا الليلة [٥] .

---

(١) أشرنا إلى ظروف هذا الحادث فى ترجمة المؤلف أول هذا الكتاب (ص ٢٦)

(٢) وقد نقلناها آنفاً من حديث أبى هريرة فى صحيح البخارى ، ومن حديث أبى موسى فى الكوفة قبل وقعة الجمل .

(٣) وذلك لما قال ابن سلول فى غزوة بنى المصطلق « إذا رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلّ » ، فأراد عمر أن يقتله فمنعه النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » .

(٤) تقدم بيان ذلك فى ص ٥٥ و ٥٦

(٥) هذه الرواية لابن أبى الدنيا من حديث عبد الله بن سلام فى البداية والنهاية =

وقد انتدبَتِ المَرَدةُ والجهلةُ إلى أن يقولوا : إن كلَّ فاضل من الصحابة كان عليه مُشاغبًا مُؤلِّبا ، وبما جرى عليه راضيًا . واخترعوا كتابًا فيه فصاحة وأمثال كتب عثمانُ به مستصرِخا إلى عليّ . وذلك كله مصنوع ليُوغِروا قلوب المسلمين على السلف الماضين والخلفاء الراشدين[1]

قال القاضي أبو بكر : فالذى يُنخل من ذلك أنَّ عثمان مظلوم ،

= (٧ : ١٨٢ – ١٨٣) ، ومن طريق آخر عنه فى أنساب الأشراف للبلاذرى (٥ : ٨٢)؛ وفى مسند أحمد (١ : ٧٢ الطبعة الأولى ، رقم ٥٢٦ الثانية) من حديث مسلم أبى سعيد مولى عثمان قال . إن عثمان أعتق عشرين مملوكاً ، ودعا بسراويل فشدها عليه ولم يلبسها فى جاهلية ولا إسلام ، وقال . إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم البارحة فى المنام ورأيت أبا بكر وعمر ، وإنهم قالوا لى : « اصبر ، فإنك تفطر عندنا القابلة . ثم دعا بمصحف فنشره بين يديه ، فقتل وهو بين يديه » . وروى الإمام أحمد هذا الحديث عن نائلة زوجة عثمان (١ : ٧٣ رقم ٥٣٦) بقريب من هذا . وفى البداية والنهاية (٧ : ١٨٢) من حديث أيوب السختيانى عن نافع عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، ومن طرق أخرى متعددة . وانظر تاريخ الطبرى (٥ : ١٢٥)

(١) هذه الكتب المصنوعة والأخبار المبالغ فيها أو المكذوبة شحنت بها أسفار الأخبار وكتب الأدب . ولتمييز الحق فيها من الباطل طريقان : أحدهما طريق أهل الحديث فى أن لا يقبلوا إلا الأخبار المسندة إلى أشخاص بأسمائهم ثم يستعرضون أحوال هؤلاء الأشخاص فيقبلون من صادقهم ، ويضربون وجه الكذاب بكذبه ؛ والطريق الثانى طريق علماء التاريخ وهو أن يعرضوا كل خبر على سجايا من يخبر عنه ، ويقارنوه بسيرته ، وهل هو مما ينتظر وقوعه ممن نسب إليه ويلائم المعروف من سابقته وأخلاقه أم لا . وتمحيص تاريخنا يحتاج إلى هاتين الطريقتين معاً يقوم بهما علماء راسخون فيهما .

محجوجٌ بغير حجة [1] . وأن الصحابة بُرَآءُ من دمه بأَجمعهم ، لأَنهم أتوا إرادته وسلَّموا له رأيَه فى إسلام نفسه .

ولقد ثبت – زائدًا إلى ماتقدَّم عنهم – أنَّ عبدِ الله بن الزبير قال لعثمان : إنَّا معك فى الدار عصابةٌ مستبصرة ينصر الله بأَقل منهم ، فائْذن لنا . فقال : أُذكِّر الله رجلا أراق لى دمه (أو قال دما [2]) .

وقال سَليط بن أَبى سليط : نهانا عثمان عن قتالهم ، فلو أَذِن لنا لضربناهم حتى نُخرِجَهم عن أقطارها [3]

---

(1) كما تبين فى هذا الكتاب بأسانيده القاطعة . وانظر كتاب (التمهيد) للإمام أبى بكر الباقلانى (ص ٢٢٠ – ٢٢٧) .

(2) ولما بدأ حجاج بيت الله يعودون إلى المدينة كان أول المسرعين منهم المغيرة ابن الأخنس بن شريق الثقفى الصحابى ، فأدرك عثمان قبل أن يقتل ، وشهد المناوشة على باب دار عثمان ، فجلس على الباب من داخل وقال : ما عذرنا عند الله إن تركناك ونحن نستطيع ألا ندعهم حتى نموت . وكان أول من برز للبغاة المهاجمين وقاتل حتى قتل . وخرج معه لقتالهم الحسن بن على بن أبى طالب وهو يقول فى تسفيه عمل البغاة :

لا دينهم دينى ولا أنا منهم حتى أسير إلى طمار شمام

أى إلى جبل أشم لا ينجو من سقط منه . وخرج معهما محمد بن طلحة بن عبيد الله – وكان يعرف بالسجاد لكثرة عبادته – وهو يقول :

أنا ابن من حامى عليه بأحُد ورد أحزاباً على رغم معدّ

انظر تاريخ الطبرى (٥ : ١٢٨ – ١٢٩) .

(3) رواه الحافظ ابن عبد البر فى الاستيعاب (٢ : ١١٨ – ١١٩ هامش الإصابة) من حديث ابن سيرين عن سليط . وأورده الحافظ ابن حجر مختصراً فى الإصابة (٢ : ٧٢)

وقال عبدُ الله بن عامر بن ربيعة : كنتُ مع عثمان فى الدار فقال : أعزمُ على كل من رأى أن لى عليه سمعا وطاعة إلا كفَّ يدَه وسلاحه ، فإن أفضلكم غَناءً من كفَّ يدَه وسلاحه [1] .

وثبت أن الحسن والحسين وابنَ الزبير وابنَ عمر ومروان كلهم شاكٌّ فى السلاح حتى دخلوا الدار ، فقال عثمان : أعزمُ عليكم لما رجعتم فوضعتم أسلحتكم ولزمتم بيوتكم [2] .

---

(١) وفى تاريخ الطبرى (٥ : ١٢٧) أن عثمان دعا عبد الله بن عباس فقال له : اذهب فأنت على الموسم (أى على إمارة الحج) فقال ابن عباس : « والله يا أمير المؤمنين لجهاد هؤلاء أحبُّ إلىّ من الحج » . فأقسم عليه لينطلقن ، فانطلق ابن عباس على الموسم تلك السنة .

(٢) فى البداية والنهاية (٧ : ١٨١) : كان الحصار مستمراً من أواخر ذى القعدة إلى يوم الجمعة الثامن عشر من ذى الحجة . فلما كان قبل ذلك بيوم ، قال عثمان للذين عنده فى الدار من المهاجرين والأنصار — وكانوا قريباً من سبعمائة ، فيهم عبد الله بن عمر وعبد الله ابن الزبير والحسن والحسين ومروان وأبو هريرة وخلق من مواليه ولو تركهم لمنعوه — : « أقسم على من لى عليه حق أن يكفَّ يده وأن ينطلق إلى منزله » وقال لرقيقه « من أغمد سيفه فهو حر » ، فبرد القتال من داخل ، وحمى من خارج . حتى كانت الساعة التى تم فيها للشيطان ما سعى له وتمناه فانتدب للخليفة رجل من البغاة فدخل عليه البيت فقال : اخلعها وندعك ، فقال : « ويحك » والله ما كشفت امرأة فى جاهلية ولا إسلام ، ولا تغنيت ، ولا تمنيت ، ولا وضعت يمينى على عورتى مذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولست خالعاً قميصاً كسانيه الله عز وجل . وأنا على مكانى حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاء (الطبرى ٥ : ١٣٠) . ويكفى لبيان ما كان لهذه الفاجعة الكبرى من الأثر فى النفوس ما نقله البلاذرى فى أنساب الأشراف (٥ : ١٠٣) عن المدائنى عن سلمة ابن عثمان عن علىّ بن زيد عن الحسن قال : دخل علىّ يوماً على بناته وهن يمسحن عيونهن ، فقال : ما لكنّ تبكين ؟ قلن : تبكى على عثمان . فبكى وقال : ابكين ...

فلما قَضىٰ الله من أمره ما قضىٰ ، ومضىٰ فى قَدره ما مضىٰ ، عُلم أن الحقَّ لا يترك الناس سُدًى ، وأن الخلق بعده مفتقرون إلى خليفة مفروض عليهم النظر فيه . ولم يكن بعد الثلاثة كالرابع قدرا وعلمًا وتُقى ودِينًا ، فانعقدتْ له البيعة . ولولا الإسراع بعقدِ البيعة لعلىٍّ لجرى على من بها من الأوباش مالا يُرْقع خرْقه. ولكن عزم عليه المهاجرون والأنصار ، ورأى ذلك فرضًا عليه ، فانقاد إليه [1] .

---

(١) فى تاريخ الطبرى (٥ : ١٥٥) عن سيف بن عمر التميمى عن أشياخه قالوا : بقيت المدينة بعد قتل عثمان خمسة أيام وأميرها الغافقى بن حرب يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه : يأتى المصريون علياً فيختبىء منهم ويلوذ بحيطان المدينة (أى يختبئ فى بساتينها) فإذا لقوه باعدهم وتبرأ منهم ومن مقالتهم مرة بعد مرة . ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه . فأرسلوا إليه حيث هو رسلا فباعدهم وتبرأ من مقالتهم . ويطلب البصريون طلحة ، فإذا لقيهم باعدهم وتبرأ من مقالهم .. فبعثوا إلى سعد بن أبى وقاص وقالوا : إنك من أهل الشورى فرأينا فيك مجتمع ، فأقدم نبايعك . فبعث إليهم : إنى وابن عمر خرجنا منها ، فلا حاجة لى فيها . ثم إنهم أتوا ابن عمر عبد الله فقالوا : أنتَ ابن عمر فقم بهذا الأمر . فقال : إن لهذا الأمر انتقاماً ، والله لا أتعرَّض له فالتمسوا غيرى . وأخرج الطبرى (٥ : ١٥٦) عن الشعبى قال : أتى الناس علياً وهو فى سوق المدينة وقالوا له : ابسط يدك نبايعك . قال : لا تعجلوا ، فإن عمر كان رجلا مباركاً ، وقد أوصى بها شورى . فأمهلوا يجتمع الناس ويتشاورون . فارتد الناس عن على . ثم قال بعضهم : إن رجع الناس إلى أمصارهم بقتل عثمان ولم يقم بعده قائم بهذا الأمر لم نأمن اختلاف الناس وفساد الأمة . فعادوا إلى على ، فأخذ الأشتر بيده ، فقبضها علىّ . فقال : أبعد ثلاثة؟ أما والله لئن تركتها لتعصرنّ عينيك عليها حيناً . فبايعته العامة . وأهل الكوفة =

وعقدَ له البيعة طلحةُ ، فقال الناسُ : بايع عليًا يدٌ شلّاءُ ، واللهِ لا يتم هذا الأَمر [1] .

فإن قيل : بايعا مُكرَهين [2] . قلنا : حاشا لله أن يكرها ، لهما ولمن

= يقولون : أول من بايعه الأشتر . وروى سيف عن أبى حارثة محرز العبشمى وعن أبى عثمان يزيد بن أسيد الغسانى قالا : لما كان يوم الخميس – على رأس خمسة أيام من مقتل عثمان – جمعوا أهل المدينة ، فوجدوا سعداً والزبير خارجين ووجدوا طلحة فى حائط له :: فلما اجتمع لهم أهل المدينة قال لهم أهل مصر : أنتم أهل الشورى وأنتم تعقدون الإمامة وأمركم عابر على الأمة ، فانظروا رجلا تنصبونه ونحن لكم تبع . فقال الجمهور : على بن أبى طالب نحن به راضون .. فقال على : دعونى والتمسوا غيرى .. فقالوا : ننشدك الله ، ألا ترى الفتنة ، ألا تخالف الله ؟ فقال : إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتمونى فإنما أنا كأحدكم ، إلا أنى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الغد (أى يوم الجمعة) : فلما أصبحوا من يوم الجمعة حضر الناس المسجد ، وجاء على حتى صعد المنبر فقال : « يا أيها الناس عن ملأ وأذن . إن هذا أمركم ، ليس لأحد فيه حق إلا أن أمرتم . وقد افترقنا بالأمس على أمر . فإن شئتم قعدت لكم ، وإلا فلا أجد على أحد » فقالوا « نحن على ما فارقناك عليه بالأمس » . وهذه الوقائع على بساطتها تدل على أن بيعة على كانت كبيعة إخوانه من قبل جاءت على قدرها وفى إبانها ، وأنها مستمدة من رضا الأمة فى حينها ، لا من وصية سابقة مزعومة ، أو رموز خيالية موهومة .

(١) قائل هذه الكلمة حبيب بن ذؤيب : رواه الطبرى (٥ : ١٥٣) عن أبى المليح الهذلى .

(٢) يعنى طلحة والزبير .

بايعهما . ولو كانا مكرهين ما أثّر ذلك ، لأَن واحدًا أو اثنين تنعقدُ البيعة بهما وتتمّ ، ومن بايع بعد ذلك فهو لازمٌ له ، وهو مُكرَه على ذلك شرعًا . ولو لم يبايعا ما أثر ذلك فيهما ، ولا فى بيعة الإمام [1] .

وأما من قال يدٌ شلّاءُ وأمرٌ لا يتم ، فذلك ظنٌّ من القائل أن طلحة أولُ من بايع ، ولم يكن كذلك [2] .

فإن قيل : فقد قال طلحة : « بايعتُ واللجُّ على قَفَىَّ [3] » . قلنا : اخترع هذا الحديث من أراد أن يجعل فى « القفا » لغة « قفىّ » كما يجعل فى « الهوى » : « هوىّ » . وتلك لغةُ هذَيل لا قريش [4] فكانت كذبة لم تدبَّر .

وأما قولهم « يدٌ شلّاءُ » لو صح فلا متعلق لهم فيه ، فإن يدًا شُلَّتْ فى وقاية رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمُّ لها كل أمر ، ويُتَوقَّى بها من كل

---

(١) القاضى ابن العربى يقرر هنا الحكم الشرعى فى عقد البيعة ، لا على أنه رأى له . وللإمام أبى بكر الباقلانى كلام سديد فى (التمهيد) ص ٢٣١ . وانظر ص ١٦٧ — ١٦٩ من كتاب (الإمامة والمفاضلة) لابن حزم المدرج فى الجزء الرابع من كتابه (الفصَل) .

(٢) وقد علمت أن أهل الكوفة يقولون إن الأشتر كان أول من بايع . ولو كانت يد طلحة هى الأولى فى البيعة لكانت أعظم بركة ، لأنها يد دافعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويد الأشتر لا تزال رطبة من دم إمامه الشهيد المبشر بالجنة .

(٣) أى : والسيف على قفاى ، لحالة الإرهاب التى كانت سائدة على المدينة بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان .

(٤) بل هى أبعد عن لغة قريش من لهجة هذيل ، فقد قال ابن الأثير فى النهاية (مادة لجج) أنها لغة طائية ، يشددون ياء المتكلم .

مكروه (1) . وقد تمَّ الأَمْرُ على وجهه ، ونفذَ القَدرُ بعد ذلك على حكمه .
وجهل المبتدع ذلك فاخترع ما هو حجة عليه .

فإن قيل : بايعوه على أن يقتل قَتَلةَ عثمان . قلنا : هذا لا يصحُّ فى

---

(1) كان طلحة من العصابة الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت يوم أحد حين انهزم المسلمون ، فصبروا ولزموا . ورمى مالك بن زهير الجشمى بسهم يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكان لا يخطئ رميه — فاتقاه طلحة بيده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان ذلك سبب الشلل فى يده من خنصره . وأقبل رجل من بنى عامر يجر رمحاً على فرس كميت أغر مدججاً فى الحديد يصيح : أنا أبو ذات الودع ، دلونى على محمد . فضرب طلحة عرقوب فرسه ، فاكتسعت . ثم تناول رمحه فلم يخطئ به عن حدقته ، فخار كما يخور الثور ، فما برح طلحة واضعاً رجله على خده حتى مات . قالت بنتاه — عائشة وأم إسحاق — : جرح أبونا يوم أحد أربعاً وعشرين جراحة فى جميع جسده ، وقد غلبه الغشى ، وهو مع ذلك محتمل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كسرت رباعيتاه يرجع به القهقرى ، كلما أدركه أحد من المشركين قاتل دونه حتى أسنده إلى الشعب . فكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول إذا رأى طلحة : « من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله » رواه أبو نعيم الأصبهانى . وكان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذاك يوم كان يوم طلحة . وسمع على بن أبى طالب رجلا يقول بعد يوم الجمل . ومن طلحة ؟ فزبره علىّ وقال : إنك لم تشهد يوم أحد ، لقد رأيته وإنه ليحترس بنفسه دون رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن السيوف لتغشاه ، وإن هو إلا جُنة بنفسه لرسول الله صلى الله عليه وسلم . أخرج الحافظ ابن عساكر (٧ : ٧٨) من طريق ابن مندة عن طلحة قال : سمانى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد (طلحة الخير) ، وفى غزوة العسرة (طلحة الفياض) ويوم حنين (طلحة الجود) .

شرط البيعة ، وإنما يُبايعونَه على الحكم بالحقّ ، وهو أن يحضر الطالب للدم ، ويحضر المطلوب ، وتقع الدعوى ، ويكون الجواب ، وتقوم البيّنة ، ويقع الحُكم . فأَما على الهجم عليه بما كان من قول مطلق ، أَو فعل غير محقق ، أَو سماع كلام ، فليس ذلك فى دين الإسلام (1)

قالت العثمانية : تخلّف عنه من الصحابة جماعة ، منهم سعد بن أَبى

---

(1) وانظر (التمهيد) للباقلانى ص ٢٣١ و٢٣٥ و ٢٣٦ : وحقيقة موقف علىّ من قتلة عثمان أنهم عند البيعة له كانوا هم المسئولين على زمام الأمر فى المدينة وفى حالة الإرهاب التى كانت سائدة يومئذ لم يكن فى استطاعة علىّ ولا غيره أن يقف منهم مثل موقف الصحابة من عبيد الله بن عمر لما قتل الهرمزان . مع الفارق العظيم بين دم أمير المؤمنين الخليفة الراشد، والأسير الحربى المجوسى الذى قال إنه أسلم بعد وقوعه فى الأسر . ولما انتقل علىّ من المدينة إلى العراق ليكون على مقربة من الشام انتقل معه قتلة عثمان ولا سيما أهل البصرة والكوفة منهم ، فلما صاروا فى بصرتهم وكوفتهم صاروا فى معقل قوتهم وعنجهية قبائلهم ، ولاشك أن علياً أعلن البراءة منهم وأراد أن يتفق مع أصحاب الجمل على ما يمكن الاتفاق عليه فى هذا الشأن ، فأنشب قتلة عثمان القتال بين معسكر علىّ ومعسكر أصحاب الجمل ، وتمكن أصحاب الجمل من قتل البصريين من قتلة عثمان إلا واحداً من بنى سعد ابن زيد مناة بن تميم حمته قبيلته فلما اتسعت الأمور وسفكت الدماء كان علىّ فى موقف يحتاج فيه إلى بأس هؤلاء المعروفين بأنهم من قتلة عثمان وفى مقدمتهم الأشتر وأمثاله . وأن كثيرين منهم انقلبوا على علىّ بعد ذلك وخرجوا عليه معتقدين كفره . ويقول علماء السنة والمؤرخون : إن الله كان بالمرصاد لقتلة عثمان ، فانتقم منهم بالقتل والنكال واحداً بعد واحد ، حتى الذين طال بهم العمر إلى زمن الحجاج كانت عاقبتهم سفك دمائهم جزاء بما قدمت أيديهم والله أعدل الحاكمين .

وقّاص ، ومحمد بن مَسْلمةَ ، وابن عمر ، وأُسامة بن زيد وسواهم من نظرائهم .

قلنا : أما بيعته فلم يُتخلف عنها . وأما نصرته فتخلف عنها قوم ، منهم من ذكرتم ، لأنها كانت مسألة اجتهادية ، فاجتهد كلٌّ واحد وأعمل نظره وأصاب قدره [1] .

قاصمة

روى قوم أن البيعة لما تمّتْ لعليّ استأْذن طلحةُ والزبيرُ عليًا فى الخروج إلى مكة [2] . فقال لهما عليّ : لعلكما تريدان البصرة والشام . فأقسما ألّا يفعلا [3] .

وكانت عائشةُ بمكة [4] .

---

(١) وانظر (التمهيد) للباقلانى ص ٢٣٣ — ٢٣٤

(٢) وممن استأذنه فى الخروج إلى مكة عبد الله بن عمر بن الخطاب . وسبب ذلك أن علياً لما تمت له البيعة عزم على قتال أهل الشام . وندب أهل المدينة إلى الخروج معه فأبوا عليه ، فطلب عبد الله بن عمر وحرضه على الخروج معه فقال : إنما أنا رجل من أهل المدينة إن خرجوا خرجت على السمع والطاعة ، لكن لا أخرج للقتال فى هذا العام . ثم تجهز ابن عمر وخرج إلى مكة (ابن كثير ٧ : ٢٣٠) وكان الحسن بن على مخالفاً لأبيه فى أمر الخروج لمقاتلة أهل الشام ومفارقته المدينة كما ترى فيما بعد .

(٣) قول على لهما وقسمهما له من زيادات مرتكبى (القاصمة) ورواتها .

(٤) ذهبت إليها وأمهات المؤمنين لما قطع البغاة الماء عن أمير المؤمنين عثمان ، وأخذ يستسقى الناس ، فجاءته أم حبيبة بالماء فأهانوها ، وضربوا وجه بغلتها ، وقطعوا حبل البغلة بالسيف (الطبرى ٥ : ١٢٧) ، فتجهز أمهات المؤمنين إلى الحج فراراً من الفتنة (ابن كثير ٧ : ٢٢٩) .

وهرب عبدُ الله بن عامر عاملُ عثمان على البصرة إلى مكة ، ويعلى ابنُ أُمية عامل عثمان على اليمن .

فاجتمعوا بمكة كلهم ، ومعهم مروان بن الحَكَمَ . واجتمعت بنو أُمية . وحرَّضوا على دم عثمان . وأَعطى يعْلى لطلحة والزبير وعائشة أَربعمائة أَلف درهم . وأَعطى لعائشة « عسكرًا » جملا اشتراه باليمن بمائتى دينار . فأَرادوا الشام ، فصدَّهم ابنُ عامر وقال : لا مِيعادَ لكم بمعاوية ، ولِى بالبصرة صنائع ، ولكن إليها .

فجاءُوا إلى ماءِ الحوْأَب [1] ، ونبحت كلابه ، فسأَلتْ عائشة ، فقيل لها : هذا ماءُ الحوأَب . فردَّتْ خطامها عنه ، وذلك لما سمعت النبىَّ صلى الله عليه وسلم يقول « أَيَّتُكنَّ صاحبةُ الجمل الأَدْبَب [2] ، التى تنبحها كلاب الحوأَب ؟ » فشهد طلحة والزبير أَنه ليس هذا ماءُ الحوأَب ، وخمسون رجلا إليهم [3] ، وكانت أَولَ شهادة زور دارت فى الإِسلام [4] .

---

(١) الحوأب من مياه العرب على طريق البصرة : قاله أبو الفتح نصر بن عبد الرحمن الإسكندرى فيما نقله عنه ياقوت فى معجم البلدان . وقال أبو عبيد البكرى فى معجم ما استعجم : ماء قريب من البصرة ، على طريق مكة إليها . سمى بالحوأب بنت كلب ابن وبرة القضاعية .

(٢) الأديب : الأدبُّ (أظهر الإدغام لأجل السجعة) ، والأدبّ : كثير وبر الوجه . قاله ابن الأثير فى النهاية .

(٣) لم يشهدوا ، ولم تقل عائشة ، ولم يقل النبى صلى الله عليه وسلم . وسنبين ذلك فى موضعه من (العاصمة) ص ١٦١ — ١٦٢

(٤) شهادة الزور تصدر عن رعاع لا يخافون الله كأبى زينب وأبى المورع كما تقدم فى ص ٩٦ — ٩٧ ، وتصدر عمن يزعم لنفسه أنه قادر على خلق شخصية لم يخلقها الله =

وخرج عليٌّ إلى الكوفة (١) ، وتعسكر الفريقان والتقوا (٢) ، وقال عمَّار ـ وقد دنا من هَوْدج عائشة ـ : ما تطلبون ؟ قالوا : نطلبُ دم عثمان .

= كالذى اخترع اسم ثابت مولى أم سلمة كما تقدم فى ص ٩١ ، أما طلحة والزبير ـ المشهود لهما بالجنة من نبى الرحمة صلى الله عليه وسلم الذى لا ينطق عن الهوى ـ فكانا أسمى أخلاقاً وأكرم على أنفسهما وعلى الله من أن يشهدا الزور . وهذه الفرية عليهما من مبغضى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست أول فرية لهم فى الإسلام ، ولا آخر ما يفترونه من الكذب عليه وعلى أهله .

(١) خرج من المدينة فى آخر شهر ربيع الآخر سنة ٣٦ ، ليكون على مقربة من الشام . وكان ابنه الحسن يود لو بقى والده بالمدينة فيتخذها دار خلافته كإخوانه الثلاثة قبله فلا يبرحها (الطبرى ٥ : ١٧١ وانظر ٥ : ١٦٣) ، وقد سلك عليٌّ من المدينة إلى العراق طريق الربذة وفيد والثعلبية والأساود وذى قار : ومن الربذة أرسل إلى الكوفة محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر فرجعا إليه وهو فى ذى قار بأن أبا موسى وأهل الحجى من الكوفيين يرون القعود ، فأرسل الأشتر وابن عباس ، ثم أرسل ابنه الحسن وعماراً لاستمالة القوم إليه . وبينما هو فى الطريق أنشب عثمان بن حنيف وحكيم بن جبلة القتال مع أصحاب الجمل . وفى الأساود جاءه خبر مصرع حكيم بن جبلة وقتلة عثمان . ثم جاء عثمان بن حنيف إلى عليّ وهو فى الثعلبية منتوف اللحية ومغلوباً على أمره . وفى ذى قار أقام عليٌّ معسكره ، ثم سار بمن معه إلى البصرة وفيها أصحاب الجمل .

(٢) بعد وصول عليّ إلى ذى قار وقيام القعقاع بن عمرو بمساعى التفاهم تقدم عليّ بمن معه إلى البصرة فأسرع قتلة عثمان إلى إحباط مساعى الإصلاح بإنشاب القتال .

قال : قتل اللهُ فى هذا اليوم الباغى والطالبَ بغير الحق [1] .

والتقى عليٌّ والزبير ، فقال له عليّ : أتذكر قول النبى صلى الله عليه وسلم : إنك تقاتلنى ؟ فتركه ورجع . وراجعه ولده ، فلم يقبل . وأتبعه الأَحْنَفُ من قتله [2] .

ونادى عليٌّ طلحةَ من بُعد : ما تطلب ؟ قال : دمَ عثمان . قال : قاتل الله أولانا بدم عثمان . ألم تسمع النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم والِ من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخْذِل من خذله » وأنت أوّل من بايعنى ونكث [3] .

عاصمة

أما خروجهم إلى البصرة فصحيح لا إشكال فيه .

ولكن لأىّ شىء خرجوا ؟ لم يصح فيه نقل ، ولا يوثق فيه بأحد ، لأن الثقة لم ينقله ، وكلام المتعصّب لا يُسمع . وقد دخل على المتعصب

---

(١) كان الفريقان يطلبان التفاهم وجمع الكلمة ، أما الباغى فهم قتلة عثمان ، وقد قتلهم الله جميعاً إلا واحداً منهم ، وسيأتى بيانه .

(٢) الذى قتل الزبيرَ عمير بن جرموز وفضالة بن حابس ونفيع التميمى . والأحنف أتقى الله من أن يأمرهم بقتله ، بل سمعوه يتذمر من قتال المسلمين بعضهم مع بعض فلحقوا بالزبير فقتلوه (الطبرى ٥ : ١٩٨) .

(٣) كان طلحة أصدق إيماناً وأسمى أخلاقاً من أن يبايع وينكث . وإنما كان يريد جمع الكلمة للنظر فى أمر قتلة عثمان ، واستجاب علىّ لهذه الدعوة كما سيأتى ص ١٥٦ ، ولكن الذين جنوا على الإسلام أول مرة بالبغى على عثمان كانوا أعداء الله مرة أخرى بإنشاب القتال بين هذين الفريقين من المسلمين .

من يريد الطعنَ فى الإسلام واستنقاص الصحابة .

فيحتمل أنهم خرجوا خلعًا لعلىّ لأمر ظهر لهم (١) ، وهو أنهم بايعوا لتسكين الثائرة ، وقاموا يطلبون الحقّ .

ويحتمل أنهم خرجوا ليتمكنوا من قَتَلةِ عثمان (٢) .

ويمكن أنهم خرجوا فى جمع طوائف المسلمين ، وضم نشرهم ، وردِّهم إلى قانون واحد حتى لا يضطربوا فيقتتلوا . وهذا هو الصحيح ، لا شىء سواه . وبذلك وردتْ صحاحُ الأخبار .

فأما الأقسام الأُولى فكلها باطلة وضعيفة :

أما بيعتهم كرهًا فباطلٌ قد بيناه (٣)

وأما خلعهم فباطل ، لأن الخلع لا يكون إلا بنظر من الجميع ، فيمكن أن يولَّى واحد أو اثنان ، ولا يكون الخلع إلا بعد الإثبات والبيان (٤) .

---

(١) وهذا الاحتمال بعيد عن هؤلاء الأفاضل الصالحين ، ولم يقع منهم ما يدل عليه ؛ بل الحوادث كلها دلت على نزاهتهم عنه . وإلى هذا ذهب الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (١٣ : ٤١ – ٤٢) فنقل عن كتاب (أخبار البصرة) لعمر بن شبة قول المهلب : « إن أحداً لم ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا علياً فى الخلافة ، ولا دعوا إلى أحد منهم ليولوه الخلافة » .

(٢) وهذا ما كانوا يذكرونه ، إلا أنهم يريدون أن يتفقوا مع علىّ على الطريقة التى يتوصلون بها إلى ذلك . وهذا ما كان يسعى به الصحابى المجاهد القعقاع بن عمرو ، ورضى به الطرفان كما سيأتى .

(٣) فى ص ١٤٣ – ١٤٤

(٤) انظر (التمهيد) للباقلانى ص ٢١١ – ٢١٢ وص ٢٣٢ فى موضوع الخلع .

وأما خروجُهم فى أمر قَتَلة عثمان فيضعف ، لأَن الأَصل قبله تـأْليف الكلمة ، ويمكن أَن يجتمع الأَمران [1].

ويروى أَن فى تغيُّبهم [2] قطع الشغب بين الناس . فخرج طلحةُ والزبير وعائشةُ أُم المؤمنين رضى الله عنهم رجاءَ أَن يرجع الناس . إلى أمهم فيرعوْا حرمة نبيهم . واحتجوا عليها [3] بقول الله تعالى : ﴿ لَا خيْرَ فِى كثِيرٍ مِنْ نجْوَاهُمْ إِلَّا منْ أَمَرَ بِصَدقَةٍ أَوْ معْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بيْن النَّاسِ ﴾ ، (النساءُ : ١١٤) . وقد خرج النبى صلى الله عليه وسلم فى الصلح وأَرسل فيه . فرجت المثوبة ، واغتنمت القصة ، وخرجت حتى بلغت الأَقضيةُ مقاديرَها .

وأَحس بهم أَهلُ البصرة ، فحرَّض من كان بها من المتأَلبين على عثمان الناسَ ، وقالوا : اخرجوا إِليهم حتى تروْا ما جاءُوا إِليه . فبعث عثمانُ بن حُنَيف حُكيم بن جَبلة [4] ، فلقى طلحة والزبير بالزابوقة ،

---

(١) واجتماع الأمرين هو الذى كاد يقع ، لولا أن السبإيين أحبطوه . فأصحاب الجمل جاءوا فى أمرقتلة عثمان ، ولم يجيئوا إلا لذلك . إلا أنهم أرادوا أن يتفاهموا عليه مع علىّ ، لأن التفاهم معه أول الوسائل للوصول إلى ما جاءوا له .

(٢) أى تغيب طلحة والزبير وعائشة عن المدينة .

(٣) لما أقنعوها بالخروج إلى البصرة .

(٤) عثمان بن حنيف أنصارى من الأوس ، كان عند هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أحد الشبان الأوسيين الخمسة عشر الذين انضموا إلى عبد عمرو بن صيفى عند خروجه إلى مكة مغاضباً النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان عبد عمرو يسمى فى الجاهلية الراهب فسماه النبى صلى الله عليه وسلم الفاسق (الطبرى ٣ : ١٦) . والظاهر أن عثمان ابن حنيف عاد من مكة وأسلم قبل وقعة أحد لأنها أول مشاهده (الإصابة ٢ : ٤٥٩) . =

فقُتل حُكيم[1] ، ولو خرج مُسْلما مستسلمًا لا مدافعًا[2] لما أصابه شيء . وأيٌّ

= وتزعم الشيعة أنه شاغب على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى بكر الصديق فى أول خلافته (تنقيح المقال للمامقانى ١ : ١٩٨) وأعتقد أن هذا من كذبهم عليه ، وقد تولى لعمر مساحة أرض العراق وضرب الجزية والخراج على أهلها ، فلو صح ما زعموه من شغبه على أبى بكر لتنافى هذا مع استعمال عمر له ، إلا أن يكون تاب . ولما بويع لعلى آخر سنة ٣٥ واختار ولاته فى بداية سنة ٣٦ ولى عثمان بن حنيف على البصرة (الطبرى ٥ : ١٦١) . ولما وصل أصحاب الجمل إلى الُحفير على أربعة أميال من البصرة أرسل إليهم عثمان بن حنيف عمرانَ بن حصين الخزاعى صاحب راية النبى صلى الله عليه وسلم على خزاعة يوم الفتح ليعلم له علمهم ، فلما عاد إليه وذكر له حديثه مع أصحاب الجمل قال له عثمان بن حنيف : أشر علىّ يا عمران . فقال له : إنى قاعد فاقعد . فقال عثمان : بل أمنعهم حتى يأتى أمير المؤمنين على . وأشار عليه هشام بن عامر الأنصارى — أحد الصحابة المجاهدين الفاتحين — بأن يسالمهم حتى يأتى أمر على ، فأبى عثمان بن حنيف ونادى فى الناس ، فلبسوا السلاح ، وأقبل عثمان على الكيد (الطبرى ٥ : ١٧٤ — ١٧٥) ، وكانت العاقبة فشله وخروج الأمر من يده إلى أيدى أصحاب الجمل . ووقع ابن حنيف فى أسر الجماهير فنتفت لحيته ، ثم أنقذه أصحاب الجمل منهم فانسحب إلى معسكر على فى الثعلبية ثم فى ذى قار . هذا هو عثمان بن حنيف وموقفه من أصحاب الجمل . أما حكيم بن جبلة فالقارئ يعلم أنه من قتلة أمير المؤمنين عثمان ، وقد تقدم التعريف به فى (ص ١١٥ — ١١٦) .

(١) الزابوقة : موضع قريب من البصرة كانت فيه وقعة الجمل فى دورها الأول بعد أن خطب طلحة والزبير وعائشة فى المربد . أما مصرع حكيم بن جبلة فكان بعد المعارك الأولى التى انتهت بغلبة أصحاب الجمل واستيلائهم على الحكم فى البصرة ، فتمرد حكيم بن جبلة على هذه الحالة الجديدة وقاتل مع ثلاثمائة من أعوانه حتى قتل .

(٢) أى مقاتلا .

خير كان له فى المدافعة ، وعن أى شىء كان يدافع ؟ وهم ما جاءوا مقاتلين ولا وُلاة ، وإنما جاءوا ساعِين فى الصلح ، راغبين فى تأليف الكلمة ، فمن خرج إليهم ودافعهم وقاتلهم دافعوا عن مقصدهم ، كما يُفعل فى سائر الأسفار والمقاصد .

فلما وصلوا إلى البصرة تلقّاهم الناسُ بأعلى المِرْبد مجتمعين [1] ، حتى لو رُمى حجر ما وقع إلا على رأس إنسان . فتكلّم طلحةُ [وتكلم الزبير] وتكلمت عائشةُ رضى الله عنهم [2] .

وكثر اللَّغط [3] ، وطلحة يقول « أنصتوا ! » فجعلوا يرْكَبُونه ولا

---

(١) مربد البصرة : موضع كانت تقام فيه سوق الإبل خارج البلد ، ثم صارت تكون فيه مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء . ثم اتسع عمران البصرة فدخل المربد فى العمران فكان من أجلّ شوارعها ، وسوقه من أجل أسواقها ، وصار محلة عظيمة سكنها الناس . ولما انحطت منزلة البصرة وهرم عمرانها تضاءلت فأمسى المربد بائناً عنها حتى كان بينه وبين البصرة فى زمن ياقوت ثلاثة أميال ، والمربد خراب كالبلدة المفردة فى وسط البرية . وكان موضع البصرة يومئذ قريباً من موضع ضاحيتها الزبير فى أيامنا هذه .

(٢) كان أصحاب الجمل فى ميمنة المربد ، وعثمان بن حنيف ومن معه فى ميسرته . وقد لخص الطبرى (٥ : ١٧٥) خطب طلحة والزبير وعائشة راوياً ذلك عن سيف ابن عمر التميمى عن شيوخه ، وهم أعرف الإخباريين بحوادث العراق .

(٣) لأن الذين فى الميسرة كانوا يقولون تعليقاً على خطبتى طلحة والزبير : فجراً ، وغدراً ، وقالا الباطل ، وأمرا به . قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان . والذين كانوا فى الميمنة يقولون : صدقاً ، وبراً ، وقالا الحق ، وأمرا بالحق ، وتحاثى الناس وتحاصبوا وأرهجوا . إلا أنه لما انتهت عائشة من خطبتها ثبت الذين مع أصحاب الجمل على موالاتهم=

يتَصَنَّتون ، فقال «أفٌّ ، أفٌّ . فراشُ نار ، وذُباب طمع» . وانقلبوا على غير بيان [1] .

وانحدروا إلى بنى نَهدْ ، فرماهم الناس بالحجارة حتى نزلوا الجبل [2] .

والْتقى طلحةُ والزبير وعثمان بن حُنيف - عاملُ علىٍّ على البصرة - وكتبوا بينهم أن يكفُّوا عن القتال ، ولعثمانِ دارُ الإمارة والمسجدُ وبيتُ المال ، وأن ينزل طلحة والزبير من البصرة حيث شاءا ، ولا يعرض

=لهم ، وافترق أصحاب عثمان بن حنيف فرقتين فقالت فرقة : صدقت والله وبرت وجاءت بالمعروف ، وقال الآخرون : كذبتم ما نعرف ما تقولون . فتحاثوا وتحاصبوا وأرهجوا »

(١) لما رأت عائشة ما يفعل أنصار عثمان بن حنيف انحدرت وانحدر أهل الميمنة مفارقين لابن حنيف حتى وقفوا فى موضع آخر ، ومال بعض الذين كانوا مع ابن حنيف إلى عائشة وبقى بعضهم مع عثمان بن حنيف (الطبرى ٥ : ١٧٥) .

(٢) حفظ لنا الطبرى (٥ : ١٧٦ - ١٧٧) وصفاً دقيقاً نقله سيف بن عمر التميمى عن شيخيه محمد بن عبد الله بن سواد بن نويرة وطلحة بن الأعلم الحنفى عن الموقف السلبى لأصحاب الجمل فى هذه الوقعة ، وإسراف حكيم بن جبلة فى إنشاب القتال . قالا : وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بنى مازن ثم حجز الليل بين الفريقين » وفى اليوم التالى انتقل أصحاب الجمل إلى جهة دار الرزق ، وأصبح عثمان بن حنيف وحكيم ابن جبلة فجددا القتال ، وكان حكيم يطيل لسانه بسب أم المؤمنين ، ويقتل من يلومه على ذلك من نساء ورجال ، ومنادى عائشة يدعو الناس إلى الكف عن القتال فيأبون ، حتى إذا مسهم الشر وعضهم نادوا أصحاب عائشة إلى الصلح .

بعضُهم لبعض حتى يَقدُم على [1] .

وروى أن حُكيم بن جبلة عارضهم حينئذ ، فقُتل بعد الصلح [2]

وقدم عليّ البصرة [3] ، وتدانَوْا ليتراءَوا [4] ، فلم يتركهم أصحاب

---

(١) ونص كتاب الصلح فى تاريخ الطبرى (٥ : ١٧٧) . ولما بلغ علياً ما وقع كتب إلى عثمان بن حنيف يصفه بالعجز . وجمع طلحة والزبير الناس وقصدوا المسجد وانتظروا عثمان بن حنيف فأبطأ ولم يحضر ، ووقعت فتنة فى المسجد من رعاع البصرة أتباع حكيم بن جبلة ، وكان لها رد فعل من أناس ذهبوا إلى عثمان بن حنيف ليحضروه فتوطأه الناس ونتفوا شعر وجهه ، أمرهم بذلك مجاشع بن مسعود السلمى زعيم هوازن وبنى سليم والأعجاز من قبائل البصرة (الطبرى ٥ : ١٧٨) .

(٢) وبيان ذلك فى تاريخ الطبرى (٥ : ١٧٩ — ١٨٢) وانظر كتابنا هذا ص ١١٦

(٣) فنزل مكاناً منها يسمى الزاوية . وكان أصحاب الجمل نازلين مكاناً منها يسمى الفرضة .

(٤) عند موضع قصر عبيد الله بن زياد ، وكان ذلك يوم الخميس فى النصف من جمادى الآخرة سنة ٣٦ (الطبرى ٥ : ١٩٩) . وكان الصحابى الجليل القعقاع بن عمرو التميمى قد قام بين الفريقين بالوساطة الحكيمة المعقولة ، فاستجاب له أصحاب الجمل ، وأذعن على لذلك ، وبعث على إلى طلحة والزبير يقول : « إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا حتى ننزل فننظر فى هذا الأمر » ، فأرسلا إليه : « إنا على ما فارقنا عليه القعقاع بن عمرو من الصلح بين الناس » : قال الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٧ : ٢٣٩) : فاطمأنت النفوس وسكنت واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين : فلما =

الأَهواء ، وبادروا بإراقة الدماء . واشتجر الحرب ، وكثرت الغوْغاءُ على البَوْغاء . كلُّ ذلك حتى لا يقع برهان ، ولا يقف الحال على بيان ، ويَخفى قتَلَةُ عثمان . وإن واحدًا فى الجيش يفسد تدبيره ، فكيف بأَلف !

وقد روى أَن مروان لما وقعت عينه فى الاصطفاف على طلحة قال : لانطلب أَثرًا بعد عِين ، ورماه بسهم فقتله [1] . ومن يعلم هذا إلا علام

= أمسوا بعث حتى عبد الله بن عباس إليهم ، وبعثوا محمد بن طلحة السجاد إلى على ، وعولوا جميعاً على الصلح ، وباتوا بخير ليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية . وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة باتوها قط ، قد أشرفوا على الهلكة : وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها ، حتى اجتمعوا على إنشاب الحرب فى السر ، واستسرُّوا بذلك خشية أن يُفطن بما حاولوا من الشر . فغدوا مع الغلس وما يشعر بهم جيرانهم ، انسلوا إلى ذلك الأمر انسلالا (وانظر مع ذلك الموضع من تاريخ ابن كثير تاريخ الطبرى ٥ : ٢٠٢ — ٢٠٣ ومنهاج السنة ٢ : ١٨٥ و ٣ : ٢٢٥ و ٢٤١ والمنتقى منه للذهبى ٢٢٣ و ٤٠٤) . وهكذا أنشبوا الحرب بين على وأخويه الزبير وطلحة ، فظن أصحاب الجمل أن علياً غدر بهم . وظن على أن إخوانه غدروا به ، وكل منهم أتقى لله من أن يفعل ذلك فى الجاهلية ، فكيف بعد أن بلغوا أعلى المنازل من أخلاق القرآن .

(١) آفة الأخبار رواتها . وفى العلوم الإسلامية علاج آفة الكذب الخبيثة ، فإن كل راوى خبر يطالبه الإسلام بأن يعين مصدره على قاعدة « من أين لك هذا ؟ » . ولا تعرف أمة مثل هذه الدقة فى المطالبة بمصادر الأخبار كما عرفه المسلمون ، ولا سيما أهل السنة منهم . وقد أشاد بهذه المزية لعلماء السنة الدكتور أسد رستم فى كتابه (مصطلح التاريخ) ، وهذا الخبر عن طلحة ومروان « لقيط » لا يعرف أبوه ولا صاحبه ؛ وما دام لم ينقله ثبت بسند معروف عن رجال ثقات فإن للقاضى ابن العربى أن يقول بملء فيه : ومن يعلم هذا إلا علام الغيوب ؟!

الغيوب ، ولم ينقله ثبت .

وقد روى [أنه] أصابه سهم بأمر مروان ، لا أنه رماه [1] .

وقد خرج كعبُ بن سُور بمصحف منشور بيده يناشد الناس أن يريقوا دماءهم [2]، فأصابه سهمٌ غربٍ فقتله [3] ، ولعل طلحة مثله . ومعلوم أنه عند الفتنة وفى مَلْحمة القتال يتمكّن أُولو الإحن والحُقود ،

---

(١) وهذا الزعم كالزعم السابق فى ص ١٥٠ عن الزبير أن الأحنف هو الآمر بقتله .

(٢) كعب بن سور الأزدى أول قضاة المسلمين على البصرة ، ولاه أمير المؤمنين عمر . قال الحافظ ابن عبد البر : كان مسلماً فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم لكنه لم يره .

(٣) قال الحافظ ابن عساكر (٧ : ٨٥) فى ترجمة طلحة : وقالت عائشة لكعب ابن سور الأزدى : « خل-يا كعب عن البعير ، وتقدم بكتاب الله فادعهم إليه ، ودفعت إليه مصحفاً وأقبل القوم وأمامهم السبئية يخافون أن يجرى الصلح ، فاستقبلهم كعب بالمصحف ، وعلىّ من خلفهم يزّعهم ويأبون إلا إقداماً . فلما دعاهم كعب رشقوه رشقاً واحداً فقتلوه ثم راموا أم المؤمنين .. فكان أول شىء أحدثته حين أبوا أن قالت : « يا أيها الناس ، العنوا قتلة عثمان وأشياعهم » وأقبلت تدعو ، وضج أهل البصرة بالدعاء . وسمع علىّ الدعاء فقال : ما هذه الضجة ؟ فقالوا : عائشة تدعو ويدعو الناس معها على قتلة عثمان وأشياعهم . فأقبل على يدعو وهو يقول : « اللهم العن قتلة عثمان وأشياعهم ». قلت : وهكذا اشترك صالحو الفريقين فى لعن قتلة أمير المؤمنين الشهيد المظلوم فى الساعة التى كان فيها قتلة عثمان ينشبون القتال بين صالحى المسلمين .

من حلِّ العُرى ونقضِ العهود. وكانت آجالا حضرتْ، ومواعيدَ انتجزتْ [1]

فإن قيل : لِم خرجتْ عائشة رضى الله عنها وقد قال صلى الله عليه

---

(1) نقل الحافظ ابن عساكر (٧ : ٨٦ – ٨٧) قول الشعبى : رأى على بن أبى طالب طلحة ملقى فى بعض الأودية ، فنزل فمسح التراب عن وجهه ثم قال : « عزيز علىّ أبا محمد أن أراك مجدلا فى الأودية وتحت نجوم السماء . إلى الله أشكو عُجَرى وبُجرى» (قال الأصمعى : أى سرائرى وأحزانى التى تجول فى جوفى) . وقال : « ليتنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة » . وقال أبو حبيبة مولى طلحة : دخلت أنا وعمران بن طلحة على علىّ بعد الجمل ، فرحب بعمران وأدناه وقال : « إنى لأرجو أن يجعلنى الله وأباك من الذين قال فيهم ﴿ ونزعنا ما فى قلوبهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ﴾ » ، وكان الحارث الأعور (*) جالساً فى ناحية فقال « الله أعدل من أن نقتلهم ويكونوا إخواننا فى الجنة » ، فقال له على : « قم إلى أبعد أرض الله وأسحقها ، فمن هو ذا إن لم أكن أنا وطلحة فى الجنة ؟ » وذكر محمد بن عبد الله أن علياً تناول دواة فحذف بها الأعور يريده بها فأخطأه . وقال له ابن الكواء (**) « الله أعدل من ذلك » فقام إليه علىّ بدرة فضربه وقال له « أنت – لا أم لك – وأصحابك تنكرون هذا ؟! »

(*) هو الحارث بن عبد الله الهمدانى الحوتى أبو زهير الكوفى الأعور أحد كبار الشيعة . قال عنه الشعبى وابن المدينى : كذاب . قلت وإنما كان يدفعه إلى الكذب تحزبه وتشيعه ، فالحزبية والتشيع والتعصب المذهبى من مدارج الباطل ، والإسلام دين الاعتدال والإنصاف والصدق وأن تقول بالحق ولو على نفسك

(**) ابن الكواء : عبد الله بن أبى أوفى اليشكرى أحد القائمين بالفتنة على عثمان وبعد صفين والتحكيم كان على رأس الخوارج على علىّ . فلما حاجهم على وابن عباس رجع إلى على قبل وقعة النهروان

وسلم لهنَّ فى حجة الوداع « هذه ثم ظهور الحُصْر [1] » . قلنا : حدَّث حديثين امرأة ، فإن أبت فأربعة . يا عقول النسوان ألم أعهد إليكم ألا تروُوا أحاديث البهتان ، وقدمنا لكم على صحة خروج عائشة البرهان [2] ، فلم تقولون مالا تعلمون ؟ وتكرِّرون ما وقع الانفصال

---

(١) فى مسند أحمد (٢ : ٤٤٦ الطبعة الأولى) من حديث صالح مولى التوأمة عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حج بنسائه قال « إنما هى هذه الحجة ثم الزمن ظهور الحُصْر » . وفيه (٥ : ٢١٨ الطبعة الأولى) من حديث واقد بن أبى واقد الليثى عن أبيه أنه صلى الله عليه وسلم قال لنسائه فى حجته « هذه ثم ظهور الحصر » ؛ وحديث أبى واقد فى باب فرض الحج من كتاب المناسك بسنن أبى داود (ك ١١ ب ١) ؛ والحصر جمع حصير ، أى لزوم المنزل . ونقله الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٥ : ٢١٥) على أنه إشارة نبوية إلى أنه صلى الله عليه وسلم ينعى لهن نفسه ، وأن هذه آخر حجة له صلى الله عليه وسلم ، وليس فيه أمر منه بأن لا يزيلن الحصر إلى حج أو مصلحة أو إصلاح بين الناس . فاستشهاد أعداء الصحابة بهذا الحديث على المنع مطلقاً عده القاضى ابن العربى من البهتان ، لأنه استشهاد به لغير ما أراده النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) روى الإمام ابن حزم فى بحث « وجوه الفضل والمفاضلة » من كتاب (الإمامة والمفاضلة) المدرج فى الجزء الرابع من (الفيصَل) ص ١٣٤ عن شيخه أحمد بن محمد الخوزى عن أحمد بن الفضل الدينورى عن محمد بن جرير الطبرى أن على بن أبى طالب بعث عمار بن ياسر والحسن بن على إلى الكوفة إذ خرجت أم المؤمنين إلى البصرة ، فلما أتياها اجتمع إليهما الناس فى المسجد ، فخطبهم عمار ، وذكر لهم خروج عائشة أم المؤمنين إلى البصرة ثم قال لهم : « إنى أقول لكم ، ووالله إنى لأعلم أنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنة كما هى زوجته فى الدنيا ، ولكن الله ابتلاكم بها لتطيعوها أو لتطيعوه » فقال له مسروق (ابن الأجدع الهمدانى) أو أبو الأسود (الدؤلى) : « يا أبا اليقظان ، فنحن مع من شهدت له بالجنة دون من لم تشهد له » فسكت عمار !

عنه كأنكم لا تفهمون ؟ ﴿ إنَّ شرَّ الدوابِّ عند الله الصمُّ البُكْمُ الذين لا يعْقِلون ﴾ .

وأما الذى ذكرتم من الشهادة على ماء الحَوْأب ، فقد بُؤتم فى ذِكرها بأعظم حُوب [1] . ما كان قطُّ شىء مما ذكرتم ، ولا قال النبىُّ صلى الله عليه وسلم ذلك الحديث ، ولا جرى ذلك الكلام ، ولا شهد أحد بشهادتهم ، وقد كُتبتْ شهاداتكم بهذا الباطل وسوف تُسألون [2] ؛

(١) الحوب : الإثم .

(٢) تقدم فى ص ١٤٨ بيان موضع الحوأب ؛ وأن الكلام الذى نسبوه إلى النبى صلى الله عليه وسلم وزعموا أن عائشة ذكرته عند وصولهم إلى ذلك الماء ليس له موضع فى دواوين السنة المعتبرة . وقد رأينا خبره عند الطبرى (٥ : ١٧٠) فرأيناه يرويه عن اسماعيل بن موسى الفزارى (وهو رجل قال فيه ابن عدى : أنكروا منه الغلو فى التشيع) ، ويرويه هذا الشيعى عن على بن عابس الأزرق (قال عند النسائى : ضعيف) وهو يرويه عن أبى الخطاب الهجرى (قال الحافظ ابن حجر فى تقرب التهذيب : مجهول) وهذا الهجرى المجهول يرويه عن صفوان بن قبيصة الأحمسى (قال عنه الحافظ الذهبى فى ميزان الاعتدال : مجهول) ؛ هذا هو خبر الحوأب . وقد بنى على أعرابى زعموا أنهم لقوه فى طريق الصحراء ومعه جمل أعجبهم فأرادوا أن يكون هو جمل عائشة فاشتروه منه وسار الرجل معهم حتى وصلوا إلى الحوأب فسمع هذا الكلام ورواه ، مع أنه هو نفسه – أى الأعرابى صاحب الجمل – مجهول الاسم ولا نعرف عنه إن كان من الكذابين أو الصادقين . ويظهر لى أنه ليس من الكذابين ولا من الصادقين ، لأنه من أصله – كالثانى عشر – موهوم لم يخلق ، ولأن جمل عائشة واسمه « عسكر » جاء به يعلى بن أمية من اليمن وركبه عائشة من مكة إلى العراق ، ولم تكن ماشية على رجليها حتى اشتروا لها جملا من هذا الأعرابى الذى زعموا أنهم قابلوه فى الصحراء ، وركبوا =

قاصمة

ودارتِ الحربُ بين أهل الشام وأهل العراق [1] : هؤلاء يدْعون إلى عليٍّ بالبيعة وتأْليف الكلمة على الإمام ، وهؤلاء يدْعون إلى التمكين من قتلَة عثمان ويقولون : لا نبايع من يُؤْوى القَتلَة [2] .

=على لسانه هذه الحكاية السخيفة ليقولوا إن طلحة والزبير — المشهود لهما بالجنة ممن لا ينطق عن الهوى — قد شهدا الزور : ولو كنا نستجيز نقل الأخبار الواهية لنقلنا فى معارضة هذا الخبر خبراً آخر نقله ياقوت فى معجم البلدان (مادة حوأب) عن سيف بن عمر التميمى أن المنبوحة من كلاب الحوأب هى أم زمل سلمى بنت مالك الفزارية التى قادت المرتدين ما بين ظفر والحوأب فسباها المسلمون ووهبت لعائشة فأعتقتها ، فقيلت فيها هذه الكلمة . وهذا الخبر ضعيف والخبر الذى أورده عن عائشة أضعف منه . وما برح الكذب بضاعة يتجر بها الذين لا يخافون الله .

(١) فى موضع يسمى (صِفِّين) بقرب الرقة على شاطىء الفرات آخر تخوم العراق وأول أرض الشام . سار إليها علىّ بجيوشه فى أواخر ذى القعدة سنة ٣٦

(٢) لما انتهى على من حرب الجمل وسار من البصرة إلى الكوفة فدخلها يوم الإثنين ١٢ من رجب ، أرسل جريرَ بن عبد الله البجلى إلى معاوية فى دمشق يدعوه إلى طاعته . فجمع معاوية رءوس الصحابة وقادة الجيوش وأعيان أهل الشام واستشارهم فيما يطلب على ، فقالوا : لا نبايعه حتى يقتل قتلة عثمان ، أو يسلمهم إلينا . فرجع جرير إلى على بذلك ، فاستخلف علىّ على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عامر ، وخرج منها فعسكر بالنخيلة أول طريق الشام من العراق ، وقد أشار عليه ناس بأن يبقى فى الكوفة ويبعث غيره إلى=

وعليٌّ يقول لا أُمكِّن طالبًا من مطلوب ينفذ فيه مراده بغير حكم ولا حاكم . ومعاوية يقول : لا نبايع متَّهمًا أو قاتلا له ، وهو أحدُ من يُطلب فكيف نحكمه أو نبايعه ، وهو خليفةٌ عدا وتسوَّر .

وذكروا فى تفاصيل ذلك كلمات آلت إلى استفعال رسائل [1] ، واستخراج أقوال ، وإنشاء أشعار ، وضرب أمثال تخرج عن سيرة السلف ، يقرُّها الخلْفُ وينبذها الخَلَف [2] .

= الشام فأبى . وبلغ معاوية أن علياً تجهز وخرج بنفسه لقتاله فأشار عليه رجاله أن يخرج هو أيضاً بنفسه ، فخرج الشاميون نحو الفرات من ناحية صفين ، وتقدم على بجيوشه إلى تلك الجهة . وكان جيش علىّ فى مائة وعشرين ألفاً وجيش معاوية فى تسعين ألفاً ، وبدأ القتال فى ذى الحجة سنة ٣٦ بمناوشات ومبارزات ، ثم تهادنوا فى المحرم سنة ٣٧ واستؤنف القتال بعده ، وقتل فى هذه الحرب سبعون ألفاً ، وكانت الوقائع ٩٠ وقعة فى ١١٠ أيام ، وامتازت هذه الحرب بنبل الشجاعة فى القتال ، ونبل التعامل والاتصال عند التهادن والراحة . ثم كتب التحكيم يوم ١٣ صفر سنة ٣٧ على أن يعلن الحكمان حكمهما فى رمضان بدومة الجندل بمكان منها يسمى أذرح .

(١) أى انتحالها زوراً ولا أصل لها . وأكثر ما تجد ذلك فيما يرويه أخباريو الشيعة عن رواة مجهولين أو كذابين . وأخفهم وطأة أبو مخنف لوط بن يحيى ، قال عنه الحافظ الذهبى : « أبو مخنف أخبارى تالف ، لا يوثق به ، تركه أبو حاتم وغيره » . وقال فيه ابن عدى : « شيعى محترق صاحب أخبارهم » ثم جاء بعده آخرون منهم كانوا شراً على على تاريخ الإسلام من لوط هذا . فأفسدوا على الأمة معرفتها بماضيها .

(٢) الخلف (بفتح الخاء وسكون اللام) : الصالح . وفى التنزيل ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتابَ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ . والخلف (بفتح الخاء واللام) :=

عـاصمة

أمَّا وجودُ الحرب بينهم فمعلومٌ قطعًا ، وأما كونه بهذا السبب فمعلوم كذلك قطعاً ، وأما الصواب فيه فمع عليٍّ ، لأن الطالب للدم لا يصحُّ أن يحكم ، وتهمة الطالب للقاضي لا تُوجب عليه أن يخرج عليه ، بل يطلب [الحق] عنده ، فإن ظهر له قضاءٌ وإلا سكت وصبر ، فكم من حقٍّ يحكم اللهُ فيه . وإن لم يكن له دين فحينئذ يخرج عليه ، فيقوم له عذر فى الدنيا (1) .

= الصالح ؛ ومنه الحديث « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عن تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » .

(1) وجود قتلة عثمان فى معسكر على حقيقة لا يمارى أحد فيها ، بل إن الأشتر وهو من رءوس البغاة على عثمان كان أكبر مسعر للحرب بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين فى معسكر عليّ والذين فى معسكر معاوية . ولما طالب على معاوية ومن معه من الصحابة والتابعين أن يبايعوه احتكموا إليه فى قتلة عثمان وطلبوا منه أن يقيم حد الله عليهم أو أن يسلمهم إليهم فيقيموا عليهم حد الله . وقد اعتذرنا عن أمير المؤمنين على فى هامش ص ١٤٦ بأن قتلة عثمان لما صاروا مع عليّ فى العراق صاروا فى معقل قوتهم وعنجهية قبائلهم ، فكان عليّ يرى – بينه وبين نفسه – أن قتلهم يفتح عليه باباً لا يستطيع سده بعد ذلك . وقد انتبه لهذه الحقيقة الصحابى الجليل القعقاع بن عمرو التميمى وتحدث بها مع أم المؤمنين عائشة وصاحبى رسول الله صلى الله عليه وسلم طلحة والزبير فأذعنوا لها وعذروا علياً ووافقوا على التفاهم معه على ما يوصلهم إلى الخروج من هذه الفتنة . فما لبث قتلة عثمان أن أنشبوا الحرب بين الفريقين . فالمطالبون بإقامة حد الله على قتلة عثمان معذورون لأنهم يطالبون بحق ، سواء كانوا من أصحاب الجمل ، أو من أهل =

ولئن اتُّهِم عليٌّ بقتل عثمان فليس فى المدينة أَحد من أَصحاب النبى صلى الله عليه وسلم إلَّا وهو متهم به ، أَو قُل معلومٌ قطعًا أَنه قتله ، لأَنَّ أَلف رجل جاءُوا لقتل عثمان لا يَغْلبون أَربعين أَلفًا [1] .

= الشام . وتقصير علىّ فى إقامة حد الله كان عن ضرورة قائمة ومعلومة . ولكن إذا كانت حرب البصرة ناشئة عن إنشاب قتلة عثمان الحرب بين الفريقين الأولين ، فقد كان من مصلحة الإسلام أن لا تنشب حرب صفين بين الفريقين الآخرين . وكان سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن على كارهاً خروج أبيه من المدينة إلى العراق لما يخشاه من نشوب الحرب مع أهل الشام ، وهم جبهة الإسلام العسكرية فى الجهاد والفتوح . ولو أن علياً لم يتحرك من الكوفة استعداداً لهذا القتال لما حرك معاوية ساكناً . قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة (٢ : ٢١٩) : « لم يكن معاوية ممن يختار الحرب ابتداء » وانظر المنتقى من منهاج الاعتدال ٢٤٩ و ٢٥١ و ٢٦٢ . ومع ذلك فإن هذه الحرب المثالية هى الحرب الإنسانية الأولى فى التاريخ التى جرى فيها المتحاربان معاً على مبادئ الفضائل التى يتمنى حكماء الغرب لو يعمل بها فى حروبهم ولو فى القرن الحادى والعشرون ، وإن كثيراً من قواعد فقه الحرب فى الإسلام لم تكن لتعلم وتدون لولا وقوع هذه الحرب ، ولله فى كل أمر حكمة .

(١) ليس فى أهل السنة رجل واحد يتهم علياً بقتل عثمان ، لا فى زماننا ولا فى زمانه ، وقد مضى الكلام على ذلك فى هذا الكتاب . وكل ما فى الأمر وجود قتلة عثمان مع على ، وموقف على منهم ، وعذره بينه وبين الله فى موقفه هذا . فنحن جميعاً على رأى القعقاع ابن عمرو بأن موقف علىّ موقف ضرورة : غير أن الحمقى من إخباريى الشيعة دسوا على علىّ أخباراً تشعر بغير ما كان فى قلبه من المحبة والرضا والموالاة والتأييد لعثمان أثناء محنته ، فأساءوا بذلك إلى علىّ من حيث يريدون الإساءة إلى عثمان . أما معاوية وفريقه فلم يذكروا=

وهبْكَ أن عليًا وطلحة والزبير تضافروا على قتل عثمان ، فباقى الصحابة من المهاجرين والأنصار ومن اعتدَّ فيهم وضوى إليهم ماذا صنعوا بالقعود عن نصرته ؟

ولا يخلو أن يكون لأنهم رأوا أولئك طلبوا حقًا وفعلوا حقًا ، فهذه شهادة قائمة على عثمان فلا كلام لأهل الشام . وإن كانوا قعدوا عنه استهزاءً بالدين ، وأنهم لم يكن لهم رأىٌ فى الحال ، ولا مبالاة عندهم بالإسلام ولا فيما يجرى فيه من اختلال ، فهى ردّة ليستْ معصية . لأن التهاون بحدود الدين وإسلام حرمات الشريعة للتضييع كُفر ، وإن كانوا قعدوا لأنهم لم يروا أو يَتعدّوا حدَّ عثمان وإشارته فأىُّ ذنب لهم فيه ؟ وأى حجة لمروان — وعبدُ الله بن الزبير والحسن والحسين وابنُ عمر وأعيانُ العشرة معه فى داره يدخلون إليه ويخرجون عنه فى الشكة والسلاح — والطالبون ينظرون ؟ ولو كان لهم بهم قوة أو أووا إلى ركن شديد لما مكّنوا أحدًا أن يراه منهم ولا يُداخله ، وإنما كانوا نظّارة ، فلو قام فى وجوههم الحسنُ والحسين وعبدُ الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ما جسروا ، ولو قتلوهم ما بقى على الأرض منهم حى .

ولكن عثمان سلم نفسه ، فتُرِك ورأيه . وهى مسألة اجتهاد كما قدمنا [1] .

= عليًا فى أمر البغى على عثمان إلا لمناسبة انضواء قتلة عثمان إليه واستعانته بهم : فقتلة عثمان هم الذين أساءوا إلى الإسلام وإلى عثمان وإلى علىٍّ أيضًا . فالله حسيبهم . ولو أن كل المسلمين كانوا كعبد الرحمن بن خالد بن الوليد فى حزمه — قبل أن تستفحل الفتنة ويفلت الزمام من أيدى العقلاء — لما وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه .

(١) فى ص ١٣٧ ، وانظر هامش ص ١٣٢ .

وأى كلام كان يكون لعلىّ – لما تمت له البيعة – لو حضر عنده ولى عثمان وقال له : إن الخليفة قد تمالأ عليه ألفُ نسمة حتى قتلوه ، وهم معلومون . ماذا كان يقول إلا : أثبتْ ، وخذ ، وفى يوم كان يثبت ، إلا أن يُثبتوا هم أن عثمان كان مستحقًا للقتل [1] .

وبالله لتعلمُنّ يا معشر المسلمين أنه ما كان يَثبتُ على عثمان ظلم أبدًا ، وكان يكون الوقت أمكنَ للطالب ، وأرفَق فى الحال ، وأيسر وصولا إلى المطلوب [2] .

---

(١) المؤلف معترف بأن الإثبات كان فى متناول اليد ، لأن الجريمة مشهودة ، والمجرمون أعلنوا فيها فجورهم فلم يتكتموا . ولكن كيف يكون التنفيذ ، ومن الذى يقوم به ومدينة الرسول مستكينة تحت وطأة الإرهاب ؟ ومن ذا الذى يضمن لعلىّ حياته إذا أصدر هذا الحكم ؟ أليس هؤلاء هم الذين تداولوا فى قتله لما عقدوا مؤتمرهم فى ذى قار بعد خطبة علىّ التى ألقاها على الغرائر قبيل مصيره إلى البصرة (الطبرى ٥ : ١٦٥) ألم يسخط الأشتر على أمير المؤمنين على بعد وقعة الجمل لأنه ولى ابن عمه عبد الله بن عباس على البصرة ولم يولها الأشتر ، ففارقه غاضباً ، ولحق به علىّ فتلافى ما يكون منه من الشر (الطبرى ٥ : ١٩٤ ، وانظر هامش ١١٩ من هذا الكتاب) . والخوارج على علىّ ألم ينبتوا من هذه النواة ؟ ولما قتل على ألم يقتل بمثل السلاح الذى قتل به عثمان ؟

(٢) كان يكون الوقت أمكن للطالب لو وجدت فى المدينة القوة التى كان يتمناها عثمان . ويقال إن قوة من جند الشام كانت خرجت من دمشق قاصدة المدينة ، فلما جاءها خبر شهادة أمير المؤمنين عثمان رجعت من الطريق ، فبقيت المدينة خاضعة لقتلة عثمان حتى بعد البيعة لعلىّ ، وهم إن نزلوا على أحكام هذه البيعة فيما لا ضرر منه عليهم ، لا ريب أنهم ينقلبون وحوشاً ضارية لو صدرت عليهم أحكام الله بإقامة الحدود فيما ارتكبوا من جرم شنيع .

والذى يكشف الغطاء فى ذلك أنَّ معاوية لما صار إليه الأمر لم يمكنه أن يقتل من قتلَة عثمان أحدًا إلا بحكم ، إلا من قتل فى حرب بتأويل، أو دُسَّ عليه فيما يقال (١) . حتى انتهى الأمر إلى زمن الحجّاج ، وهم يقتلون بالتهمة لا بالحقيقة (٢) . فتبين لكم أنهم ما كانوا فى ملكهم يفعلون ما أصبحوا له يطلبون .

والذى تثلج به صدوركم أنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم ذكر فى الفتن ، وأشار وبيَّن . وأنذر بالخوارج وقال « تقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحقّ (٣) » فبيَّن أن كل طائفة [منهما] تتعلق بالحق ، ولكن طائفة علىٍّ أدنى إليه (٤) . وقال تعالى ﴿ وإنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِين اقْتَتلوا

---

(١) إن سطوة الله وعدله الأعلى نزلا بأكثر قتلة عثمان فلم يبق منهم فى ولاية معاوية إلا المشرّد الخائف الباحث عن جحر يختبئ فيه ، وبزوال سطوتهم وتقلص شرهم لم يبق بمعاوية حاجة إلى تتبعهم .

(٢) يشير المؤلف إلى حادثة عمير بن ضابئ وكميل النخعى ، وقد تقدم خبرهما فى (ص ١٢٩ — ١٣٠)

(٣) فى صحيح مسلم (ك ١٢ ج ١٥٠ — ج ٣ ص ١١٣) من حديث أبى سعيد الخدرى : « تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق » .

(٤) أهل السنة المحمدية يدينون لله على أن علياً ومعاوية ومن معهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا جميعاً من أهل الحق ، وكانوا مخلصين فى ذلك . والذى اختلفوا فيه إنما اختلفوا عن اجتهاد ، كما يختلف المجتهدون فى كل ما يختلفون فيه . وهم — لإخلاصهم فى اجتهادهم — مثابون عليه فى حالتى الإصابة والخطأ ، وثواب المصيب أضعاف ثواب المخطىء ، وليس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر معصوم عن أن يخطئ وقد يخطئ بعضهم فى أمور ويصيب فى أخرى ، وكذلك الآخرون . أما من =

فأَصْلِحُوا بيْنهُما ، فإن بغَتْ إحْدَاهُما عَلَىٰ الأُخْرىٰ فَقاتِلُوا الَّتِى تبْغِى حَتَّىٰ تَفِيءَ إلَىٰ أَمْرِ اللهِ ، فإنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إنَّ اللهَ يُحبُّ الْمُقْسِطِين ﴾ ، [سورة الحجرات : ٩] فلم يخرجهم عن

= مرق عن الحق فى إثارة الفتنة الأولى على عثمان فلا يعد من إحدى الطائفتين اللتين على الحق وإن قاتل معها والتحق بها ، لأن الذين تلوثت أيديهم ونياتهم وقلوبهم بالبغى الظالم على أمير المؤمنين عثمان — كائناً من كانوا — استحقوا إقامة الحد الشرعى عليهم سواء استطاع ولى الأمر أن يقيم عليهم هذا الحد أو لم يستطع . وفى حالة عدم استطاعته فإن مواصلتهم تسعير القتال بين صالحى المسلمين كلما أحسوا منهم بالعزم على الإصلاح والتآخى — كما فعلوا فى وقعة الجمل وبعدها — يعد إصراراً منهم على الاستمرار فى الإجرام ما داموا على ذلك . فإذا قلنا إن الطائفتين كانتا من أهل الحق فإنما نريد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كانوا فى الطائفتين ومن سار معهم على سنته صلى الله عليه وسلم من التابعين ، ونرى أن علياً المبشر بالجنة أعلى مقاماً عند الله من معاوية خال المؤمنين وصاحب رسول رب العالمين ، وكلاهما من أهل الخير . وإذا اندس فيهم طوائف من أهل الشر فإن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . نقل الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٧ : ٢٧٧) عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الشعبانى قاضى إفريقية المتوفى سنة ٥٦ كان رجلا صالحاً من الآمرين بالمعروف — وذكر أهل صفين — فقال : « كانوا عرباً يعرف بعضهم بعضاً فى الجاهلية ، فالتقوا فى الإسلام معهم على الحمية وسنة الإسلام ، فتصابروا ، واستحيوا من الفرار ، وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء فى عسكر هؤلاء وهؤلاء فى عسكر هؤلاء ، فيستخرجون قتلاهم فيدفنونهم » ، قال الشعبى : « هم أهل الجنة ، لقى بعضهم بعضاً ، فلم يفر أحد من أحد » .

« الإيمان » بالبغى بالتأويل ، ولا سلبهم اسمَ « الأُخوَّة » بقوله بعده: ﴿ إنَّما الْمُؤْمِنُون إخوَةٌ فأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ ، [الحجرات : ١٠]

وقال صلى الله عليه وسلم فى عمار : « تقتله الفئة الباغية (١) » .

وقال فى الحسن « ابنى هذا سيد ، ولعل اللهَ أن يُصلحَ به بين فئتين عظِيمتينِ من المسلمين » ، فحسَّن له خلعه نفسه وإصلاحَه (٢)

---

(١) قال النبى صلى الله عليه وسلم ذلك لما كانوا يبنون المسجد ، فكان الناس ينقلون لبنة لبنة وعمار ينقل لبنتين لبنتين ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم فيه هذه الكلمة على ما رواه أبو سعيد الخدرى لعكرمة مولى ابن عباس ولعلى بن عبد الله بن عباس . والخبر فى كتاب الجهاد والسير من صحيح البخارى (ك ٥٦ ب ١٧ — ج ٣ ص ٢٠٧) . وقد كان معاوية يعرف من نفسه أنه لم يكن منه البغى فى حرب صفين ، لأنه لم يردها ، ولم يبتدئها ، ولم يأت لها إلا بعد أن خرج علىّ من الكوفة وضرب معسكره فى النخيلة ليسير إلى الشام كما تقدم فى ص ١٦٢ — ١٦٣ ، ولذلك لما قتل عمار قال معاوية « إنما قتله من أخرجه » . وفى اعتقادى الشخصى أن كل من قتل من المسلمين بأيدى المسلمين منذ قتل عثمان فإنما إثمه على قتلة عثمان لأنهم فتحوا باب الفتنة . ولأنهم واصلوا تسعير نارها ، ولأنهم الذين أوغروا صدور المسلمين بعضهم على بعض ، فكما كانوا قتلة عثمان فإنهم كانوا القاتلين لكل من قتل بعده ، ومنهم عمار ومن هم أفضل من عمار كطلحة والزبير ، إلى أن انتهت فتنتهم بقتلهم علياً نفسه وقد كانوا من جنده وفى الطائفة التى كان قائماً عليها . فالحديث من أعلام النبوة . والطائفتان المتقاتلتان فى صفين كانتا طائفتين من المؤمنين . وعلىّ أفضل من معاوية ، وعلىّ ومعاوية من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن دعائم دولة الإسلام . وكل ما وقع من الفتن فإثمه على مؤرثى نارها لأنهم السبب الأول فيها ، فهم الفئة الباغية التى قتل بسببها كل مقتول فى وقعتى الجمل وصفين وما تفرع عنها .

(٢) سيأتى الكلام على هذا عند الكلام على الصلح بين الحسن ومعاوية

وكذلك يروى أنه أَذن – فى الرؤيا – لعثمان فى أن يستسلم ويُفْطِر عنده الليلة (١) .

فهذه كلها أُمورٌ جرت على رسْم النزاع ، ولم تخرج عن طريق من طرق الفقه ، ولا عدتْ سبيل الاجتهاد الذى يؤجر فيه المصيب عشرة والمخطئُ أَجرًا واحدًا (٢)

---

(١) مضى الكلام على ذلك فى ص ١٣٨ – ١٣٩

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة (٢ : ٢١٩ – ٢٢٠) : « ولم يكن معاوية ممن يختار الحرب ابتداء ، بل كان من أشد الناس حرصاً على أن لا يكون قتال ، وكان غيره أحرص على القتال منه . وقتال صفين للناس فيه أقوال : فمنهم من يقول كلاهما كان مجتهداً مصيباً ، كما يقول ذلك كثير من أهل الكلام والفقه والحديث ممن يقول : كل مجتهد مصيب ، ويقول : كانا مجتهدين . وهذا قول كثير من الأشعرية والكرامية والفقهاء وغيرهم ، وهو قول كثير من أصحاب أبى حنيفة والشافعى وأحمد وغيرهم . وتقول الكرامية : كلاهما إمام مصيب ، ويجوز نصب إمامين للحاجة . ومنهم من يقول : بل المصيب أحدهما لا بعينه ، وهذا قول طائفة منهم . ومنهم من يقول : علىّ هو المصيب وحده ومعاوية مجتهد مخطئ ، كما يقول ذلك طوائف من أهل الكلام والفقهاء أهل المذاهب الأربعة . وقد حكى هذه الأقوال الثلاثة أبو عبد الله حامد من أصحاب الإمام أحمد وغيره . ومنهم من يقول . كان الصواب أن لا يكون قتال ، وكان ترك القتال خيراً للطائفتين ، فليس فى الاقتتال صواب ، ولكنْ علىّ كان أقرب إلى الحق من معاوية ، والقتال قتال فتنة ، ليس بواجب ولا مستحب ، وكان ترك القتال خيراً للطائفتين مع أن علياً كان أولى بالحق ، وهذا قول أحمد وأكثر أهل الحديث وأكثر أئمة الفقهاء ، وهو قول أكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وهو قول عمران بن حصين رضى الله عنه وكان ينهى عن بيع السلاح فى ذلك القتال ويقول : هو بيع السلاح فى الفتنة . وهو قول =

وما وقع من روايات فى كتب التاريخ ـ عدا ما ذكرنا ـ فلا تلتفتوا إلى حرف منها ، فإنها كلها باطلة .

قاصمة التحكيم

وقد تحكَّم الناسُ فى التحكيم فقالوا فيه مالا يرضاه الله . وإذا لحظتموه بعين المروءة ـ دون الديانة ـ رأيتم أنها سخافة حمل على سطْرها فى الكتب فى الأكثر عدمُ الدين ، وفى الأقل جهلٌ متين .

والذى يصح من ذلك ما روى الأئمة كخليفة بن خيّاط [1] ، الدارقُطْنى [2] : أنه لما خرج الطائفةُ العراقية مائة ألف والشامية فى

=أسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة وابن عمر وسعد بن أبى وقاص وأكثر من بقى من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم . ولهذا كان من مذهب أهل السنة الإمساك عما شجر بين الصحابة فإنه قد ثبت فضائلهم ووجبت موالاتهم ومحبتهم » .

(١) هو الإمام الحافظ أبو عمرو خليفة بن خياط العصفرى البصرى ، أحد أوعية العلم ، ومن شيوخ الإمام البخارى . قال عنه ابن عدى : هو صدوق مستقيم الحديث من متيقظى رواة السنة . توفى سنة ٢٤٠

(٢) هو الإمام الحافظ أبو الحسن على بن عمر الدارقطنى (٣٠٦ ــ ٣٨٥) كان مع جلالته فى الحديث من أئمة فقهاء الشافعية ، وله تقدم فى الأدب ورواية الشعر . وجاء من بغداد إلى مصر ليساعد ابن خنزابة وزير كافور على تأليف مسنده فبالغ الوزير فى إجلاله . قال الحافظ عبد الغنى بن سعيد « أحسن الناس كلاماً على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة . على بن المدينى فى وقته ، وموسى بن هارون القيسى فى وقته ، والدارقطنى فى وقته » .

سبعين أو تسعين ألفا ونزلوا على الفُرات بصِفِّين ، اقتتلوا فى أول يوم – وهو الثلاثاء – على الماء فغلب أهل العراق عليه [1] .

ثم التقوا يوم الأربعاء لسبع خلون من صفر سنة [سبع وثلاثين] ويوم الخميس ويوم الجمعة وليلة السبت [2] ، ورُفعت المصاحف من أهل الشام ، ودعوا إلى الصلح ، وتفرّقوا على أن تجعل كل طائفة أمرها إلى رجل حتى يكون الرجلان يحكمان بين الدعْوِيَيْن بالحق ، فكان من جهة علىّ أبو موسى [3] ، ومن جهة معاوية عمرُو بن العاص

---

(١) لم يكن القتال على الماء جدياً ، وقد قال عمرو بن العاص يومئذ « ليس من النصّف أن نكون ريانين وهم عطاش » . والذين تظاهروا فى الجيش الشامى بمنع العراقيين عن الماء أرادوا أن يذكروهم بمنعهم الماء عن أمير المؤمنين عثمان فى عاصمة خلافته وهو الذى اشترى بئر رومة من ماله ليستقى منه إخوانه المسلمون وبعد اشتراكهم فى الماء تناوشوا شهر ذى الحجة من سنة ٣٦ ثم تهادنوا شهر المحرم من سنة ٣٧ ، ووقعت وقائع شهر صفر التى سيشير إليها المؤلف .

(٢) وكانت تسمى « ليلة الهرير » اقتتل الناس فيها حتى الصباح .

(٣) وكان آخر العهد بأبى موسى عندما كان والياً على الكوفة ، وجاء دعاة علىّ يحرضون الكوفيين على لبس السلاح والالتحاق بجيش علىّ استعداداً لما يريدونه من قتال مع أصحاب الجمل فى البصرة ، ثم مع أنصار معاوية فى الشام . فكان أبو موسى يشفق على دماء المسلمين أن تسفك بتحريض الغلاة ، ويذكر أمة محمد صلى الله عليه وسلم بقول نبيهم فى الفتنة « القاعد فيها خير من القائم » ، فتركه الأشتر يحدث الناس فى المسجد بالحديث النبوى ، وأسرع إلى دار الإمارة فاحتلها . فلما عاد إليها أبو موسى منعه الأشتر من الدخول وقال له : اعتزل إمارتنا . فاعتزلهم أبو موسى واختار الإقامة فى قرية يقال لها عُرْض بعيداً عن الفتن وسفك الدماء . فلما شبع الناس من سفك الدماء واقتنعوا بأن=

وكان أبو موسى رجلا تقيًا ثقِفًا فقيهًا عالمًا حسبما بيّناه فى كتاب (سراج المريدين) ، أرسله النبى صلى الله عليه وسلم إلى اليمن مع مُعاذ ، وقدمه عمر وأثنى عليه بالفهم [١] . وزعمت الطائفة التاريخية الركيكة أنه كان أبله ضعيفَ الرأى مخدوعاً فى القول ، وأنَّ ابن العاص كان ذا دهاءٍ وأرب حتى ضربت الأمثال بدهائه تأكيدا لما أرادت من الفساد، اتبعَ فى ذلك بعضُ الجهال بعضًا وصنفوا فيه حكايات . وغيرُه من الصحابة كان أحذقَ منه وأدهى ، وإنما بنوا ذلك على أن عمرًا لما غدر أبا موسى فى قصة التحكيم صار له الذكرُ فى الدهاء والمكر .

وقالوا : إنهما لما اجتمعا بأَذْرُح من دُومَة الْجَندل [٢] ، وتفاوضا ، اتفقا على أن يخلعا الرجلين [٣] . فقال عمرو لأبى موسى : اسبقْ بالقول .

= أبا موسى كان ناصحاً للمسلمين فى نهيهم عن القتال طلبوا من على أن يكون أبو موسى هو ممثل العراق فى أمر التحكيم ، لأن الحالة التى كان يدعو إليها هى التى فيها الصلاح فأرسلوا إلى أبى موسى وجاءوا به من عزلته .

(١) واختصه بكتابه الشهير فى القضاء وآدابه وقواعده .

(٢) أذرح : قرية من أعمال الشراة تقع فى منطقة بين أراضى شرق الأردن والمملكة السعودية فى الأطراف الجنوبية من بادية الشام .

(٣) من الحقائق ما إذا أسيء التعبير عنه وشابته شوائب المغالطة يوهم غير الحقيقة ، فينشأ عن ذلك الاختلاف فى الحكم عليه . ومن ذلك حادثة التحكيم وقول المغالطين إن أبا موسى وعمراً اتفقا على خلع الرجلين ، فخلعهما أبو موسى ، واكتفى عمرو بخلع علىّ دون معاوية . وأصل المغالطة من تجاهل المغالطين أن معاوية لم يكن خليفة ، ولا هو=

فتقدَّم فقال : إني نظرتُ فخلعتُ عليّاً عن الأمر ، وينظر المسلمون لأنفسهم ، كما خلعتُ سيفي هذا من عنقي – أو من عاتقي – وأخرجه من

=ادعى الخلافة يومئذ حتى يحتاج عمرو إلى خلعها عنه . بل إن أبا موسى وعمراً اتفقا على أن يعهدا بأمر الخلافة على المسلمين إلى الموجودين على قيد الحياة من أعيان الصحابة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . واتفاق الحكمين على ذلك لا يتناول معاوية لأنه لم يكن خليفة ، ولم يقاتل على الخلافة ، وإنما كان يطالب بإقامة الحد الشرعي على الذين اشتركوا فى قتل عثمان . فلما وقع التحكيم على إمامة المسلمين ، واتفق الحكمان على ترك النظر فيها إلى كبار الصحابة وأعيانهم تناول التحكيم شيئاً واحداً هو الإمامة ؛ أما التصرف العملى فى إدارة البلاد التى كانت تحت يد كل من الرجلين المتحاربين فبقى كما كان : على متصرف فى البلاد التى تحت حكمه ، ومعاوية متصرف فى البلاد التى تحت حكمه ، فالتحكيم لم يقع فيه خداع ولا مكر ، ولم تتخلله بلاهة ولا غفلة . وكان يكون محل للمكر أو الغفلة لو أن عمراً أعلن فى نتيجة التحكيم أنه ولى معاوية إمارة المؤمنين وخلافة المسلمين ، وهذا لم يعلنه عمرو ، ولا ادعاه معاوية ، ولم يقل به أحد فى الثلاثة عشر قرناً الماضية . وخلافة معاوية لم تبدأ إلا بعد الصلح مع الحسن بن على ، وقد تمت بمبايعة الحسن لمعاوية ، ومن ذلك اليوم فقط سمى معاوية أمير المؤمنين . فعمرو لم يغالط أبا موسى ولم يخدعه ، لأنه لم يعط معاوية شيئاً جديداً ، ولم يقرر فى التحكيم غير الذى قرره أبو موسى . ولم يخرج عما اتفقا عليه معاً ، فبقيت العراق والحجاز وما يتبعهما تحت يد من كانت تحت يده من قبل ، وبقيت الشام وما يتبعها تحت يد من كانت تحت يده من قبل ، وتعلقت الإمامة بما سيكون من اتفاق أعيان الصحابة عليها ، وأى ذنب لعمرو فى أى شىء مما وقع ؟ إن البلاهة لم تكن من أبى موسى ، ولكن ممن يريد أن يفهم الوقائع على غير ما وقعت عليه . فليفهمها كل من شاء كما يشاء . أما هى فظاهرة واضحة لكل من يراها كما هى .

عنقه فوضعه فى الأرض . وقام عمرو فوضع سيفه فى الأرض وقال : إنى نظرتُ فأثبت معاوية فى الامر [1] كما أثبت سيفى هذا فى عاتقى . وتقلّده . فأنكر أبو موسى ، فقال عمرو : كذلك اتفقنا . وتفرّق الجمعُ على ذلك من الاختلاف .

---

(١) أىّ أمر ؟ إن كان الاستمرار فى إدارة البلاد التى تحت يده ، فإن هذا الأمر ماض على معاوية وعلىّ معاً ، فكل منهما باق فى الحكم على ما تحت يده . وإن كان المراد بالأمر أمر الإمامة العامة وإمارة المؤمنين فإن معاوية لم يكن إماماً — أى خليفة — حتى يثبته عمرو كما كان . وقد أوضحنا هذه الحقيقة فى الفقرة السابقة . وهذه هى نقطة المغالطة التى هزأ بها مؤرخو الإفك المفترى فسخروا بجميع قرائهم وأوهموهم بأن هناك خليفتين أو أميرين للمؤمنين ، وأن الاتفاق بين الحكمين كان على خلعهما معاً ، وأن أبا موسى خلع الخليفتين تنفيذاً للاتفاق ، وأن عمراً خلع أحدهما وأبقى الآخر خليفة خلافاً للاتفاق . وهذا كله كذب وإفك وبهتان . والذى فعله عمرو هو نفس الذى فعله أبو موسى لا يفترق عنه قط فى نقير ولا قطمير . وبقى أمر الإمامة والخلافة أو إمارة المؤمنين معلقاً على نظر أعيان الصحابة ليروا فيه رأيهم متى شاءوا وكيف شاءوا. وإذا كانت هذه الخطوة الثانية لم تتم فما فى ذلك تقصير من أبى موسى ولا من عمرو ، فهما قد قاما بمهمتهما بحسب ما أدى إليه اجتهادهما واقتناعهما ولو لم تكلفهما الطائفتان معاً بأداء هذه المهمة لما تعرضا لها ، ولا أبديا رأياً فيها . ولو كان موقف أبى موسى فى هذا الحادث التاريخى العظيم موقف بلاهة وفشل لكان ذلك سبة عليه فى التاريخ ، وإن الأجيال التى بعده فهمت موقفه على أنه من مفاخره التى كتب الله له بها النجاح والسداد ، حتى قال ذو الرمة الشاعر يخاطب حفيده بلال بن أبى بردة بن أبى موسى :

أبوك تلافى الدين والناس بعدما ... تشاءوا وبيت الدين منقطع الكسر
فشد إصار الدين أيام أذرح ... ورد حروبا قد لقحن إلى عقر

عاصمة

قال القاضي أبو بكر (رضي الله عنه) : هذا كله كذبٌ صُراح ما جرى منه حرفٌ قطُّ . وإنما هو شيءٌ أخبر عنه المبتدعة ، ووضعته التاريخية للملوك ، فتوارثه أهلُ المجانة والجهارة بمعاصي الله والبِدَع [1]

---

(١) إن التاريخ الإسلامي لم يبدأ تدوينه إلا بعد زوال بني أمية وقيام دول لا يسر رجالها التحدث بمفاخر ذلك الماضي،ومحاسن أهله فتولى تدوين تاريخ الإسلام ثلاث طوائف : طائفة كانت تنشد العيش والجدة من التقرب إلى مبغضي بني أمية بما تكتبه وتؤلفه . وطائفة ظنت أن التدوين لايتم ، ولا يكون التقرب إلى الله ، إلا بتشويه سمعة أبي بكر وعمر وعثمان وبني عبد شمس جميعاً . وطائفة ثالثة من أهل الإنصاف والدين — كالطبري وابن عساكر وابن الأثير وابن كثير — رأت أن من الإنصاف أن تجمع أخبار الإخباريين من كل المذاهب والمشارب — كلوط بن يحيى الشيعي المحترق ، وسيف ابن عمر العراقي المعتدل — ولعل بعضهم اضطر إلى ذلك إرضاء لجهات كان يشعر بقوتها ومكانتها . وقد أثبت أكثر هؤلاء أسماء رواة الأخبار التي أوردوها ليكون الباحث على بصيرة من كل خبر بالبحث عن حال راويه . وقد وصلت إلينا هذه التركة لا على أنها هي تاريخنا ، بل على أنها مادة غزيرة للدرس والبحث يستخرج منها تاريخنا ، وهذا ممكن وميسور إذا تولاه من يلاحظ مواطن القوة والضعف في هذه المراجع ، وله من الألمعية ما يستخلص به حقيقة ما وقع ويجردها عن الذي لم يقع ، مكتفياً بأصول الأخبار الصحيحة مجردة عن الزيادات الطارئة عليها . وإن الرجوع إلى كتب السنة ، وملاحظات أئمة الأمة . مما يسهل هذه المهمة . وقد آن لنا أن نقوم بهذا الواجب الذي أبطأنا فيه كل الإبطاء ، وأول من استيقظ في عصرنا للدسائس المدسوسة على تاريخ بني أميه العلامة الهندي الكبير الشيخ شبلي النعماني في انتقاده لكتب جرجي زيدان، ثم أخذ أهل الألمعية من المنصفين في =

وإنَّما الذى روى الأَئمةُ الثقات الأَثْبَات أَنهما لما اجتمعا للنظر فى الأَمر – فى عُصْبة كريمة من الناس منهم ابنُ عمر ونحوه – عزَل عمرو معاويةَ (١) .

ذكر الدارقُطْنى بسنده إلى حُضين بن المنذر (٢) : لما عزل عمرو معاوية جاء [أَى حُضين بن المنذر] فضرب فُسْطاطَه قريبًا من فسطاط معاوية ، فبلغ نبأَه معاوية ، فأَرسل إليه فقال : إنه بلغنى عن هذا [أَى عن عمرو] كذا وكذا (٣) ، فاذهب فانظرْ ما هٰذَا الذى بلغنى عنه . فأَتيته فقلت : أَخبرْنى عن الأَمر الذى وليت أَنت وأَبو موسىٰ كيف صنعتما فيه ؟ قال : قد قال الناس فى ذٰلك ما قالوا ، والله ما كان الأَمر على ما قالوا (٤) ، ولٰكن قلتُ لأَبى موسىٰ : ما ترى فى هٰذا الأَمر ؟ قال : أَرى أَنه فى النفر الذين تُوُفِّىَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ . قلت : فأَين تجعلنى أَنا ومعاوية ؟ فقال : إن يُستعنْ

= دراسة الحقائق ، فبدأت تظهر لهم وللناس منيرة مشرقة ، ولا يبعد – إذا استمر هذا الجهاد فى سبيل الحق – أن يتغير فهم المسلمين لتاريخهم ، ويدركوا أسرار ما وقع فى ماضيهم من معجزات .

(١) أى بتقريره مع أبى موسى أن إمامة المسلمين يترك النظر فيها إلى أعيان الصحابة .

(٢) قال الدارقطنى : حدثنا إبراهيم بن همام ، حدثنا أبو يوسف الفلوسى وهو يعقوب بن عبد الرحمن بن جرير ، حدثنا الأسود بن شيبان ، عن عبد الله بن مضارب عن حضَين بن المنذر (وحضين من خواص علىّ الذين حاربوا معه) .

(٣) أى عزله علياً ومعاوية ، وتفويضه الأمر إلى كبار الصحابة .

(٤) أى أنهما لم يعزلا ، ولم يوليا ، ولكن تركا الأمر لأعيان الصحابة .

بكما ففيكما معُونة ، وإن يُستغْن عنكما فطالما استغنى أمرُ الله عنكما .
قال : فكانت هى التى قَتل معاويةُ منها نفسه : فأتيته فأخبرته [أى فأتى حُضين معاوية فأخبره] أن الذى بلغه عنه كما بلغه . فأرسل إلى أبى الأعور الذكوانى (1) فبعثه فى خيله ، فخرج يركض فرسه ويقول : أين عدوُّ الله أين هٰذا الفاسق ؟

قال أبو يوسف (2) : أظنه قال « إنما يريد حوباءَ نفسه » فخرج [عمرو] إلى فرس تحت فسطاطه فجال فى ظهره عريانًا ، فخرج يركضه نحو فسطاط معاوية وهو يقول : « إن الضَّجُورَ قد تحتَلِبُ العُلْبة ، يا معاوية إن الضجور قد تحتلب العلبة (3) » فقال معاوية : « أجل ، وتربِذُ الحالب فتدقّ أنفسه ، وتكفأُ إناءه (4) » .

---

(1) هو أبوالأعور السلمى (وذكوان قبيلة من سُليم) واسمه عمرو بن سفيان ، كان من كبار قواد معاوية . وفى حرب صفين طلب الأشتر أن يبارزه فترفع أبو الأعور السلمى عن ذلك لأنه لم ير الأشتر من أنداده . انظر المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٢٦٤

(2) أى الفلوسى راوى هذا الخبر عن الأسود بن شيبان عن عبد الله بن مضارب عن حضين .

(3) الضجور : الناقة التى ترغو وتعربد عند الحلب . و « قد تحلب الضجور العلبة » مثل ، ومعناه : إن الناقة التى ترغو قد تحلب ما يملأ العلبة ، وهى قدح ضخم تحلب فيه اللبن . يضربونه للسيئ الخلق قد يصاب منه الرفق واللين ، وللبخيل قد يستخر منه المال .

(4) ربذت يده بالقداح أى خفت : والربذ خفة القوائم فى المشى ، وخفة الأصابع فى العمل . وفلانٌ ذو ربذات : أى ذو فلتات وكثير السقط فى كلامه .

قال الدارقطني – وذكر سندًا عدلاً [١] – : ربعي عن أبي موسى أن عمرو بن العاص قال : « والله لئن كان أبو بكر وعمر تركا هذا المال وهو يحلُّ لهما منه شيء لقد غبِنا ونقص رأيُهما . وأيمُ الله ما كانا مغبونَين ولا ناقصيْ الرأْي . ولئن كانا امرأَين يحرم عليهما هذا المال الذي أصبناه بعدهما لقد هلكنا . وأيم الله ما جاءَ الوهم إلا من قِبلنا [٢] »

فهذا كان بدءُ الحديث ومنتهاه : فأَعرضوا عن الغاوين ، وازجروا العاوين وعرِّجوا عن سبيل الناكثين ، إلى سَنَنَ المهتدين . وأمسكوا الأَلسنة عن السابقين إلى الدين . وإياكم أن تكونوا يوم القيامة من الهالكين بخصومة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد هلك من كل أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم خصْمه . ودعوا ما مضى ، فقد قضى الله ما قضى . وخذوا لأَنفسِكُم الجدّ فيما يَلْزَمُكُمْ اعتِقادًا وعملًا . ولا تسترسلوا بأَلْسِنَتِكمْ فيما لا يعنيكم مع كل ناعق اتَّخذ الدِّين هملًا ، فإن الله لا يضيعُ أَجْر منْ أَحْسَن عملًا. ورحم الله الرَّبيع بن خيْثم [٣] فإنه لما قيل له : قُتِل الْحُسيْن ! قال : أَقتلوه ؟ قالوا : نعم . فقال : ﴿ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماوَاتِ والْأَرْضِ عالِم الْغيْبِ والشَّهادةِ ، أَنْتَ تحْكُمُ

(١) قال حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم ودعلج بن أحمد قالا : حدثنا محمد ابن أحمد بن النضر ، حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة ، عن عبد الله بن عمر ، عن ربعي . . . الخ وربعي هو ابن حراش العبسي أبو مريم الكوفي .

(٢) أورد المؤلف هذا الخبر للدلالة على ورع عمرو ومحاسبته لنفسه وتذكيرها بسيرة السلف .

(٣) هو من تلاميذ عبد الله بن مسعود وأبي أيوب الأنصاري وعمرو بن ميمون ، وأخذ عنه الإمام الشعبي وإبراهيم النخعي وأبو بردة . قال له ابن مسعود لو رآك النبي صلى الله عليه وسلم لأحبك . توفي سنة ٦٤

بيْن عِبادِكَ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُون ﴾ (الزمر : ٤٦) . ولم يزد على هٰذا أَبدًا . فهذا العقل والدين ، والكفُّ عن أَحوال المسلمين ، والتسليم لربِّ العالمين .

قاصمة

فإن قيل : إنما يكون ذلك فى المعانى التى تُشْكل ، وأما هذه الأُمور كلُّها فلا إشكال فيها ، لأَنَّ النبى صلى الله عليه وسلم نصّ على استخلاف علىّ بعده فقال « أنت منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبىَّ بعْدى [1] » ، [وقال] : « اللَّهُمَّ وَالِ منْ وَالاه ، وعادِ منْ عاداهُ ، وانْصُرْ من نصره ، واخذُلْ منْ خَذلَه [2] » ، فلم يبق بعد هذا خلاف لمعاند .

---

(١) فى كتاب المغازى من صحيح البخارى (ك ٦٤ ب ٧٨ — ج ٥ ص ١٢٩) وفى فضائل الصحابة من صحيح مسلم (ك ٤٤ ح ٣١ — ج ٧ ص ١٢٠) من حديث سعد بن أبى وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى تبوك واستخلف علياً ، فقال على : أتخلفنى فى الصبيان والنساء ؟ قال : « ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبى بعدى » . وانظر المناقشة فى هذا الحديث بين السيد عبد الله بن الحسين السويدى سنة ١١٥٦ وبين الملاباشى على أكبر شيخ علماء الشيعة ومجتهديهم فى زمن نادر شاه فى كتاب (مؤتمر النجف) ص ٢٥ — ٢٧ طبع السلفية .

(٢) فى مسند أحمد (١ : ٨٤ ، ٨٨ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٥٢ الطبعة الأولى رقم ٦٤١ ، ٦٧٠ ، ٩٥٠ ، ٩٦١ ، ١٣١٠ . وفى ٤ : ٢٨١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ الطبعة الأولى و ٥ : ٣٤٧ ، ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ٤١٩ الطبعة الأولى) . وانظر تفسير الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب لهذا الحديث فى ص ١٨٥ — ١٨٦ ، وسيأتى كلام المؤلف على الحديثين فى ص ١٩٢

فتعدَّى عليه أبو بكر واقتعدَ فى غير موضعه .

ثم خلفه فى التعدّى عمر .

ثم رُجى أن يوفق عمر للرجوع إلى الحق ، فأبهم الحال ، وجعلها شورى قصرًا للخلاف ، للذى سمع من النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم تحيَّل ابنُ عوف حتى ردها عنه إلى عثمان .

ثم قتل عثمان لتسوُّره على الخلافة وعلى أحكام الشريعة ، وصار الأمر إلى على بالحق الإلٰهىّ النبوى ، فنازعه من عاقده ، وخالف عليه من بايعه ، ونقض عهده من شدّه .

وانتدب أهلُ الشام إلى الفُسوق فى الدين ، بل الكفر (١) .

---

(١) كل هذه الفقرات من هذيان مرتكبى « القاصمة » وشيعتهم . وقد أجابه المؤلف فى « العاصمة » التالية مدحضاً سخافاتهم ، ولكن اتسع عليه ميدان القول ففاته الكلام عن موقف أهل الشام من هذه الفتن التى وقعت فى الإسلام . وقد رأيت فى ص١٢١ قول ابن الكواء أحد زعماء الفتنة وهو يصف أشباهه فى الأمصار الكبرى : « وأما أهل الأحداث من أهل الشام فأطوع الناس لمرشدهم ، وأعصاهم لمغويهم » . وإذا كان أهل الأحداث فى الشام هكذا على ما شهد به زعيم من زعماء الفتنة ، فإن أهل العافية والإيمان منهم قد شهد لهم أمير المؤمنين علىّ فيما نقله ابن كثير فى البداية والنهاية (٨ : ٢٠) عن عبد الرزاق بن همام الصنعانى أحد الأئمة الأعلام الحفاظ ، عن شيخه معمر بن راشد البصرى وهو أيضاً من الأعلام ، عن الزهرى مدوّن السنة وشيخ الأئمة ، أن عبد الله ابن صفوان الجمحى قال : قال رجل من صفين « اللهم العن أهل الشام » فقال له علىّ : « لا تسبَّ أهل الشام » فإن بها الأبدال ، فإن بها الأبدال ، فإن بها الأبدال » وروى هذا الحديث من وجه آخر مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وروى أبو إدريس الخولانى وهو من أعلام حملة السنة والشريعة ومن شيوخ الحسن البصرى وابن سيرين ومكحول=

وهذه حقيقة مذهبهم [١] ، أن الكلَّ عندهم كَفَرة [٢] ، لأن مِن

=وأضرابهم أن أبا الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بينا أنا نائم رأيت الكتاب احتمل من تحت رأسي ، فظننت أنه مذهوب به ، فأتبعته بصري فعمد به إلى الشام . وإن الإيمان – حين تقع الفتنة – بالشام » . وروى هذا الحديث من الصحابة – غير أبي الدرداء – أبو أمامة وعبد الله بن عمرو بن العاص . وللمقارنة بين أهل الشام والذين كانوا يحاربونهم ننقل عن ابن كثير (٧ : ٣٢٥) خبر الأعمش عن عمرو بن مرة ابن عبد الله بن الحارث عن زهير بن الأرقم قال : خطبنا عليّ يوم جمعة فقال ، نبئت أن بسراً قد طلع اليمن ، وإني والله لأحسب أن هؤلاء القوم سيظهرون عليكم ، ومايظهرون عليكم إلا بعصيانكم إمامكم وطاعتهم إمامهم ، وبخيانتكم وأمانتهم ، وإفسادكم في أرضكم وإصلاحهم . وقد بعثتُ فلاناً فخان وغدر وبعثت فلاناً فخان وغدر وبعث المال إلى معاوية . لو ائتمنت أحدكم على قدح لأخذ علاقته . اللهم سئمتهم وسئموني ، وكرهتهم وكرهوني . اللهم فأرحهم مني وأرحني منهم . بهذا وصف عليّ جيشه وشيعته ، وبعكسه في الفضائل وصف أهل الشام الذين اضطروا إلى أن يقفوا من طائفته موقف المحارب . وليس بعد وصف عليّ لأهل الشام بالطاعة والأمانة والإصلاح ، إلا الضرب بهذه القنبلة في وجوه واصفيهم بالكفر والفسوق في الدين .

(١) أي حقيقة مذهب الشيعة وأعداء الصحابة .

(٢) يستثنون منهم – بعد عليّ وبعض آله – سلمان الفارسي وأبا ذر والمقداد ابن الأسود وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وأبا الهيثم بن التيهان وسهل بن حنيف وعبادة ابن الصامت وأبا أيوب الأنصاري وخزيمة بن ثابت وأبا سعيد الخدري . وبعض الشيعة يرى أن الطيبين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أقل عدداً من هؤلاء .

مذهبهم التكفير بالذنوب [1] . وكذلك تقول هذه الطائفة التى تسمى بالإمامية : إن كل عاص بكبيرة كافر [2] على رسم القَدَرية [3] ، ولا أعصىٰ من الخلفاء المذكورين [4] ومن ساعدهم على أمرهم ، وأصحابُ محمد صلى الله عليه وسلم أحرصُ الناس على دنيا ، وأقلُّهم حميَّة على دِين ، وأهْدمُهم لقاعدة وشريعة [5] .

عاصمة

قال القاضى أبو بكر (رضى الله عنه) : يكفيك من شرٍّ سماعُه ، فكيف التملمُل به . خمسمائة عام عداً إلى يوم مقالى هٰذا — لا ننقص منها يومًا ولا نزيد يومًا — وهو مهل شعبان سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، وماذا يرجى بعد التمام إلا النقص ؟

---

(1) ومن مذهبهم أن علياً وأحد عشر من آله معصومون عن الخطأ ، وأنهم مصدر تشريع . ويقبلون التشريع الذى ينسبه إليهم رواة يشترط فيهم التشيع والموالاة ، وإن عرفهم الناس بما ينافى الصدق أو يناقض ما هو معلوم من الدين بالضرورة .

(2) ومدلول الكبيرة عندهم غير مدلولها عند المسلمين .

(3) أى الذين ينكرون القدر . قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة (2 : 24) : «كان قدماء الشيعة متفقين على إثبات القدر والصفات : وإنما شاع فيهم رد القدر من حين اتصلوا بالمعتزلة فى دولة بنى بويه» . ثم فجروا وجعلوا (الغلوّ) من ضروريات مذهبهم من زمن الدولة الصفوية إلى الآن .

(4) وهم أبو بكر وعمر وعثمان .

(5) ومع ذلك يوجد فيمن ينتمى إلى الأزهر ، وإلى السّنة ، من يوالى دار التقريب بين المذاهب التى تأسست فى القاهرة بعد الحرب العالمية الثانية ، ويتسلى بصرف بقية عمره فى الاختلاف إليها وتبادل التقية مع القائمين عليها

ما رضيَتِ النصارىٰ واليهودُ فى أَصحاب موسىٰ وعيسىٰ ما رضيتِ الروافضُ فى أَصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين حكموا عليهم بأَنهم قد اتفقوا على الْكفر والباطل [١] . فما يُرجىٰ من هؤلاءِ ، وما يُستبقىٰ منهم ؟ وقد قال الله تعالى ﴿ وعد اللهُ الذِين آمنُوا مِنْكُمْ وعملُوا الصَّالِحات لَيسْتخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِين مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دِينَهُم الَّذِى ارْتضَىٰ لَهُمْ ولَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِن بَعْدَ خوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ ، (النور : ٥٥) [٢] ، وهذا قول صدق ، ووعد حق . وقد انقرض عصرُهم ولا خليفة فيهم ولا تمكين ، ولا أَمن ولا سكون ، إلا فى ظلم وتعدّ وغصب وهرج وتشتيت وإِثارة ثائرة .

وقد أَجمَعتِ الأُمةُ على أَن النبيَّ صلى الله عليه وسلم ما نصَّ على أَحد يكون من بعده [٣] . وقد قال العباسُ لعلىّ — فيما روى عنه عبدُ الله

---

(١) أخرج الحافظ ابن عساكر (٤ : ١٦٥) أن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب قال لرجل من الرافضة . « والله لئن أمكننا الله منكم لنقطعن أيديكم وأرجلكم ، ثم لا نقبل منكم توبة » . فقال له رجل . لم لا تقبل منهم توبة ؟ قال : نحن أعلم بهؤلاء منكم . إن هؤلاء إن شاءوا صدّقوكم ، وإن شاءوا كذبوكم وزعموا أن ذلك يستقيم لهم فى (التقية) . ويلك ! إن التقية هى باب رخصة للمسلم ، إذا اضطر إليها وخاف من ذى سلطان أعطاه غير ما فى نفسه يدرأ عن ذمة الله ، وليست باب فضل ، إنما الفضل فى القيام بأمر الله وقول الحق . وايم الله ما بلغ من التقية أن يجعل بها لعبد من عباد الله أن يُضل عباد الله » . . .

(٢) انظر ص ٥١ — ٥٣

(٣) نقل الحافظ ابن عساكر (٤ : ١٦٦) عن الحافظ البيهقى حديث فضيل ابن مرزوق أن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب سئل فقيل له . =

ابنُه ـ قال عبد الله بن عباس : خرجَ عليٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجَعه الذى تُوُفى فيه ، فقال الناس : يا أبا حسن ، كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أصبح بحمد الله بارئًا . فأخذ بيده عباسُ بن عبد المطلب فقال له : أنتَ والله بعد ثلاث عبدُ العصا . وإنى لأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم سوف يُتوفى من وجعه هذا . إنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت . اذهبْ بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلنسْأله : فيمن يكون هذا الأمر بعده ، فإن كان فينا علمنا ذلك وإن كان فى غيرنا علمنا فأوصىٰ بنا . فقال علىّ : إنا والله لئن سألناها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فمنعَناها لا يعطيناها الناسُ بعده ، وإنى والله لا أسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

قال القاضى أبو بكر (رضى الله عنه) : رأىُ العباسُ عندى أصحٌّ ،

= ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم «من كنت مولاه فعلىّ مولاه» ؟ فقال : «بلى ، ولكن والله لم يعن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك الإمارة والسلطان . ولو أراد ذلك لأفصح لهم به ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أنصح للمسلمين . ولو كان الأمر كما قيل لقال : يا أيها الناس هذا ولى أمركم والقائم عليكم من بعدى ، فاسمعوا له وأطيعوا . والله لئن كان الله ورسوله اختار علياً لهذا الأمر وجعله القائم للمسلمين من بعده ثم ترك علىّ أمر الله ورسوله ، لكان علىّ أول من ترك أمر الله ورسوله» . ورواه البيهقى من طرق متعددة فى بعضها زيادة وفى بعضها نقصان والمعنى واحد .

(١) رواه البخارى فى كتاب المغازى من صحيحه (ك ٦٤ ب ٨٣ ـ ج ٥ ص ١٤٠ ـ ١٤١) . ونقله ابن كثير فى البداية والنهاية (٥ : ٢٢٧ و ٢٥١) من حديث الزهرى عن عبد الله بن كعب بن مالك عن ابن عباس . ورواه الإمام أحمد فى مسنده (١ : ٢٦٣ و ٣٢٥ رقم ٢٣٧٤ و ٢٩٩٩) .

وأقربُ إلى الآخرة ، والتصريح بالتحقيق . وهذا يبطل قول مدّعى الإشارة باستخلاف علىّ ، فكيف أن يُدَّعى فيه نصّ ؟!

فأمّا أبو بكر ، فقد جاءتِ امْرأةٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها أن ترجع إليه . قالت له : فإن لم أجدْكَ — كأنها تعنى الموت — قال : تجدين أبا بكر [1] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر وقد وقع بينه [أى بين عمر] وبين أبى بكر كلام . فتمعّر وجهُ النبي صلى الله عليه وسلم [2] ، حتى أشفَق من ذلك أبو بكر ، وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم « هل أنتم تاركو لى صاحبى (مرّتين) . إنى بُعثت إليكم فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقتَ . ألا إنى أبرأُ إلى كلّ خليل من خلته [3] » .

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لو كنتُ متخذًا فى الإسلام خَليلا لاتخذتُ أبا بكر خليلًا . ولكن أخى ، وصاحبى [4] » .

وقد اتخذ اللهُ صاحبكم خليلًا . لا يبقينَّ فى المسجد خوخة إلّا خوخة

---

(١) فى كتاب فضائل الصحابة من صحيح البخارى (ك ٦٢ ب ٥ — ج ٤ ص ١٩١) من حديث جبير بن مطعم قال . أتت امرأة النبى صلى الله عليه وسلم فأمرها أن ترجع إليه . قالت : أرأيتَ إن جئتُ ولم أجدك — كأنها تقول الموت — قال صلى الله عليه وسلم « إن لم تجدينى فأتى أبا بكر » .

(٢) تمعر وجهه : تغير ، وذهب ما كان فيه من النضارة ، وإشراق اللون .

(٣) فى كتاب مناقب الصحابة من صحيح البخارى (ك ٦٢ ب ٥ — ج ٤ ص ١٩٢) عن أبى الدرداء مطولا .

(٤) فى الباب المذكور من كتاب مناقب الصحابة فى صحيح البخارى (ج ٤ ص ١٩١) من حديث عكرمة عن ابن عباس .

أبى بكر [١] .

وقد قال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : « بينا أنا نائم رأيتُنى على قَلِيب [٢] عليها دلو ، فنزعتُ منها ما شاءَ الله ، ثم أَخذها ابنُ أَبى قحافةَ فنزع منها ذَنوبا أَو ذنوبين [٣] وفى نزعه ضعف والله يغفر له ، ثم استحالت غربا [٤] ، فأَخذها ابن الخطاب ، فلم أَر عبْقرِيًّا من الناس ينزع نزع عمر ، حتى ضرب الناسُ بعطن [٥] » .

وقد ثبت أَن النبى صلى الله عليه وسلم صعد أُحدًا وأَبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، فرجف بهم : فقال : « اثبتْ أُحُد ، فإنما عليك نبىٌّ وصدِّيق وشهيدان [٦] » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يُكلَّمون من غير أَن يكونوا أَنبياءَ ، فإن يكن فى أُمتى

(١) فى هذه الجملة اضطراب ونقص . وانظر لهذا المعنى حديث أبى سعيد الخدرى فى ذلك الموضع من صحيح البخارى (ج ٤ ص ١٩٠ — ١٩١) ؛ وحديث ابن عباس فى مسند أحمد (١ : ٢٧٠ رقم ٢٤٣٢) ، والبداية والنهاية (٥ : ٢٢٩ و ٢٣٠) .

(٢) القليب : البئر غير المطوية .

(٣) الذنوب : الدلو العظيمة إذا ملئت ماء . وابن أبى قحافة هو أبو بكر .

(٤) أى ثم عظمت فصارت كالدلو الواسعة التى تتخذ من جلد الثور لكبرها .

(٥) أى حتى اتخذ الناس حولها مبركاً لإبلهم لغزارة مائها ، والحديث فى ذلك الموضع من صحيح البخارى (ج ٤ ص ١٩٣) من حديث سعيد بن المسيب عن أبى هريرة .

(٦) فى كتاب فضائل الصحابة من صحيح مسلم (ك ٦٢ ب ٥ — ج ٤ ص ١٩٧) من حديث قتادة عن أنس بن مالك .

منهم أحد فعُمر [1] » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها فى مرضه : « ادعى لى أبا بكر وأخاك حتى أكتب كتابا ، فإنى أخاف أن يتمنَّى مُتمنٍّ ويقول : أنا أولىٰ . ويأْبىٰ الله والمؤمنون إلَّا أبا بكر [2] » .

وقال ابْنُ عباس : إن رجلًا أَتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، وإنى أرى الليلة فى المنام ظُلَّةً تنطفُ السمن والعسل ، فأَرى الناس يتكفَّفون بأَيديهم ، فالمستكثِر والمستقلّ . وأرى سببا واصلًا من السماء إلى الأَرض فأَراك أَخذتَ به فعلوتَ ، [ثم أَخذ به رجل آخر فعلا به ، ثم أَخذ به رجل آخر فعلا به] ، ثم أَخذ به رجل آخر فانقطع ، ثم وصل له فَعلا (وذكر الحديث) . ثم عبرها أبو بكر فقال : وأما السبب الواصل من السماء إلى الأَرض فالحقُّ الذى أَنت عليه ، فأَخذتَه فيُعليك الله . ثم يأْخذ به رجل آخر بعدك فيعلو به ؛ ثم يأْخذه رجل آخر فيعلو به ، ثم يأْخذه رجلٌ آخر فينقطع به ثم يُوصل فيعلو به [3] » .

---

(١) فى كتاب فضائل الصحابة من صحيح البخارى (ك ٦٢ ب ٦ — ج ٤ ص ٢٠٠) من حديث أبى سلمة عن أبى هريرة .

(٢) فى مسند أحمد (٦ : ١٤٤ الطبعة الأولى) من حديث الزهرى عن عروة ابن الزبير عن عائشة ، وانظر المسند أيضاً (٦ : ٤٧ و ١٠٦) وطبقات ابن سعد ٣ (١ : ١٢٧) ومسند أبى داود الطيالسى : الحديث ١٥٠٨

(٣) فى كتاب التعبير من صحيح البخارى (ك ٩١ ب ٤٧ — ج ٨ ص ٨٣ — ٨٤) من حديث عبد الله بن عباس ، وفى كتاب الرؤيا من صحيح مسلم (ك ٤٧ ح ١٧ — ج ٧ ص ٥٥ — ٥٦) من حديث ابن عباس ، وفى مسند أحمد (١ : ٢٣٦ الطبعة الأولى رقم ٢١١٣) من حديث ابن عباس .

وصح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم : « من رأى منكم رُؤيا » ؟ فقال رجلٌ : أنا رأيت ، كأَن ميزانًا نزل من السماء ، فوُزنت أَنت وأَبو بكر فرجَحْتَ . ووُزن أَبو بكر وعمرُ فرَجح أَبو بكر . ووُزن عمرُ وعثمانُ فرجحَ عمر . ثم رُفع الميزان . فرأَيْنَا الكراهية فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] .

وهٰذه الأَحاديث جبال فى البيان ، وجبال فى السبب إلى الحق لمن وفقه الله. ولو لم يكن معكم – أَيها السّنّية – إلَّا قوله تعالى : ﴿ إلَّا تنْصُرُوهُ فقدْ نَصرهُ اللهُ ، إذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِىَ اثْنيْنِ إذْ هُما فِى الْغار ﴾ (التوبة : ٤٠) فجعلها [2] فى نصيف ، وجعل أَبا بكر فى نصيف آخر وقام معه جميع الصحابة .

وإذا تبصرتم هٰذه الحقائق فليس يخفى منها حال الخلفاء فى خلالهم وولايتهم وترتيبهم خصوصًا وعمومًا . وقد قال اللهُ تعالى ﴿ وعد اللهُ الَّذِين آمَنُوا مِنْكُمْ وَعمِلُوا الصَّالِحاتِ ليسْتخْلِفنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كما اسْتَخلَف الَّذِين مِن قبْلِهِمْ ، وليُمَكِّننَّ لهُمْ دِينهُمْ الَّذِى ارْتَضَى لهُمْ ، وليُبدِّلَنَّهُم مِنْ بعْدِ خوْفِهِمْ أَمْنًا ، يعْبُدُوننِى لَا يُشْرِكُون بِى شيْئًا ﴾ (سورة النور : ٥٥) . وإذا لم ينفذ هٰذَا الوعد فى الخلفاء فلمن ينفذ ؟ وإذا لم يكن فيهم فبِمنْ يكون ؟ والدليل عليه انعقادُ الإجماع أَنه لم

(١) فى كتاب السنة من سنن أبى داود (ك ٣٩ ب ٨ ح ٤٦٣٤) من حديث أبى بكرة . وفى كتاب الرؤيا من جامع الترمذى (الباب ١٠) من حديث أبى بكرة أيضاً . وانظر فى مسند أحمد (٥ : ٢٥٩ الطبعة الأولى) حديث أبى أمامة عن رجحان كفة أبى بكر بكفة فيها جميع الأمة ... الخ .

(٢) أى الأمة .

يتقدمهم فى الفضيلة أحد إلى يومنا هذا ، ومن بعد مختلفٌ فيه ، وأولئك مقطوع بهم ، متيقَّن إمامتُهم ، ثابتٌ نفوذ وعد الله لهم ، فإنهم ذبُّوا عن حوْزة المسلمين ، وقاموا بسياسة الدين . قال علماؤنا : ومن بعدهم تبعٌ لهم من الأئمة الذين هم أركانُ الملة ، ودعائمُ الشريعة ، الناصحونَ لعباد الله ، الهادونَ مَنِ استرشدَ إلى الله . فأما من كان من الولاة الظلمة فضررُه مقصور على الدنيا وأحكامها .

وأما حُفَّاظِ الدين فهم الأئمة العلماءُ الناصحون لدين الله ، وهم أربعة أصناف :

الصنف الأول: حَفظوا أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم بمنزلة الخُزَّان لأقوات المعاش .

الصنف الثانى : علماءُ الأُصول : ذبُّوا عن دين الله أهلَ العناد وأصحابَ البدع ، فهم شجعانُ الإسلام ، وأبطالُه المداعِسُون عنه فى مآزق الضلال [1] .

الصنف الثالث : قومٌ ضبطوا أُصولَ العبادات ، وقانونَ المعاملات ، وميَّزوا المحلَّلات من المحرَّمات ، وأحكموا الخراجَ والدِّيات ، وبيَّنوا معانى الأَيْمان والنُّذور ، وفصلوا الأَحكام فى الدعاوى . فهم – فى الدين – بمنزلة الوكلاء المتصرّفين فى الأَموال .

الصنف الرابع : تجرَّدوا للخدمة ، ودأبوا على العبادة ، واعتزلوا الخلق . وهم – فى الآخرة – كخواصِّ الملك فى الدنيا .

وقد أوضحنا فى كتاب (سراج المريدين) فى القسم الرابع من علوم القرآن أىَّ المنازل أفضلُ من هؤلاءِ الأَصناف ، وترتيب درجاتهم .

---

(١) المداعسة : المطاعنة ، والمدافعة .

قال القاضي أبو بكر (رضى الله عنه) : وهذه كلها إشارات أو تصريحاتٌ أو دلالاتٌ أو تنبيهات . ومجموع ذلك يدلُّ على صحة ما جرى ، وتحقيق ما كان من العقلاء .

ونقول – بعد هذا البيان – على مَقام آخر : لو كان هنالك نصٌّ على أبي بكر أو على عليّ ، لم يكن بدٌّ من احتجاج عليّ به ، أو يحتج له به غيرُه من المهاجرين والانصار . فأَما حديث غَدِير خم [1] فلا حُجَّة فيه ، لأَنه إنما استخلفه فى حياته على المدينة كما استخلف موسى هارون فى حياته – عند سفره للمناجاة – على بنى اسرائيل . وقد اتفق الكل من إخوانهم اليهود على أن موسى مات بعد هارون فأَين الخلافة ؟

وأما قوله « اللَّهُمَّ وَالِ منْ والاه » فكلام صحيح ، ودعوة مجابة . وما يعلم أَحدٌ عاداه إلا الرافضة ، فإنهم أَنزلوه فى غير منزلته ، ونسبوا إليه مالا يليق بدرجته . والزيادةُ فى الحد نقصان من المحدود . ولو تعدَّى عليها أَبو بكر ما كان المتعدِّيَ وحده ، بل جميع الصحابة – كما قلنا – لأَنهم ساعدوه على الباطل .

ولا تستغربوا هذا من قولهم ، فإنهم يقولون : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان مداريا لهم ، مغْنِيّاً بهم على نفاق وتقِيَّة . وأَين أَنت من قول النبي صلى الله عليه وسلم حين سمع قول عائشة رضى الله عنها : مُرُوا عمر فليصلِّ بالناس « إنكنَّ لأَنتنَّ صواحبُ يوسف ، مُرُوا أَبا بكر فليصلِّ بالناس [2] »

(١) الذى مضى فى القاصمة ص ١٨١ ، وانظر فى ص ١٨٥ – ١٨٦ تفسير الحسن المثنى لهذا الحديث .

(٢) صحيح البخارى (ك ١٠ ب ٣٩ و ٤٦ و ٦٧ و ٦٨ و ٧٠ – ج ١ ص ١٦١ – ١٦٢ و ١٦٥ ، و ١٧٤ – ١٧٦) من حديث عائشة وأبى موسى الأشعرى .

وما قدّمنا من تلك الأحاديث [1] .

لقد اقتحموا عظيما ، ولقد افترَوا كبيرًا . وما جعلها عمرُ شورى إلا اقتداءً بالنبى صلى الله عليه وسلم وبأبى بكر ، إذ قال : « إن أستخلفْ فقد استخلف من هو خيرٌ منى ، وإن لم أستخلفْ فإن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لم يستخلف [2] » فما ردَّ هذه الكلمات أحد . وقال : « أَجْعَلُها شورىٰ فى النفر الذين تُوفى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض [3] » . وقد رضى اللهُ عن أكثر منهم ، ولكنهم كانوا خيار الرضا ، وشهد لهم بالأهلية للخلافة .

وأما قولهم تحيَّل ابنُ عوف حتى ردَّها لعثمان ، فلئن كانت حيلة ولم يكن سواها فلأنَّ الحول ليس إليه [4] . وإذا كان عمل العباد حيلة أو كان القضاءُ بالحول ، فالحول والقوة لله . وقد علم كلُّ أحد أنه

---

(1) فى ص ١٨٧ — ١٩٠

(2) فى كتاب الإمارة من صحيح مسلم (ك ٣٣ ح ١١ و ١٢ — ج ٦ ص ٤ — ٥) من حديث عروة بن الزبير عن ابن عمر ، ومن حديث سالم عن ابن عمر . وفى مسند أحمد (١ : ٤٣ رقم ٢٩٩) عن عروة عن ابن عمر ، و (١ : ٤٦ رقم ٣٢٢) عن حميد ابن عبد الرحمن عن ابن عباس ، و (١ : ٤٧ رقم ٣٣٢) عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر .

(3) من حديث عمرو بن ميمون المطول فى كتاب فضائل الصحابة من صحيح البخارى (ك ٦٢ ب ٨ ج ٤ ص ٢٠٤ — ٢٠٧) ، وانظر كتابنا هذا ص ٥٢ — ٥٣

(4) بل إلى الله . وإن الله هو الموفق لابن عوف وسائر إخوانه الصحابة حتى كانو فى ذلك الموقف على ما أراده الله لهم من صفاء النية وإخلاص القصد والعمل لله وحده . فكان من اختيار خليفة عمر فى حادث الشورى مثلا أعلى النفس الإنسانية عندما تكون فى أعلى مراتب النبل ، والتجرد عن جميع خواطر الهوى .

لا يليها إلا واحد ، فاستبدَّ عبدُ الرحمن بن عوف بالأمر – بعد أن أخرج نفسه – على أن يجتهد للمسلمين فى الأسدّ والأشد ، فكان كما فعل ، وولّاها من استحقها ، ولم يكن غيره أولىٰ منه بها ، حسبما بينا فى « مراتب الخلافة » من (أنوار الفجر [1]) وفى غيره من [كتب] الحديث .

وقُتل عثمان ، فلم يبق على الأرض أحقُّ بها من علىّ ، فجاءته على قدر ، فى وقتها ومحلِّها . وبيَّن الله على يديه من الأحكام والعلوم ما شاءَ الله أن يبيّن . وقد قال عمر « لولا على لهلك عمر [2] » . وظهر من فقهه وعلمه فى قتال أهل القبلة – مِن استدعائهم ومناظرتهم ، وتركِ مبادرتهم ، والتقدُّم إليهم قبل نصب الحرب معهم وندائه : لا نبدأُ بالحرب ، ولا يُتبع مولّ ، ولا يُجهز على جريح ، ولا تُهاج امرأة ، ولا نغنم لهم مالا – وأمرِه بقبول شهادتهم ، والصلاة خلفهم ، حتى قال أهل العلم : لولا ما جرى ما عرفنا قتالَ أهل البغى .

وأما خروج طلحة والزبير فقد تقدَّم بيانه [3]

وأما تكفيرهم للخلق ، فهم الكفار ، وقد بيّنا أحوال أهل الذنوب التى ليس منها سبٌّ فى غير ما كتاب ، وشرحناها فى كل باب .

---

(١) هو التفسير الكبير لابن العربى فى ثمانين مجلداً . تكلمنا عليه فى ص ٢٧ .

(٢) هذا مع قول النبى صلى الله عليه وسلم فيه : « أول من يصافحه الحق عمر » ، وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به » ، وقوله صلى الله عليه وسلم « لو كان من بعدى نبى لكان عمر » .

(٣) وأنه كان خروجاً للتفاهم والتعاون على إقامة الحدود الشرعية فى مقتل أمير المؤمنين عثمان ، انظر ص ١٥٠ – ١٥٢

فإن قيل : فقد قال العباس فى علىّ ما رواه الأئمة أن العباس وعليًا اختصما عند عمر فى شأن أوقاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال العباس لعمر : يا أمير المؤمنين ، أقض بينى وبين هذا الظالم الكاذب الآثم الجائر [1] . فقال الرهط لعمر : يا أمير المؤمنين ، أقضِ بينهما وأرحْ أحدهما من الآخر . فقال عمر : أنشدكم الله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » يريد بذلك نفسه ؟ قالوا : قد قال ذلك. فأقبل على العباس وعلىّ فقال : أنشدكما الله ، هل تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك ؟ قالا : نعم . قال عمر : إن الله خصَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الفىء بشىء لم يعطه أحدًا غيره ، فعمل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم حياتَه ، ثم توُفّى ، فقال أبو بكر : أنا ولىُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبضها سنتين فى إمارته فعمل فيها بما عمل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم . وأنتما تزعمان

---

(1) تقدم فى ص ٤٩ — ٥٠ ذكر هذا التقاضى بين العباس وعلىّ عند أمير المؤمنين عمر من حديث مالك بن أوس بن الحدثان النصرى فى صحيح البخارى . قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (ك ٥٧ ب ١ — ج ٦ ص ١٢٥) ; زاد شعيب ويونس : « فاستبّ علىّ وعباس » وفى رواية عقيل عن ابن شهاب فى الفرائض : « اقض بينى وبين هذا الظالم . استبا » وفى رواية جويرية « وبين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن » . قال الحافظ : ولم أر فى شيء من الطرق أنه صدر من على فى حق العباس شىء ، بخلاف ما يفهم من قوله فى رواية عقيل « استبا » . واستصوب المازرى صنيع من حذف هذه الألفاظ من هذا الحديث وقال : لعل بعض الرواة وهم فيها وإن كانت محفوظة ، فأجود ما تحمل عليه أن العباس قالها دلالا على علىّ ، لأنه كان عنده بمنزلة الولد ، فأراد ردعه عما يعتقد أنه مخطئ فيه .

أن أبا بكر كاذبٌ غادر خائن [1] ، والله يعلم إنه لصادقٌ بارٌ راشد تابع للحق ... وذكر الحديث .

قلنا : أما قول العباس لعلى فقول الأب للابن ، وذلك على الرأى محمول ، وفى سبيل المغفرة مبذول ، وبين الكبار والصغار — فكيف الآباءُ والأبناءُ — مغفور موصولٌ . وأما قول عمر أنهما اعتقدا أن أبا بكر ظالم خائن غادر ، فإنما ذلك خبر عن الاختلاف فى نازلة وقعت من الأحكام ، رأى فيها هذا رأيًا ورأى فيها أولئك رأيا ، فحكم أبو بكر وعمر بما رأيا ، ولم ير العباسُ وعلىٌّ ذلك . ولكن لما حكما سلّما لحكمهما كما يُسلم لحكم القاضى فى المختلف فيه . وأما المحكوم عليه فرأى أنه قد وهم ، ولكن سكت وسلم .

فإن قيل : إنما يكون ذلك فى أول الحال — والأمر لم يظهر — إذ كان الحكم باجتهاد ، وأما [بعدَ أن] أدّى هذا الحكم إلى منع فاطمة والعباس الميراث بقول النبى صلى الله عليه وسلم « لا نورّث ، ما تركنا صدقة » وعلمه أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه العشرة وشهدوا به ، فبطل ما قلتموه [2] .

قلنا : يحتمل أن يكون ذلك فى أول الحال — والأمرُ لم يظهر بعد — فرأيا أن خبر الواحد فى معارضة القرآن والأصول والحكم المشهور فى الزمن لا يعمل به حتى يتقرّر الأمر ، فلما تقرر سلّما وانقادا ، بدليل

(١) قال الحافظ ابن حجر (٦ : ١٢٥) : وكان الزهرى يحدث به تارة فيصرح ، وتارة فيكنى ، وكذلك مالك ، وقد حذف ذلك فى رواية بشر بن عمر عنه عند الإسماعيلى وغيره ، وهو نظير ما سبق من قول العباس لعلى . الخ .

(٢) انظر ص ٤٨ — ٥١

ما قدمنا من الحديث الصحيح إلى آخره ، فلينظر فيه . وهذا أيضًا ليس بنص فى المسألة ، لأن قوله « لا نورّث ، ما تركنا صدقة » يحتمل أن يكون : لا يصحُّ ميراثنا ، ولا أنا أهل له ، لأنه ليس لى ملك ، ولا تلبستُ بشىء من الدنيا ينتقل إلى غيرى عنى . ويحتمل « لا نورث » حكم ، وقوله « ما تركنا صدقة » حكم آخر معيّن أخبر به أنه قد أنفذ الصدقة فيما كان بيده من سهمه المتصير إليه بتسويغ الله له ، وكان من ذلك مخصوصًا بما لم يُوجِف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، وكان له سهمه مع المسلمين فيما غنموا بما أخذوه عُنوة . ويحتمل أن يكون « صدقة » منصوبا على أن يكون حالًا من المتروك . إلى هذا أشار أصحاب أبى حنيفة ، وهو ضعيف ، وقد بيناه فى موضعه . بَيد أنه يأتيك فى هذا أن المسألة مجرى الخلاف ، ومحلُّ الاجتهاد ، وأنها ليست بنص من النبى صلى الله عليه وسلم فتحتمل التصويب والتخطئة من المجتهدين . والله أعلم .

قاصمة

ثم قُتل علىٌّ . قالت الرافضة : فعَهَد إلى الحسن ، فسلّمها الحسن إلى معاوية ، فقيل له « مُسوِّدُ وجوه المؤمنين [1] » . وفسَّقته جماعة

(١) من عناصر إيمان الرافضة — بل العنصر الأول فى إيمانهم — اعتقادهم بعصمة الحسن وأبيه وأخيه ، وتسعة من ذرية أخيه : ومن مقتضى عصمتهم — وفى طليعتهم الحسن بعد أبيه — أنهم لا يخطئون ، وأن كل ما صدر عنهم فهو حق ، والحق لا يتناقض . وأهم ما صدر عن الحسن بن على بيعته لأمير المؤمنين معاوية ، وكان ينبغى لهم أن يدخلوا فى هذه البيعة ، وأن يؤمنوا بأنها الحق لأنها من عمل المعصوم عندهم . لكن المشاهد من=

من الرافضة ، وكفرته طائفة لأجل ذلك .

عــاصمة

قال القاضي أبو بكر (رضي الله عنه) : أما قول الرافضة أنه عهد إلى الحسن فباطل . ما عَهِدَ إلى أحد [1] ، ولكن البيعة للحسن منعقدة ،

= حالهم أنهم كافرون بها . ومخالفون فيها لإمامهم المعصوم . ولا يخلو هذا من أحد وجهين : فإما أنهم كاذبون في دعوى العصمة لأئمتهم الإثني عشر ، فينهار دينهم من أساسه ، لأن عقيدة العصمة لهم هي أساسه ، ولا أساس له غيرها . وإما أن يكونوا معتقدين عصمة الحسن ، وأن بيعته لمعاوية هي من عمل المعصوم ، لكنهم خارجون على الدين ، ومخالفون للمعصوم فيما جنح إليه وأراد أن يلقى الله به . ويتواصون بهذا الخروج على الدين جيلاً بعد جيل ، وطبقة بعد طبقة ، ليكون ثباتهم على مخالفة الإمام المعصوم عن إصرار وعناد ومكابرة وكفر . ولا ندري أي الوجهين يطوّح بهم في مهاوي الهلكة أكثر مما يطوح بهم الوجه الآخر ، ولا ثالث لها . فالذين قالوا منهم إن الحسن « مسود وجوه المؤمنين » لا يحمل كلامهم إلا على أنه « مسود وجوه المؤمنين بالطاغوت » أما المؤمنون بنبوة جد الحسن صلى الله عليه وسلم فيرون صلحه مع معاوية وبيعته له من أعلام النبوة ، لأنها حققت ما تنبأ به صلى الله عليه وسلم في سبطه سيد شباب أهل الجنة من أنه سيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين كما سيأتي بيانه . وكل الذين استبشروا بهذه النبوة وبهذا الصلح يعدون الحسن « مبيض وجوه المؤمنين » .

(١) روى الإمام أحمد في مسنده (١ : ١٣٠ برقم ١٠٧٨) عن وكيع عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن عبد الله بن سبع قال : سمعت علياً يقول (وذكر أنه سيقتل) قالوا : فاستخلفْ علينا . قال : « لا ، ولكن أترككم إلى ما ترككم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم » . قالوا . فما تقول لربك إذا أتيته ؟ قال : « أقول : اللهم تركتني =

وهو أحقُّ من معاوية ومن كثير من غيره ، وكان خروجه لمثل ما خرج إليه أبوه من دعاء الفئة الباغية إلى الانقياد للحقّ والدخول في الطاعة ، فآلت الوساطةُ إلى أن تخلى عن الأمر صيانة لحقن دماء الأمة [1]

=فيهم ما بدا لك ، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم ، فإن شئت أصلحتهم ، وإن شئت أفسدتهم » ؛ وروى أحمد مثله (١ : ١٥٦ برقم ١٣٣٩) عن أسود بن عامر عن الأعمش عن سلمة ابن كهيل عن عبد الله بن سبع . والخبران إسناد كل منهما صحيح . ونقل الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٥ : ٢٥٠ — ٢٥١) عن الإمام البيهقي من حديث حصين بن عبد الرحمن عن الإمام الشعبي عن أبي وائل شقيق بن سلمة الأسدي أحد سادة التابعين أنه قيل لعلي : ألا تستخلف علينا ؟ قال : « ما استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستخلف ، ولكن إن يرد الله بالناس خيراً فسيجمعهم بعدي على خيرهم ، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم » ، وهذا الحديث جيد الإسناد . ونقل ابن كثير أيضاً (٧ : ٣٢٣) عن الإمام البيهقي حديث حبيب بن أبي ثابت الكاهلي الكوفي عن ثعلبة بن يزيد الحماني (وهو من شيعة الكوفة وثقه النسائي) أنه قيل لعلي : ألا تستخلف ؟ فقال : « لا ، ولكن أترككم كما ترككم رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وانظر السنن الكبرى للبيهقي ٨ : ١٤٩

(١) حكاية الوساطة بين الحسن ومعاوية وصلحهما رواها الإمام البخاري في كتاب الصلح من صحيحه (ك ٥٣ ب ٩ ج ٣ ص ١٦٩) عن الإمام الحسن البصري قال : استقبل — والله — الحسن بن عليّ معاوية بكتائب أمثال الجبال . فقال عمرو بن العاص : إني لأرى كتائب لا تولى حتى تقتل أقرانها . فقال له معاوية — وكان والله خيرَ الرجلين — : أي عمرو ، إن قتل هؤلاء هؤلاء وهؤلاء هؤلاء من لي بأمور الناس ، من لي بنسائهم ، من لي بضيعتهم ؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس — عبد الرحمن بن سمرة وعبد الله ابن عامر بن كريز — فقال : اذهبا إلى هذا الرجل (أي الحسن بن علي) فاعرضا =

وتصديقا لقول نبيّ الملحمة حيث قال على المنبر : « ابني هذا سيد »، ولعلّ الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين [1] » ، فنفذ الميعاد ، وصحّت البيعة لمعاوية ، وذلك لتحقيق رجاء النبي صلى الله عليه وسلم ، فمعاوية خليفة ، وليس بملك [2] .

فإن قيل : فقد رُوى عن سفينة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الخلافةُ ثلاثون سنة ، ثم تعود ملكا » فإذا عددنا من ولاية أبي بكر إلى تسليم الحسن كانت ثلاثين سنة لا تزيد ولا تنقص يومًا ، قلنا :

خُذ ما تراه ودَعْ شيئا سمعت به ... في طلعة البدر ما يُغنيك عن زُحلِ

= عليه (أي ما يشاء) ، وقولا له (أي ما يرضيه) ، واطلبا إليه (أي ما تريان فيه المصلحة ، فأنتما مفوضان) . فأتياه ، فدخلا عليه ، فتكلما ، وقالا له ، وطلبا إليه . فقال لهما الحسن ابن علي : إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال ، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها (أي فيحتاج إرضاؤها في دمائها إلى مال كثير) قال : فإنه يعرض عليك كذا وكذا ، ويطلب إليك ، ويسألك . قال : فمن لي بهذا ؟ قالا : نحن لك به . فما سألهما شيئاً إلا قالا : نحن لك به . فصالحه .

(1) رواه البخاري مع الحديث السابق عن الحسن البصري أنه سمعه من أبي بكرة وأن أبا بكرة رأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه فقال ذلك ، ورواه البخاري أيضاً في مناقب الحسن والحسين من كتاب فضائل الصحابة من صحيحه (ك ٦٢ ب ٢٢ — ج ٤ ص ٢١٦) ، وانظر البداية والنهاية (٨ : ١٧ — ١٩) وابن عساكر (٤ : ٢١١ — ٢١٢)

(2) سيأتي الكلام على هذا الموضوع في ص ٢٠٧ — ٢١٠

هذا الحديثُ [1] فى ذكر الحسن بالبشارة له والثناء عليه ، لجريان الصلح بين يديه ، وتسليم الأمر لمعاوية ، عقدٌ منه له [2] .

وهذا [3] حديثٌ لا يصحّ [4]. ولو صحّ فهو معارِض لهذا الصلح

---

(١) أى حديث « أن بنى هذا سيد » الذى رواه البخارى عن الحسن البصرى عن أبى بكرة .

(٢) أى عقد بيعة من الحسن لمعاوية . وكان ذلك فى موضع يقال له « مسكن » على نهر دجيل فى ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ، فسمى ذلك العام « عام الجماعة » لاجتماع المسلمين بعد الفرقة، وتفرغهم للحروب الخارجية والفتوح ونشر دعوة الإسلام بعد أى عطل قتلة عثمان سيوف المسلمين عن هذه المهمة نحو خمس سنوات كان يستطيع المسلمون أن يسجلوا فيها أمجاداً لا يستطيع غيرهم مثلها فى خمسة قرون . ولله فى كل شىء حكمة .

(٣) أى حديث سفينة .

(٤) لأن راويه عن سفينة سعيد بن جُهمان ، وقد اختلفوا فيه : قال بعضهم لا بأس به ، ووثقه بعضهم ، وقال فيه الإمام أبو حاتم « شيخ لا يحتج به » . وفى سنده حشرج ابن نباتة الواسطى وثقه بعضهم ، وقال فيه النسائى « ليس بالقوى » . وعبد الله بن أحمد ابن حنبل يروى هذا الخبر عن سويد الطحان قال فيه الحافظ ابن حجر فى تقريب التهذيب . « لين الحديث » . وهذا الحديث المهلهل يعارضه ذلك الحديث الصحيح الصريح الفصيح فى كتاب الإمارة من صحيح مسلم (ك ٣٣ ح ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ — ج ٦ ص ٣ — ٤) عن جابر بن سمرة قال : دخلت مع أبى على النبى صلى الله عليه وسلم فسمعته يقول : « إن هذا الأمر لا ينقضى حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة » قال : ثم تكلم بكلام خفى علىَّ ، فقلت لأبى : ما قال ؟ قال : « كلهم من قريش » . وانظره فى كتاب الأحكام من صحيح البخارى (ك ٩٣ ب ٥١ — ج ٨ ص ١٢٥ — ١٢٧) وفى فتح البارى (١٣ : ١٦٢ وما بعدها) وفى سنن أبى داود (ك ٣٥ ح ١) وفى جامع =

المتفق عليه ، فوجب الرجوع إليه [1]

فإن قيل : ألم يكن فى الصحابة أقعَدُ بالأمر من معاوية ؟

قلنا : كثير [2] . ولكن معاوية اجتمعت فيه خصال : وهى أن عمر

= الترمذى (ك ٣١ ب ٤٦) وفى مسند الإمام أحمد (١ : ٣٩٨ و ٤٠٦ برقم ٣٧٨١ و ٣٨٥٩) من حديث الشعبى عن مسروق بن الأجدع الهمدانى الإمام القدوة قال : كنا جلوساً عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، هل سألتم رسول الله صلى الله عليه وسلم كم يملك هذه الأمة من خليفة ؟ فقال عبد الله ابن مسعود : ما سألنى عنها أحد منذ قدمتُ العراقَ قبلك . ثم قال : نعم ، ولقد سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « اثنا عشر ، كعدة نقباء بنى إسرائيل » . والحديث فى مجمع الزوائد (٥ : ٩٠) . وفى مسند أحمد (٥ : ٨٦ ، ٨٧ بثلاث روايات و ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ بثلاث روايات و ٩٢ بثلاث روايات و ٩٣ براوايتين و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ بروايتين و ٩٧ بروايتين و ٩٨ بثلاث روايات و ٩٩ بثلاث روايات و ١٠٠ ، ١٠١ بروايتين و ١٠٦ بروايتين و ١٠٧ بروايتين و ١٠٨) وفى مسند أبى داود الطيالسى (ح ٩٦٧ و ١٢٧٨)

(١) أى إلى العقد من الحسن لمعاوية ، فهو متفق عليه ، وتناولته البشرى النبوية بالثناء والرضا . قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة (٢ : ٢٤٢) ، وهذا الحديث يبين أن الإصلاح بين الطائفتين كان ممدوحاً يحبه الله ورسوله ، وأن ما فعله الحسن من ذلك كان من أعظم فضائله ومناقبه التى أثنى بها عليه النبى صلى الله عليه وسلم . ولو كان القتال واجباً أو مستحباً لم يثن النبى صلى الله عليه وسلم بترك واجب أو مستحب .. الخ .

(٢) كسعد بن أبى وقاص المجاهد الفاتح أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وعبد الله

جمع له الشامات كلها وأفرده بها [1] ، لما رأى من حُسن سِيرته [2]

=ابن عمر بن الخطاب عالم الصحابة الثابت على قدم المصطفى صلى الله عليه وسلم فى جليل الأمور ودقيقها ، وغيرهما من هذه الطبقة وقريب منها ، وهؤلاء هم الذين ترك لها الحكمان — أبو موسى وعمرو — أمر الإمامة بعد حرب صفين ليروا فيها رأيهم ، فلما رأوا اجتماع الأمة كلها على معاوية دخلوا كلهم فى إمامته وبايعوه . بعد أن كانوا معتزلين الفتنة من بعد عثمان (انظر فتح البارى ١٣ : ٥٠) . ومعاوية نفسه يعرف للناس أقدارهم . فقد جاء فى البداية والنهاية (٨ : ١٣٤) عن ابن دريد عن أبى حاتم عن العتبى أن معاوية خطب فقال : « يا أيها الناس ، ما أنا بخيركم ، وإن منكم لمن هو خير منى : عبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن عمرو وغيرهما من الأفاضل . ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية ، وأنكاكم فى عدوكم ، وأدركم حلباً » . ورواه ابن سعد عن محمد بن مصعب عن أبى بكر ابن أبى مريم عن ثابت مولى معاوية أنه سمع معاوية يقول ذلك .

(١) فأصبحت تحت قيادته وبحسن سياسته أقوى قوة فى الإسلام ، وهى فى طليعة جيوش الجهاد والفتوح الظافرة الداعية إلى الله بأخلاقها وسيرتها وحكمة قادتها وصدق إسلامهم .

(٢) تقدم فى ص ٨٢ حديث الليث بن سعد إمام أهل مصر بسنده الوثيق إلى سعد ابن أبى وقاص فاتح العراق وإيران ومبيد دولة كسرى أنه ما رأى بعد عثمان أقضى بالحق من معاوية . وحديث عبد الرزاق الصنعانى بسنده إلى حبر الأمة ابن عباس أنه ما رأى رجلا أخلق بالملك من معاوية . وفى ص ٨٣ قول شيخ الإسلام ابن تيمية ، كانت سيرة معاوية مع رعيته من خيار سير الولاة ، وكان رعيته يحبونه ، وقد ثبت فى صحيح مسلم (ك ٣٣ ح ٦٥ و ٦٦) قول النبى صلى الله عليه وسلم « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، ويصلون عليكم وتصلون عليهم . وفى الطبرى (٦ : ١٨٨) رواية مجالد عن الشعبى =

وقيامه بحماية البيْضة وسدّ الثغور [١] ، وإصلاح الجند والظهور على العدوّ [٢]

= أن قبيصة بن جابر الأسدى قال : ألا أخبركم من صحبت ؟ صحبت عمر بن الخطاب فما رأيت رجلا أفقه فقهاً ولا أحسن مدارسة منه ، ثم صحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت رجلا أعطى للجزيل من غير مسألة منه ، ثم صحبت معاوية فما رأيت رجلا أحبَّ رفيقاً ولا أشبه سريرة بعلانية منه .

(١) وقد بلغ من همته وعظيم عنايته بذلك أن أرسل يهدد ملك الروم — وهو فى معمعة القتال مع على فى صفين — وقد بلغه أن ملك الروم اقترب من الحدود فى جنود عظيمة فكتب إليه يقول « والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك ، لأصطلحن أنا وابن عمى عليك ، ولأخرجنك من جميع بلادك ، ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت » ، فخاف ملك الروم وانكف (البداية والنهاية ٨ : ١١٩) .

(٢) فى البر والبحر ، فكانت رايات الإسلام تخترق الآفاق بأيدى جنده ممثلة العزة التى أرادها الله لدينه ورسالة رسوله وللمؤمنين بها . وكما أن فتح مصر ودخولها فى الإسلام والعروبة من عمل عمرو بن العاص وحده ، فإن تأسيس الأسطول الإسلامى والفتوح البحرية الأولى من عمل معاوية وحده . ومما ينبغى للمشتغل بتاريخ العروبة والإسلام أن يعلمه أنَّ معاوية مفطور على سجية السيادة والقيادة وصناعة الحكم ، أخرج ابن كثير فى التاريخ (٨ : ١٣٥) عن هشيم عن العوام بن حوشب عن جبلة بن سحيم أن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال : « ما رأيت أحداً أسود من معاوية » ، قال جبلة بن سحيم . قلت ولا عمر ؟ قال : « كان عمر خيراً منه ، وكان معاوية أسود منه » . ورووا مثل هذه الكلمة فى معاوية عن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وتقدم قول عبد الله بن عباس « ما رأيت رجلا كان أخلق بالملك من معاوية » .

وسياسة الخلق [1] .

وقد شهد له فى صحيح الحديث بالفقه [2] ، وشُهد بخلافته

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى (منهاج السنة ٣ : ١٨٥) لم يكن من ملوك الإسلام ملك خيراً من معاوية ، ولا كان الناس فى زمان ملك من الملوك خيراً منهم فى زمن معاوية ، إذا نسبت أيامه إلى من بعده . وإذا نسبت إلى أيام أبى بكر وعمر ظهر التفاضل . وقد روى أبو بكر الأثرم — ورواه ابن بطة من طريقه — حدثنا محمد بن عمرو ابن جبلة ، حدثنا محمد بن مروان ، عن يونس ، عن قتادة قال : لو أصبحتم فى مثل عمل معاوية لقال أكثركم : هذا المهدى . وروى ابن بطة بإسناده الثابت من وجهين عن الأعمش عن مجاهد قال : لو أدركتم معاوية لقلتم هذا المهدى . وروى الأثرم : حدثنا أحمد بن جوّاس ، حدثنا أبو هريرة المكتب قال : كنا عند الأعمش فذكروا عمر بن عبد العزيز وعدله ، فقال الأعمش : فكيف لو أدركتم معاوية ؟ قالوا : فى حلمه ؟ قال : لا والله ، بل فى عدله . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : أخبرنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة الثقفى ، عن أبى إسحاق السبيعى أنه ذكر معاوية فقال : لو أدركتموه ، أو أدركتم أيامه لقلتم : كان المهدى . وهذه الشهادة من هؤلاء الأئمة الأعلام لأمير المؤمنين معاوية صدى استجابة الله عز وجل دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم لهذا الخليفة الصالح يوم قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعله هادياً ، مهدياً ، واهد به » وهو من أعلام النبوة .

(٢) فى كتاب مناقب الصحابة من صحيح البخارى (ك ٦٢ ب ٢٨ ج ٤ ص ٢١٩) . حديث أبى مليكة أن ابن عباس قيل له : « هل لك فى أمير المؤمنين معاوية ، فإنه ما أوتر إلا بواحدة . فقال : إنه فقيه » . وفى كتاب المناقب من جامع الترمذى (ك ٤٦ ب ٤٧) . حديث عبد الرحمن بن أبى عميرة المزنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لمعاوية « اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به » ، ورواه الطبرانى من طريق سعيد بن عبد العزيز =

فى حديث أم حرام أن ناسًا من أمته يركبون ثبجَ البحر الأخضر ملوكًا على الأسرة ، أو مثل الملوك على الأسرة ، وكان ذلك فى

كالتنوخى — وكان لأهل الشام كالإمام مالك لأهل المدينة — عن ربيعة بن يزيد الإيادى أحد الأئمة الأعلام عن عبد الرحمن بن أبى عميرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية « اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب » . وأخرجه الإمام البخارى فى التاريخ قال : قال لى أبو مسهر (وذكره بالعنعنة) . وتقدم فى ص ٨٣ حديث عزل عمير بن سعد الأنصارى عن ولاية حمص فى خلافة عمر وتوليته معاوية والشهادة له بأن النبى صلى الله عليه وسلم دعا له بأن يهدى الله به . ورواه الإمام أحمد من حديث العرباض بن سارية السلمى . ورواه ابن جرير من حديث ابن مهدى ، ورواه أسد بن موسى وبشر بن السرى وعبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح بإسناده . وزاد فى رواية بشر بن السرى « وأدخله الجنة » . ورواه ابن عدى وغيره عن ابن عباس . ورواه محمد بن سعد بسنده إلى مسلمة ابن مخلد أحد فاتحى مصر وولاتها . ورواة هذه الدعاء النبوى لمعاوية من الصحابة أكثر من أن يحصوا . (وانظر البداية والنهاية ٨ : ١٢٠ — ١٢١ . وانظر ترجمة معاوية فى حرف الميم من تاريخ دمشق لابن عساكر) . ومن لم يصدق هذا الحديث فهو منكر لكل ما ثبت فى السنة من شريعة الإسلام . وفى الشيعة المبغضين لمعاوية اللاعنين له من يزعمون أنهم منتسبون إلى النبى صلى الله عليه وسلم فهل تراهم يحقدون على جدهم صلى الله عليه وسلم لرضاه عن معاوية واستعانته به ودعائه له ؟ « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » . وروى الحافظ ابن عساكر عن الإمام أبى زرعة الرازى أنه قال له رجل : إنى أبغض معاوية . فقال له : ولم ؟ قال : لأنه قاتل علياً . فقال له أبو زرعة : « ويحك ، إن رب معاوية رحيم ، وخصم معاوية خصم كريم ، فإيش دخولك أنت بينهما ، رضى الله عنهما ؟ »

ولايته [1]

ويحتمل أن تكون مراتب فى الولاية: خلافة ، ثم ملك . فتكون ولاية الخلافة للأربعة ، وتكون ولاية الملك لابتداء معاوية [2] . وقد

---

(١) أم حرام بنت ملحان صحابية من الأنصار من أهل قباء ، كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا ذهب إلى قباء استراح عندها ، وهى خالة خادمه أنس بن مالك . روى البخارى فى كتاب الجهاد من صحيحه (ك ٥٦ ب ٣ — ج ٣ ص ٢٠١) ومسلم فى كتاب الإمارة (ك ٣٣ ح ١٦٠) عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم نام عندها القيلولة ثم استيقظ وهو يضحك لأنه رأى ناساً من أمته غزاة فى سبيل الله يركبون ثبج البحر — أى وسطه ومعظمه — ملوكاً على الأسرّة . ثم وضع رأسه فنام واستيقظ وقد رأى مثل الرؤيا الأولى . فقالت له أم حرام : ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال لها « أنت من الأولين ». قال الحافظ ابن كثير (٨ : ٢٢٩) يعنى جيش معاوية حين غزا قبرس ففتحها سنة ٢٧ أيام عثمان بن عفان (بقيادة معاوية عقب إنشائه الأسطول الإسلامى الأول فى التاريخ) . وكانت معهم أم حرام فى صحبة زوجها عبادة بن الصامت . ومعهم من الصحابة أبو الدرداء وأبو ذر وغيرهما . وماتت أم حرام فى سبيل الله وقبرها بقبرس إلى اليوم . قال ابن كثير : ثم كان أمير الجيش الثانى يزيد بن معاوية فى غزوة القسطنطينية . قال : وهذا من أعظم دلائل النبوة .

(٢) الخلافة والملك والإمارة عناوين اصطلاحية تتكيف فى التاريخ باعتبار مدلولها العملى ، والعبرة دائماً بسيرة المرء وعمله . ومعاوية قد ولى الشام للخلافة الراشدة مدة عشرين سنة ، ثم اضطلع بمهمة الإسلام كلها عشرين سنة أخرى فى الوطن الإسلامى الأكبر بعد بيعة الحسن بن على له ، فكان فى الحالتين قوّاماً بالعدل ، محسناً إلى الناس من كل الطبقات ، يكرم أهل المواهب ويساعدهم على تنمية مواهبهم ، ويسع بحلمه جهل الجاهلين فيعالج بذلك نقائصهم ، ويلتزم فى الجميع أحكام الشريعة المحمدية =

= بحزم ورفق ومثابرة وإيمان . يؤمهم فى صلواتهم ويوجههم فى مجتمعهم ومرافقهم ويقودهم فى حروبهم . وفى منهاج السنة ٣ : ١٨٥ والمنتقى منه ص ٣٨٩ قول الصحابى الجليل أبى الدرداء لأهل الشام « ما رأيت أحداً أشبه صلاة بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من إمامكم هذا » يعنى معاوية . وقد رأيت فى ص ٢٠٥ قول الأعمش للذين ذكروا عنده عمر بن عبد العزيز وعدله : « كيف لو أدركتم معاوية ؟ » قالوا : فى حلمه ؟ قال : « لا والله ، بل فى عدله » . وقد بلغ من استقامته على جادة الإسلام أن قال فيه أمثاله قتادة ومجاهد وأبى إسحاق السبيعى — وكلهم من الأئمة الأعلام — : كان معاوية هو المهدى (انظر ص ٢٠٥) . والذى يتتبع سيرة معاوية فى حكمه يرى أن حكومته فى الشام كانت حكومة مثالية فى العدل والتراحم والتآسى ، لم يخير بين الطيب والأطيب إلا اختار الأطيب على الطيب . فإذا كان هذا المسلك فى أربعين سنة يؤهل الأمير المسلم للخلافة على المسلمين وقد ارتضوه لذلك واغتبطوا به فهو خليفة ، ومن سماه ملكاً لا يستطيع أن يكابر فى أنه من أرحم ملوك الإسلام وأصلحهم . كنا أيام طلب العلم فى القسطنطينية فى مجلس للطلبة يتناقشون فيه موضوع سيرة معاوية وخلافته . وكان ذلك فى أيام السلطان عبد الحميد ، فوقف صديقى الشهيد السعيد عبد الكريم قاسم الخليل — وكان شيعياً — فقال : « أنتم تسمون سلطاننا خليفة ، وأنا أخوكم الشيعى أعلن أن يزيد بن معاوية كان بسيرته الطيبة أحق بالخلافة وأصدق عملا بالشرع المحمدى من خليفتنا ، فكيف بأبيه معاوية » . على أن معاوية كان يقول عن نفسه — فيما رواه خيثمة عن هارون بن معروف عن ضمرة عن ابن شوذب — : « أنا أول الملوك وآخر خليفة » ، وتقدم فى ص ٧٧ حديث معمر عن الزهرى « أن معاوية عمل سنتين عمل عمر ما يخرم فيه » . وقد أشرنا هناك إلى اختلاف البيئة وتأثيره فى أنظمة الحكم ، بل إن معاوية نفسه ذكر ذلك لعمر لما قدم عمر الشام وتلقاه =

=معاوية فى موكب عظيم ، فاستنكر عمر ذلك ، واعتذر له معاوية بقوله : إنا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة ، فيجب أن نظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز للإسلام وأهله ونرهبهم به » . فقال عبد الرحمن بن عوف لعمر : « ما أحسن ما صدر عما أوردته فيه يا أمير المؤمنين » فقال عمر : من أجل ذلك جشمناه ما جشمناه » (البداية والنهاية ٨ : ١٢٤ ـ ١٢٥) ، وسيرة عمر التى حاول معاوية أن يسير عليها سنتين كانت المثل الأعلى فى بيته ، وكان يزيد يحدث نفسه بالتزامها . روى بن أبى الدنيا عن أبى كريب محمد ابن العلاء الهمدانى الحافظ عن رشدين المصرى عن عمرو بن الحارث الأنصارى المصرى عن بكير بن الأشج المخزومى المدنى ثم المصرى أن معاوية قال ليزيد : كيف تراك فاعلا إن وليت ؟ قال : كنت والله يا أبة عاملا فيهم عمل عمر بن الخطاب . فقال معاوية : سبحان الله يا بنى ، والله لقد جهدت على سيرة عثمان فما أطقتها ، فكيف بك وسيرة عمر (ابن كثير ٨ : ٢٢٩) . والذين لا يعرفون سيرة معاوية يستغربون إذا قلت لهم : إنه كان من الزاهدين والصفوة الصالحين . روى الإمام أحمد فى كتاب الزهد (ص ١٧٢ طبع مكة) عن أبى شبل محمد بن هارون عن حسن بن واقع عن ضمرة بن ربيعة القرشى عن على بن أبى حملة عن أبيه قال ; رأيت معاوية على المنبر بدمشق يخطب الناس وعليه ثوب مرقوع . وأخرج ابن كثير (٨ : ١٣٤) عن يونس بن ميسر الحميرى الزاهد (وهو من شيوخ الإمام الأوزاعى) قال : رأيت معاوية فى سوق دمشق ، وهو مردف وراءه وصيفاً وعليه قميص مرقوع الجيب ، يسير فى أسواق دمشق . وكان قواد معاوية وكبار أصحابه يستهدونه ملابسه للتبرك بها ، فكان إذا حضر أخذهم إلى المدينة وعليه هذه الملابس يعرفونها ويتغالون فى اقتنائها . روى الدارقطنى عن محمد بن يحيى بن غسان أن القائد الشهير الضحاك بن قيس الفهرى قدم المدينة ، فأتى المسجد فصلى بين القبر والمنبر ، وعليه برد مرقع قد ارتدى به من كسوة معاوية ، فرآه أبو الحسن البراد فعرف أنه برد =

قال اللهُ فى داود – وهو خيرٌ من كلِّ معاوية [1] – : ﴿ وآتاهُ اللهُ المُلْكَ والْحِكْمَةَ ﴾ . (البقرة : ٢٥١) فجعل النبوة ملكًا . فلا تلتفتوا إلى أحاديث ضعف سندها ومتنها [2]

ولو اقتضت الحالُ النظر فى الأمور لكان – والله أعلم – رأىٌ آخر للجمهور ، ولكن انعقدت البيعة لمعاوية بالصفة التى شاءها الله ، على

= معاوية فساومه عليه وهو يظنه أعرابياً من عامة الناس ، حتى رضى أبو الحسن البراد أن يدفع له ثلاثمائة دينار . فانطلق به الضحاك بن قيس إلى بيت حويطب بن عبد العزى فلبس رداء آخر وأعطى أبا الحسن البراد ذلك البرد بلا ثمن وقال له « قبيح بالرجل أن يبيع عطافه ، فخذه فالبسه » فأخذه أبو الحسن فباعه فكان أول مال أصابه (ابن عساكر ٧ : ص ٦) وقد أوردنا هذه الأمثلة ليعلم الناس أن الصورة الحقيقية لمعاوية تخالف الصورة الكاذبة التى كان أعداؤه وأعداء الإسلام يصورونه بها ، فمن شاء بعد هذا أن يسمى معاوية خليفة وأميراً للمؤمنين ، فإن سليمان بن مهران الأعمش – وهو من الأئمة الأعلام الحفاظ ، وكان يسمى « المصحف » لصدقه – كاد يفضل معاوية على عمر بن عبد العزيز حتى فى عدله . ومن لم يملأ معاوية عينه وأراد أن يضن عليه بهذا اللقب ، فإن معاوية مضى إلى الله عز وجل بعدله وحلمه وجهاده وصالح وعمله ، وكان وهو فى دنيانا لا يبالى أن يلقب بالخليفة أو الملك ، وإنه فى آخرته لأكثر زهداً بما كان يزهد به فى دنياه .

(١) إن داود فى نبوّته – كما يعرفها المسلمون فى دينهم – تجعله خيراً من كل معاوية . وأما داود اليهود – كما يعرفه الناس من توراتهم الموجودة الآن فى الأيدى – فإن معاوية خير منه . ومن شقاء اليهود ألا يعرفوا للقرآن والإسلام فضلها عليهم فى تنزيه أنبياء بنى إسرائيل عما وصموا به فى كتبهم .

(٢) يشير إلى حديث سفينة ، وقد مضى الكلام عليه فى ص ٢٠١

الوجه الذى وعد به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مادحا له ، راضيا عنه ، راجيًا هدنة الحال فيه ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم « ابنى هٰذا سيِّد ، ولعلَّ اللهَ أن يُصلحَ به بين فئتين عظيمتين من المسلمين [1] » .

وقد تكلَّم العلماءُ فى إمامة المفضول مع وجود من هو أفضلُ منه ، ليست المسألةُ فى الحد الذى يجعلها فيه العامة ، وقد بيّناها فى موضعها [2]

فإن قيل : قَتلَ حُجرَ بن عَدِىّ – وهو من الصحابة مشهور بالخير – صبرًا أسيرًا يقول زياد ، وبَعثتْ إليه عائشةُ فى أمره فوجدتْه قد فات بقتله ، قلنا : علمنا قتلَ حُجر كلُّنا ، واختلفنا : فقائل يقول قَتله

(١) تقدم الكلام على هذا الحديث فى ص ٢٠٠

(٢) أى من مؤلفاته الأخرى . وهذه المسألة من مسائل الفقه الإسلامى الممحصة ، المبنية أحكامها على النصوص والسنن والأسس الشرعية التى قام الدين على مثلها فى باب جلب المصالح ودرء المفاسد وتقدير الضرورات بأقدارها . والقاضى أبو الحسن الماوردى فى الأحكام السلطانية (ص ٥) لم يذكر مخالفاً فى جواز إمامة المفضول إلا الجاحظ ، وماذا يضرُّ أئمة الدين إذا خالفهم الجاحظ ، وهل العباسيون الذين عرف الجاحظ بالتقرب إليهم فى حياتهم كانوا أفضل معاصريهم؟ أما جمهور الفقهاء والمتكلمين فقالوا تجوز إمامة المفضول وصحت بيعته ، ولا يكون وجود الأفضل مانعاً من إمامة المفضول إذا لم يكن مقصراً عن شروط الإمامة ، كما يجوز – فى ولاية القضاء – تقليد المفضول مع وجود الأفضل لأن زيادة الفضل مبالغة فى الاختيار ، وليست معتبرة فى شروط الاستحقاق ، ونحيل القارئ على كتاب « الإمامة والمفاضلة » لأبى محمد بن حزم المدرج فى الجزء الرابع من كتابه « الفِصَل » ، ولا سيا الفصل المعقود فيه لإمامة المفضول (ص ١٦٣ – ١٦٧ من طبعة مصر سنة ١٣٢٠) .

ظلمًا ، وقائل يقول قَتَله حقًا [1] .

فإن قيل : الأصلُ قتله ظلما إلا إذا ثبت عليه ما يوجب قتلَه : قلنا :

---

(١) حجر بن عدى الكندى عدّة البخارى وآخرون من التابعين ، وعده البعض الآخر من الصحابة . وكان من شيعة على فى الجمل وصفين . وروى بن سيرين أن زياداً — وهو أمير الكوفة — خطب خطبة أطال فيها ، فنادى حجر بن عدى « الصلاة ! » فمضى زياد فى خطبته ، فحصبه حجر وحصبه آخرون معه . فكتب زياد إلى معاوية يشكو بغى حجر على أميره فى بيت الله ، وعد ذلك من الفساد فى الأرض . فكتب معاوية إلى زياد أن سرح به إلى ... فلما جىء به إلى معاوية أمر بقتله . فالذين يريدون أن معاوية قتله بحق يقولون : ما من حكومة فى الدنيا تعاقب بأقل من ذلك من يحصب أميره وهو قائم يخطب على المنبر فى المسجد الجامع ، مندفعاً بعاطفة الحزبية والتشيع . والذين يعارضونهم يذكرون فضائل حجر ويقولون كان ينبغى لمعاوية أن لا يخرج عن سجيته من الحلم وسعة الصدر لمخالفيه . ويجيبهم الآخرون بأن معاوية يملك الحلم وسعة الصدر عند البغى عليه فى شخصه ، فأما البغى على الجماعة فى شخص حاكمها وهو على منبر المسجد فهو مالا يملك معاوية أن يتسامح فيه ، ولا سيما فى مثل الكوفة التى أخرجت العدد الأكبر من أهل الفتنة الذين بغوا على عثمان بسبب مثل هذا التسامح ، فكبدوا الأمة من دمائها وسمعتها وسلامة قلوبها ومواقف جهادها تضحيات غالية كانت فى غنى عنها لو أن هيبة الدولة حفظت بتأديب عدد قليل من أهل الرعونة والطيش فى الوقت المناسب . وكما كانت عائشة تود لو أن معاوية شمل حجراً بسعة صدره ، فإن عبد الله بن عمر كان يتمنى مثل ذلك . والواقع أن معاوية كان فيه من حلم عثمان وسجاياه ، إلا أنه فى مواقف الحكم كان يتبصر فى عاقبة عثمان وما جر إليه تمادى الذين اجترأوا عليه .

الأصلُ أنَّ قتلَ الإمام بالحق ، فمن ادَّعى أنه بالظلم فعليه الدليل .
ولو كان ظلمًا محضًا لما بقَى بيتٌ إلا لُعن فيه معاوية . وهذه مدينة
السلام دار خلافة بنى العباس – وبينهم وبين بنى أميَّة مالا يخفى على
الناس – مكتوبٌ على أبواب مساجدها : « خيرُ الناس بعد رسول الله
صلى الله عليه وسلم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على ، ثم مُعاوِيَةُ
خالُ المؤمنين رضى الله عنهم [1] » .

ولكنَّ حُجرًا – فيما يقال – رأى من زياد أمورا منكرة [2] ، فحصبه ،
وخلَعه ، وأراد أن يُقيم الخلقَ للفتنة ، فجعله معاويةُ ممن سعى فى الأرض
فسادًا .

وقد كلَّمَتْه عائشةُ فى أمره حين حج ، فقال لها : دعينى وحُجْرا
حتى نلتقى عند الله . وأنتم معشر المسلمين أولى أن تدعوهما حتى يقفا
بين يدى الله مع صاحبهما العدلِ الأمين المصطفى المكين ، وما أنتم
ودخولكم حيث لا تشعرون ، فما لكم لا تسمعون ؟

فإن قيل : قد دسَّ على الحسن من سَمَّه .

---

(١) المؤلف قام فى بغداد زمن الدولة العباسية كما ذكرنا فى ترجمته ، فهو يعرف مساجدها معرفة مشاهدة وعيان . ومعاوية خال المؤمنين لأنه أخو أم المؤمنين رملة بنت أبى سفيان المشهرة بكنيتها (أم حبيبة)

(٢) كان زياد فى خلافة علىّ والياً من ولاته ، وكان حجر بن عدى من أولياء زياد وأنصاره يومئذ . ولم يكن ينكر عليه شيئاً . فلما صار من ولاة معاوية صار ينكر عليه مدفوعاً بعاطفة التحزب والتشيع . وكان حجر يفعل مثل ذلك مع من تولى الكوفة لمعاوية قبل زياد ، فلمعاوية عذر إذا رأى أن حجراً ممن سعى فى الأرض فساداً .

قلنا : هذا مُحال من وجهين : أحدهما أنه ما كان ليتَّقى من الحسن بأسًا وقد سلَّم الأَمر . الثانى أنه أَمرٌ مُغيَّب لا يعلمه إلا الله فكيف تحملونه - بغير بيِّنة - على أحد من خلقه فى زمان متباعد لم نثق فيه بنقل ناقل ، بين أيدى قوم ذوى أهواء ، وفى حال فتنة وعصبية ، ينسب كل واحد إلى صاحبه مالا ينبغى ، فلا يُقبل منها إلا الصافى ، ولا يسمع فيها إلا من العدل المصمم [1] .

فإن قيل : فقد عهد إلى يزيد وليس بأَهل [2] . وجرى بينه وبين

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة (٢ : ٢٢٥) فيما تزعمه الشيعة من أن معاوية سم الحسن : « لم يثبت ذلك ببينة شرعية ، ولا إقرار معتبر ، ولا نقل يجزم به . وهذا مما لا يمكن العلم به ، فالقول به قول بلا علم » . قال : وقد رأينا فى زماننا من يقال عنه سم ومات مسموماً من الأتراك وغيرهم . ويختلف الناس فى ذلك حتى فى نفس الموضع الذى مات فيه والقلعة التى مات فيها ، فتجد كلا منهم يحدث بالشىء بخلاف ما يحدث به الآخر » . وبعد أن ذكر ابن تيمية أن الحسن مات بالمدينة وأن معاوية كان بالشام ، ذكر للخبر احتمالات - على فرض صحته - منها أن الحسن كان مطلاقاً لا يدوم مع امرأة ... الخ (وانظر المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٢٦٦) .

(٢) إن كان مقياس الأهلية لذلك أن يبلغ مبلغ أبى بكر وعمر فى مجموع سجاياهما ، فهذا ما لم يبلغه خليفة فى تاريخ الإسلام ، ولا عمر بن عبد العزيز . وإن طمعنا بالمستحيل وقدرنا إمكان ظهور أبى بكر آخر وعمر آخر فلن تتاح له بيئة كالبيئة التى أتاحها الله لأبى بكر وعمر . وإن كان مقياس الأهلية الاستقامة فى السيرة ، والقيام بحرمة الشريعة ، والعمل بأحكامها ، والعدل فى الناس ، والنظر فى مصالحهم ، والجهاد فى عدوهم ، وتوسيع الآفاق لدعوتهم ، والرفق بأفرادهم وجماعاتهم ، فإن يزيد يوم تمحص أخباره ، =

عبد الله بن عمر وابنَ الزبير والحسن ما قصه [المؤرّخون] عن وهْبِ ابن جرير بن حازم عن أبيه وعن غيره : لما أجمع معاوية أن يبايع لابنه يزيد حجَّ ، فقدم مكة فى نحو ألف رجل . فلما دنا من المدينة خرج ابن عمر وابنُ الزبير وعبدُ الرحمٰن بن أبى بكر فلما قدم مُعاوية المدينة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر ابنه يزيد فقال : من أحقُّ بهذا الأمر منه (١) . ثم ارتحل ، فقدم مكة فقضى طوافه ، ودخل منزله ،

= ويقف الناس على حقيقة حاله كما كان فى حياته ، يتبين من ذلك أنه لم يكن دون كثيرين ممن تغنى التاريخ بمحامدهم ، وأجزل الثناء عليهم .

(١) شباب قريش المعاصرون ليزيد — ممن يحدثون أنفسهم بولاية الأمر لبعض الاعتبارات التى يعرفونها لأنفسهم — كثيرون جداً ، حتى سعيد بن عثمان بن عفان ومن هم دون سعيد كانوا يطمعون بولاية الأمر بعد معاوية . ومبدأ الشورى فى انتخاب الخليفة أفضل بكثير من مبدأ ولاية العهد . لكن معاوية كان يعلم بينه وبين نفسه أن فتح باب الشورى فى انتخاب من يخلفه سيحدث فى الأمة الإسلامية مجزرة لا ترقأ فيها الدماء إلا بفناء كل ذى أهلية فى قريش لولاية شىء من أمور هذه الأمة . ومعاوية أحصف من أن يخفى عليه أن المزايا موزعة بين هؤلاء الشباب القرشيين ، فإذا امتاز أحدهم بشىء منها على أضرابه ولداته ، فإن فيهم من يمتاز عليه بشىء آخر منها . غير أن يزيد — مع مشاركته لبعضهم فى بعض ما يمتازون به — يمتاز عليهم بأعظم ما تحتاج إليه الدولة ، أعنى القوة العسكرية التى تؤيده إذا تولى الخلافة ، فتكون قوة للإسلام . كما تؤيده إذا أوقع الشيطان الفتنة على هذا الكرسى بين المتزاحمين عليه ، فيكون مالا يحب كل مسلم أن يكون . ولو لم يكن ليزيد إلا أخواله من قضاعة وأحلافهم من قبائل اليمن ، لكان منهم مالا يجوز لبعيد النظر أن يسقطه من قائمة الحساب عندما يفكر فى هذه الأمور . أضف هذا =

فبعث إلى ابن عمر ، فتشهّد وقال : « أما بعدُ يا ابن عمر ، فقد كنت تحدّثني أنك لا تحبُّ أن تبيت ليلة سوداء ليس عليك أمير . وإني أُحذّرك أن تشقّ عصا المسلمين ، وإن تسعى في فساد ذات بينهم » . فلما سكت تكلم ابنُ عمر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإنه قد كانت قبلك خُلفاءُ لهم أبناء ليس ابنُك بخير منهم ، فلم يروا في أبنائهم ما رأيتَ في ابنك ، ولكنهم اختاروا للمسلمين حيث علموا الخيار . وإنكَ تحذرني أن أشقّ عصا المسلمين ، ولم أكن لأفعل ، وإنما أنا رجلٌ من المسلمين ، فإذا اجتمعوا على أمر فإنما أنا واحد منهم » . فخرج ابنُ عمر [1] .

وأرسل إلى عبد الرحمن بن أبي بكر ، فتشهّد ثم أخذ في الكلام ، فقطع عليه كلامه ، فقال : « إنك والله لوددتَ أنَّا وكلناك في أمر

= إلى ما قرره ابن خلدون عند كلامه على مسير الحسين إلى العراق للخروج على يزيد حيث ال في فصل « ولاية العهد » من مقدمة تاريخه : « « وأما الشوكة ، فغلط يرحمه الله فيها ، لأن عصبية مضر كانت في قريش ، وعصبية قريش في عبد مناف ، وعصبية عبد مناف إنما كانت في بني أمية ، تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس ولا ينكرونه ، وإنما نسي ذلك أول الإسلام لما شغل الناس من الذهول بالخوارق وأمر الوحي ... حتى إذا انقطع أمر النبوة والخوارق المهولة تراجع الحكم بعض الشيء للعوائد ، فعادت العصبية كما كانت ولمن كانت ، وأصبحت مضر أطوع لبني أمية من سواهم » .

(١) هذا الخبر معارض بما في كتاب المغازي من صحيح البخاري (ك ٦٤ ب ٢٩ — ج ٥ ص ٤٨) عن ابن عمر أن أخته أم المؤمنين حفصة نصحت له بأن يسرع بالذهاب للبيعة وقالت : « الحق ، فإنهم ينتظرونك ، وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة » . وانظر ص ٢٢٣

ابنك إلى الله . وإنا والله لا نفعل . والله لتردّنّ هذا الأمر شورى فى المسلمين أو لتفرنها عليك جذَعة [1] » ثم وَثب فقام . فقال معاويةُ « اللهم اكفِفْه بما شئت » . ثم قال : « على رِسلكَ أيها الرجل ، لا تشرفنّ لأهل الشام ، فإنى أخاف أن يسبقونى بنفسك ، حتى أخبَر العشية أنك قد بايعتَ ، ثم كنْ بعد ذلك على ما بدا لك من أمرك » .

ثم أرسل إلى ابن الزبير فقال : « يا ابن الزبير ، إنما أنتَ ثعْلب روّاغ كلّما خرج من جُحر دخل فى آخر ، وإنك عمدت إلى هذين الرجلين فنفخت فى مناخِرهما » . فقال ابن الزبير : « إن كنتَ قد مللتَ الإمارة فاعتزلها ، وهلمّ ابنك فلنبايعْه . أرأيت إذا بايعتُ ابنك معك لأيّكما نسمع ، لأيكما نطيع ؟ لا تجتمع البيعةُ لكما أبداً [2] » . ثم قام .

فخرج معاويةُ فصعد المنبرَ فقال : إنا وجدنا أحاديثَ الناس ذات عوار . وزعموا أن ابن عمر وابن الزبير وابنَ أبى بكر لم يبايعوا ليزيد ، قد سمعوا وأطاعوا وبايعوا له .

فقال أهلُ الشام : لا والله ، لا نرضى حتى يبايعوا على رءوس الأشهاد ، وإلّا ضربنا أعناقهم .

---

(١) أى لتنكشفن عليك الفتنة فى أشد حالاتها . ويلاحظ أن الذين انتحلوا هذه الأقوال فى الاستطالة على معاوية لم يطعنوا فى كفاءة يزيد وأهليته لأنها آخر ما يرتابون فيه .

(٢) ابن الزبير أذكى من أن يفوته أن البيعة ليزيد بعد معاوية ، وليست لهما معاً فى حياة معاوية . والذين اخترعوا هذه الأخبار وأضافوها إلى وهب بن جرير بن حازم يكذبون كذباً مفضوحاً .

فقال : « مَهْ ، سُبحان الله ، ما أسرع الناس إلى قريش بالشرّ .
لا أسمعُ هٰذه المقالة من أحد بعد اليوم » . ثم نزل .

فقال الناسُ : بايعوا . ويقولون هم : لم نبايع . ويقول الناس : قد بايعتم .

وروى وَهْب من طريق آخر قال : خطب معاوية فذكر ابن عمر فقال : « والله ليبايعنّ أو لأقتلنّه » . فخرج عبد الله بن عبد الله بن عمر إلى أبيه وسار إلى مكة ثلاثا وأخبره [1] ، فبكى ابنُ عمر . فبلغ الخبرُ إلى عبد الله بن صَفْوان ، فدخل على ابنِ عمر فقال : أخطبَ هٰذا بكذا ؟ قال : نعم . قال فما تُريد ، أتريد قتاله ؟ قال : يا ابن صفوان ، الصبر خيرٌ من ذٰلك . فقال ابنُ صفوان : والله لو أراد ذٰلك لأقاتلنّه [2] . فقدم معاويةُ مكة فنزل ذا طُوى ، وخرج إليه عبدُ الله بن صفوان فقال :

---

(١) هذا الخبر عن وهب بن جرير بن حازم يشعر بأن معاوية خطب هذه الخطبة وهو فى المدينة قادماً إليها من دمشق قبل أن يصل إلى مكة ، وأن ابن عمر كان يومئذ فى مكة فركب إليه ابنه حتى لقيه بمكة وأخبره بهذه الخطبة . وفى الخبر الذى قبل هذا — وهو مروى عن وهب بن جرير بن حازم أيضاً — التصريح بأن ابن عمر كان بالمدينة عند وصول معاوية إليها من دمشق ، وأنه كان مع الأعيان الذين خرجوا لاستقباله . فالخبران متناقضان يكذب أحدهما الآخر مع أنهما عن راو واحد . ولا أدرى من أين جاء بهما المؤلف ، ولم ينقلها الطبرى مع أنه يعتنى بأخبار وهب بن جرير لأنه ثقة ، ووهب مات سنة ٢٠٦ وأبوه سنة ١٧٠ بعد أن اختلط ، فبينهما وبين هذه الحوادث رواة آخرون ، وبينهما وبين الطبرى غيره من المؤخرين رواة كثيرون . وأعتقد أن هذه الأخبار غير صحيحة لتناقضها ، ولو عرفنا رواتها إلى وهب وبعد وهب لعرفنا من أين جاء الكذب .

(٢) عبد الله بن صفوان حفيد أمية بن خلف الجمحى . قتل مع ابن الزبير سنة ٧٣

أنت تزعم أنك تقتل ابن عمر إن لم يبايعْ لابنك ؟ قال : أنا أقتل ابن عمر ؟ إنى والله لا أقتله .

وروى وهْب من طريق ثالث [1] قال : إن معاوية لما راح عن بطن مُرّ قاصدًا إلى مكة قال لصاحب حَرَسه : لاَ تدعْ أحدًا يسير معى إلّا من حملته . فخرج يسير وحده ، حتى إذا كان وسط الأَراك لقيه الحسينُ ابن علىّ ، فوقف وقال : مرحبًا وأهلًا بابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيّد شباب المسلمين . دابّة لأَبى عبد الله يركبها . فأُتى ببرْذوْن ، فتحوّل عليه . ثم طلع عبدُ الرحمٰن بن أَبى بكر [2] ، فقال : مرحبا بابن شيخ قريش وسيدهم وابن صدّيق هذه الأُمة . دابّة لأَبى محمد يركبها . فأُتى ببرذون فركبه . ثم طلع ابنُ عمر فقال : مرحبًا وأهلًا بصاحب رسول الله وابن الفاروق وسيِّد المسلمين، ودعا له بدابة فركبها. ثم طلع ابن الزبير فقال : مرحبًا وأهلًا بابن حَوارىّ رسول الله وابن الصدّيق وابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا له بدابة فركبها. ثم أقبل يسيرُ بينهم لا يسايره غيرهم حتى دخل مكة ، ثم كانوا أول داخل وآخر خارج ليس فى الأَرض صباح إلا لهم فيه حِباءٌ وكرامة ، لا يعرض لهم بذكر شيء مما هو فيه حتى قضى نسكه وترحّلتْ أثقاله وقرُبَ مسيرُه إلى الشام وأُنيخت رواحُله ، فأَقبلَ بعضُ القوم على بعض

(١) وهذا الخبر أيضاً ليس عند الطبرى . وأظنه مصنوعاً فى المصنع الذى خرج منه الخبران السابقان .

(٢) نحن نعلم من الخبر الأول عن وهب أن عبد الرحمن بن أبى بكر كان فى المدينة ، وكان مع الذين استقبلوا معاوية عند وصوله إليها من دمشق ، فما الذى طار به إلى مكة حتى صار فى مستقبلى معاوية عند وصوله إليها ؟ حقاً إن الذين يكذبون على معاوية أغبياء لا يجيدون صناعة الكذب .

فقالوا : أيها القوم لا تُخدعوا إنه والله ما صنع هٰذا لحبّكم ولا لكرامتكم ولا صنعه إلا لما يريد ، فأعدُّوا له جوابًا . وأقبلوا على الحسين فقالوا : أنت يا أبا عبد الله . قال : وفيكم شيخُ قريش وسيدها ؟ هٰذا أحقُّ بالكلام . فقالوا : أنت يا أبا محمد - لعبد الرحمٰن بن أبي بكر - فقال . لستُ هناك ، وفيكم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن سيد المسلمين - يعني ابن عمر - فقالوا لابن عمر : أنت ! فقال : لستُ بصاحبكم ، ولٰكن أولوا الكلام ابن الزبير يَكفِكم . قالوا : أنتَ يا ابن الزبير . قال : نعم ، إن أعطيتموني عهودَكم ومواثيقكم أن لا تُخالفوني كفيتُكم الرجل . فقالوا : فلك ذٰلك . فخرج الإذن ، فأذن لهم . فدخلوا .

فتكلم معاويةُ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : لقد علمتم سيرتي فيكم ، وصِلتي لأرحامكم ، وصفحي عنكم ، وحملي لما يكون منكم ، ويزيدُ ابنُ أمير المؤمنين أخوكم وابنُ عمكم وأحسنُ الناس لكم رأيًا . وإنما أردت أن تقدّموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم الذين تنزعون وتؤمّرون وتجبون وتقسمون لا يدخل عليكم في شيء من ذٰلك .

فسكت القوم . فقال : ألاَ تجيبوني ؟ فسكت القوم . فقال : ألا تجيبوني ؟ فسكتوا : فأقبل على ابن الزبير فقال : : هات يا ابن الزبير ، فإنك لعمري صاحبُ خطبة القوم ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين أخيرك بين ثلاث خصال أيّها أخذت فهي لك رغبة : قال : لله أبوك ، اعرضهنّ : قال : إن شئت صنعتَ ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن شئتَ صنعت ما صنع أبو بكر فهو خيرُ هٰذه الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن شئت صنعت ما صنع عمرُ

فهو خيرَ هٰذه الأمة بعد أبي بكر : قال : لله أبوك ، ما صنعوا ؟ قال : قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يستخلفْ أحدًا ، فارتضى المسلمون أبا بكر ، فإن شئت أن تدع أمرَ هٰذه الأُمة حتى يقضيَ الله فيه قضاءه فيختار المسلمون لأنفسهم . فقال : إيه ليس فيكم اليوم مثلُ أبي بكر ، وإني لا آمن عليكم الاختلاف . قال : فاصنعْ كما صنع أبو بكر ، عهد إلى رجل من قاصِيةِ قريش ليس من بني أبيه فاستخلفه . قال : لله أبوك. الثالثة ؟ قال : تصنعُ ما صنعَ عمر ، جعل الأمرَ شورى في ستة نفر من قريش ليس أحدٌ منهم من ولد أبيه . قال : عندك غير هٰذا ؟ قال : لا . قال : فأنتم ؟ قالوا : ونحن أيضًا . قال . أمّا لا ، فإني أحببتُ أن أتقدم إليكم ، إنه قد أعْذَر من أنذر ، وإن كان يقوم القائمُ منكم إليَّ فيكذِّبني على رءُوس الأشهاد فأحتمل له ذٰلك . وإني قائم بمقالة ، فإن صدقتُ فلي صدقي وإن كذبت فعليَّ كذِبي . وإني أُقسم بالله لكم لئن ردّ عليَّ إنسان منكم لا ترجع إليه كلمته حتى يسبق إليَّ رأسه . ثم دعا بصاحب حرسه فقال : أقمْ على كلّ رجل من هؤلاء رجلين من حرسك فإن ذهب رجل يردُّ عليَّ كلمة بصدق أو كذب فليضرباه بسيفيهما (١)

ثم خرج وخرجوا معه ، حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هؤلاءِ الرهطَ سادةُ المسلمين وخيارُهم ، لا نستبدُّ بأمر دونهم ، ولا نقضي أمرًا إلا عن مشورتهم . وإنهم ارتضوا وبايعوا ليزيد بن أميرالمؤمنين من بعده ، فبايعوا باسم الله . فضربوا على يده ، ثم جلس على راحلته وانصرف .

(١) أورد المؤلف هذه الأخبار المفضوح كذبها ليعارضها في ص ٢٢٤ بحديث البخاري عن الموقف السليم لابن عمر في هذا الحادث ، حتى يعلم الناس أن الحق في واد وهؤلاء الرواة الكاذبون في واد غيره .

فلقيهم الناس فقالوا : زعمتم وزعمتم ، فلما أُرضيتم وحُبيتم فعلتم قالوا : إنا والله ما فعلنا . قالوا : فما منعكم أن تردُّوا على الرجل إذ كذب؟ ثم بايع أهلُ المدينة والناس ، ثم خرج إلى الشام .

قال القاضى أبو بكر (رضى الله عنه) : لسنا نتكر ، ولا بلغت بنا الجهالةُ ، ولا لنا فى الحق حميَّةٌ جاهلية ، ولا ننطوى على غِلٍّ لأحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، بل نقول ﴿ ربَّنا اغفرْ لنَا ولإخوانِنَا الَّذِين سبَقُونَا بالإِيمان ، ولَا تجْعَلْ فِى قُلُوبنَا غِلاًّ لِلَّذِين آمنُوا ، رَبَّنا إنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيم ﴾ إلَّا أنْ نقول ، إن معاوية ترك الأفضل فى أن يجعلها شورى ، وألَّا يخص بها أحدًا من قرابته فكيف ولدًا ، وأن يقتدى بما أشار به عبد الله بن الزبير فى الترك أو الفعل [1] فعدل إلى ولاية ابنه وعقد له البيعة وبايعه الناس ، وتخلَّف عنها من تخلَّف [2] ، فانعقدتِ البيعةُ شرعًا ، لأنها تنعقد بواحد وقيل باثنين [3]

فإن قيل : لمن فيه شروط الإمامة ، قلنا : ليس السنُّ من شروطها ، ولم يثبت أنه يقصُرُ يزيد عنها .

[فإن] قيل ، كان منها العدالة والعلم ، ولم يكن : يزيد عَدْلًا ولا

---

(١) كان معاوية أعرف بابن الزبير من ابن الزبير بنفسه ، روى البلاذرى فى أنساب الأشراف (٤ ، ٢ : ٥٣ — ٥٤) عن المدائنى عن مسلمة بن علقمة عن خالد عن أبى قلابة أن معاوية قال لابن الزبير : « إن الشح والحرص لن يدعاك حتى يدخلاك مدخلا ضيقاً ، فوددت أنى حينئذ عندك فأستنقذك » . فلما حصر ابن الزبير قال : « هذا ما قال لى معاوية ، وددت أنه كان حياً » .

(٢) عدل عن الوجه الأفضل لما كان يتوجس من الفتن والمجازر إذا جعلها شورى ، وقد رأى القوة والطاعة والنظام والاستقرار فى الجانب الذى فيه ابنه .

(٣) انظر ص ١٤٤ ، والفِصَل لابن حزم ٤ : ١٦٧ — ١٦٩

عالماً . قلنا : وبأَيّ شي نعلم عدم علمه ، أو عدم عدالته (١) ؟ ولو كان مسْلوبَهُما لذكر ذلك الثلاثة الفضلاءُ الذين أشاروا عليه بأن لا يفعل ، وإنما رموْا إلى الأمر بعيب التحكُّم ، وأرادوا أن تكون شورىٰ .

فإن قيل . كان هنالك من هو أحقُّ منه عدالة وعلمًا ، منهم مائة وربما ألف . قلنا : إمامةُ المفضول – كما قدمنا [٢] – مسألةُ خِلاف بين العلماء ، كما ذكر العلماءُ فى موضعه .

وقد حسم البخاريُّ الباب ، ونهج جادّة الصَّواب ، فروى فى صحيحه ما يُبطل جميع هٰذا المتقدم ، وهو أن مُعاوية خطب وابنُ عمرَ حاضر فى خطبته ، فيما روى البخاريُّ [٣] عن عكرمة بن خالد أنَّ ابنَ عمر قال : دخلتُ على حفْصة ونوساتها تَنْطُف[٤] . قلت : قد كان من الأَمر ما ترين ، فلم يُجعل لى من الأَمر شيء . فقالت : « الحقْ ، فإنهم ينتظرونك وأخشىٰ أن يكون فى احتباسِك عنهم فُرْقة » . فلم تَدعْه حتى ذهب .

---

(١) أما عن الدالة فقد شهد له محمد بن على بن أبى طالب فى مناقشته لابن مطيع عند قيام الثورة على يزيد فى المدينة فقال عن يزيد : « ما رأيت منه ما تذكرون . وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظباً على الصلاة ، متحرياً للخير ، يسأل عن الفقه ، ملازماً للسنة » (ابن كثير ٨ : ٢٣٣) . وأما عن العلم فالذى يلزم منه لمثله فى مثل مركزه كان فيه موضع الرضا وفوق الرضا : روى المدائنى أن ابن عباس وفد إلى معاوية بعد وفاة الحسن بن على ، فدخل يزيد على ابن عباس وجلس منه مجلس المعزى ، فلما نهض يزيد من عنده قال ابن عباس : إذا ذهب بنو حرب ذهب علماء الناس (ابن كثير ٨ : ٢٢٨)

(٢) فى ص ٢١١ (٣) ك ٦٤ ب ٢٩ ب ٢٩ – ج ٥ ص ٤٨

(٤) أى وذوائبها تقطر ماء ، سمى الذوائب « نوسات » لأنها تنوس ، أى تتحرك .

فلما تفرّق الناسُ خطب معاوية فقال : من كان يريد أن يتكلّم فى هٰذا الأمر فليُطْلِعْ لنا قَرْنَه ، فلَنحنُ أَحقُّ به منه ومن أبيه . قال حبيب ابن مسْلمة (١) فهلا أجبته ؟ قال عبد الله : فحلك حبْوتى ، وهممتُ أن أقول : أحقُّ بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام ، فخشيت أن أقول كلمة تفرّق بين الجمع وتسفك الدمَ ويُحمل على غير ذٰلك ، فذكرتُ ما أعدَّ اللهُ فى الجنان . فقال حبيب : حُفظت وعُصمت .

وروى البخارى (٢) أن أهل المدينة لما خلعوا يزيد بن معاوية جمع ابنُ عمر حشمه وولده وقال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُنصب لكل غادر لواءٌ يوم القيامة» وإنّا قد بايعنا هٰذا الرجل على بيع الله ورسوله (٣) ، وإنى لا أعلم غدرًا أعظم من أن نُبايع رجلًا

---

(١) حبيب بن مسلمة الفهرى مكى كان عند وفاة النبى صلى الله عليه وسلم صبياً ، ثم التحق بالشام للجهاد فاشتهرت بطولته ، ويعدُّ فاتح أرمينية ، ويقال إنه كان قائد النجدة التى خرجت من الشام لإنقاذ عثمان من أيدى البغاة عليه ، فجاءها الخبر بشهادته وهى فى الطريق فعادت .

(٢) فى كتاب الفتن من صحيحه (ك ٩٢ ب ٢١ — ج ٨ ص ٩٩) .

(٣) وهذا الخبر المنير الذى يرويه البخارى فى صحيحه يفضح الذين زوروا على وهب بن جرير تلك الأخبار المتناقضة بأن عمر وغيره لم يبايعوا ليزيد ، وأن معاوية أقام على رءوسهم من يقطعها إذا كذبوه فيما افتراه عليهم من أنهم بايعوا لابنه . فتبين الآن أنه لم يفتر عليهم ، وهذا ابن عمر يعلن فى أحرج المواقف — أى فى ثورة أهل المدينة على يزيد بتحريض ابن الزبير وداعيته ابن مطيع — أن فى عنقه كما فى أعناقهم بيعة شرعية لإمامهم على بيع الله ورسوله ، وأن من أعظم الغدر أن تبايع الأمة إمامها ثم تنصب له —

على بيع الله ورسولهِ ثم ننصبُ له القتال . وإني لا أعلم أحدًا منكم خَلعه ولا بايع فى هٰذا الأمر إلّا كانت الفَيْصل بيني وبينه [1] .

فانظروا معشرَ المسلمين إلى ما روىٰ البخاريُّ فى الصحيح ، وإلى ما سبق ذكرُنا له فى رواية بعضهم أن عبد الله بن عمر لم يبايع ، وأن معاوية كذب وقال قد بايع . وتقدم إلى حرَسه يأمره بضرب عنقه إن كذَّبه . وهو قد قال فى رواية البخارى : « قد بايعناه على بيع الله ورسوله » وما بينهما من التعارض ، وخذوا لأنفسكم بالأرجح فى طلب السلامة ، والخلاص بين الصحابة والتابعين . فلا تكونوا – ولم تشاهدوهم ، وقد عصمكم الله من فتنتهم – ممن دخل بلسانه فى دمائهم ، فيلغُ فيها ولوغ الكلب بقية الدم على الأرض بعد رفع الفريسة بلحمها ، لم يلحق الكلبَ منها إلا بقية دم سقط على الأرض .

وروى الثبتُ العدلُ عن عبد الرحمٰن بن مهدى ، عن سفيان ، عن محمد بن المنكدر قال : قال ابنُ عمر حين بويع يزيد « إن كان

= القتال . ولم يكتف ابن عمر بذلك فى تلك الثورة على يزيد بل روى مسلم فى كتاب الإمارة من صحيحه (ك ٣٣ ح ٥٨ – ج ٦ ص ٢٢) أن ابن عمر جاء إلى ابن مطيع داعية ابن الزبير ومثير هذه الثورة فقال ابن مطيع : اطرحوا لأبى عبد الرحمن وسادة . فقال ابن عمر : إنى لم آتك لأجلس ، أتيتك لأحدثك حديثاً سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله : « من خلع يداً من طاعة ، لقى الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » . وكان لمحمد بن على بن أبى طالب (المعروف بابن الحنفية) مثل هذا الموقف من داعية الثورة ابن مطيع سيراه القارئ فى ص ٢٢٧ – ٢٢٨ عند الكلام على سيرة يزيد .

(١) انظر لوقعة الحرة ص ٢٩٢ – ٢٩٤ من (المنتقى من منهاج الاعتدال) .

خيرًا رضينا ، وإن كان شرًا صبرنا » .

وثبت عن حميد بن عبد الرحمٰن قال : دخلنا على رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استخلف يزيدُ بن معاوية فقال : تقولون إن يزيد بن معاوية ليس بخير أمة محمد ، لا أفقهها فقهًا ولا أعظمها فيها شرفًا . وأنا أقول ذٰلك . ولٰكنْ والله لأنْ تجتمعَ أمة محمد أحبُّ إليَّ من أن تفترق . أرأيتم بابًا دخل فيه أمةُ محمد ووسعهم ، أكان يعجز عن رجل واحد لو كان دخل فيه ؟ قلنا : لا . قال : أرأيتم لو أن أمة محمد قال كلٌّ رجل منهم لا أريق دمَ أخي ولا آخذ ماله ، أكان هٰذا يسعُهم ؟ قلنا : نعم . قال : فذٰلك ما أقول لكم . ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يأتيك من الحياء إلا خير » .

فهٰذه الأخبار الصحاح كلها تعطيك أن ابن عمر كان مسلِّمًا فى أمر يزيد ، وأنه بايع وعقدَ له والتزم ما التزم الناس ، ودخل فيما دخل فيه المسلمون ، وحرم على نفسه ومن إليه بعد ذٰلك أن يخرج على هٰذا أو ينقُضَه .

وظهر لك أن من قال : إن معاوية كذب فى قوله « بايع ابن عمر » ولم يبايع ، وأن ابن عمر وأصحابه سُئلوا فقالوا « لم نبايع » فقد كذب . وقد صدق البخاريُّ فى روايته قول معاوية فى المنبر « إن ابنَ عمر قد بايع » بإقرار بن عمر بذٰلك [1] وتسليمه له وتماديه عليه .

فأيٌّ الفريقين أحقٌّ بالصدق إن كنتم تعلمون ؟ الفريقُ الذى فيه البخارى ، أم الذى فيه غيره ؟

(1) فى ثورة المدينة على يزيد ، وفى المناسبات الأخرى . انظر ص ٢٢٤

فخذوا لأنفسكم بالأَحْزَم ، والأصح ، أو اسكتوا عن الكلّ ، والله يتولّى توفيقكم وحفظكم .

و « الصاحب » الذى كنى عنه حميد بن عبد الرحمن هو ابن عمر ، والله أعلم . وإن كان غيره فقد أجمع رجلان عظيمان على هذه المقالة ، وهى تعضد ما أصّلناه لكم من أن ولاية المفضول نافذة وإن كان هنالك من هو أفضل منه إذا عقدت له . ولما فى حلها - أو طلب الأفضل - من استباحة مالا يُباح ، وتشتيت الكلمة ، وتفريق أمر الأمة .

فإن قيل . كان يزيد خمّارًا . قلنا : لا يحلّ إلا بشاهدين ، فمن شهد بذلك عليه [1] ؟ بل شهد العدلُ بعدالته . فروى يحيى بنُ بكير

---

(١) إن معاوية - مع شديد حبه ليزيد ، لألمعيته واكتمال مواهبه - آثر أن ينشأ ابنه بعيداً عنه فى أحضان الفطرة ، وخشونة البداوة وشهامتها ، ليستكمل الصفات اللائقة بالمهمة التى تنتظر أمثاله ، فبعث به إلى أخبية البادية عند أخواله من قضاعة ، ليكون على مذهب أمه ميسون بنت بحدل يوم قالت :

لبيتٌ تخفق الأرواح فيــه ... أحبُّ إلىَّ من قصر منيــف

وفى ذلك الوسط أمضى يزيد زمن صباه وصدر شبابه ، وما لبث أن انتقل أبوه إلى رحمة الله حتى تولى المركز الذى أراده الله له . فلما خلا الجو لابن الزبير - بموت معاوية - صار دعاته يذيعون فى الحجاز الأكاذيب على يزيد ، وينسبون إليه مالا يحلّ لهم ، نقل الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٨: ٢٣٣) أن عبد الله بن مطيع (داعية ابن الزبير) مشى فى المدينة هو وأصحابه إلى محمد بن على بن أبى طالب (المعروف بابن الحنفية) فأرادوه على خلع يزيد ، فأبى عليهم ، فقال ابن مطيع : إن يزيد يشرب الخمر ، ويترك الصلاة ، ويتعدى حكم الكتاب . فقال لهم : ما رأيت منه ما تذكرون ، وقد حضرته ، وأقمت عنده ، فرأيته مواظباً على الصلاة ، متحرياً للخير ، يسأل عن الفقه ، ملازماً =

عن الليث بن سعد ، قال الليث : « توفى أمير المؤمنين يزيد فى تاريخ كذا » فسماه الليث « أمير المؤمنين » بعد ذهاب ملكهم وانقراض دولتهم ، ولولا كونه عنده كذلك ما قال إلا « تُوُفى يزيد » .

فإن قيل : ولو لم يكن ليزيد إلا قتله للحسين بن علىّ . قلنا : يا أسفًا على المصائب مرة ، ويا أسفًا على مصيبة الحسين ألف مرة . وإن بوله يجرى على صدر النبي صلى الله عليه وسلم ، ودمه يراق على البوغاء ولا يحقن [1] يا لله ويا للمسلمين .

وإن أمثل ما رُوى فيه أنَّ يزيد كتب إلى الوليد بن عُتبة ينعى له

= للسنة . قالوا : فإن ذلك كان منه تصنعاً لك . فقال : وما الذى خاف منى أو رجا حتى يظهر إلىّ الخشوع ؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر ؟ فائن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه ، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا . قالوا : إنه عندنا لحق وإن لم نكن رأيناه . فقال لهم أبى الله ذلك على أهل الشهادة فقال : ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ (الزخرف : ٨٦) ، ولست من أمركم فى شىء . قالوا : فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك ، فنحن نوليك أمرنا . قال : ما أستحل القتال على ما تريدوننى عليه تابعاً ولا متبوعاً . قالوا : فقد قاتلتَ مع أبيك . قال : جيئونى بمثل أبى أقاتل على مثل ما قاتل عليه . فقالوا : فمر ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا . قال : لو أمرتهما قاتلت . قالوا : فقم معنا مقاماً يحض الناس فيه على القتال . قال : سبحان الله ، آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه ؟ إذن ما نصحت لله فى عباده . قالوا : إذن نكرهك . قال . إذن آمر الناس بتقوى الله ، وألا يرضوا المخلوق بسخط الخالق (وخرج إلى مكة)

(١) البوغاء : التراب الناعم .

معاوية ويأمره أن يأخذ له البيعةَ على أهل المدينة – وقد كانت تقدَّمتْ – فدعا مروان فأخبره فقال له : أرسل إلى الحسين بن على وابن الزبير ، فإن بايعوا وإلا فاضرب أعناقهم . قال : سبحان الله ؛ نقتل الحسين بن على وابن الزبير ؟ قال : هو ما أقول لك . فأرسل إليهما ، فأتاه ابنُ الزبير ، فنعى إليه معاويةَ وسأله البيعة ، فقال : ومثلى يبايع هنا ؟ ارق المنبر ، وأنا [أُبايع] مع الناس علانية . فوثب مروانُ وقال : اضربْ عنقَه ، فإنه صاحبُ فتنة وشرّ . فقال [ابن الزبير] . فإنك لهنالك يا ابن الزرقاء ؟ (واستبّا) . فقال الوليد : أُخرجا عنى . وأرسل إلى الحسين ولم يكلمه بكلمة فى شىء ، وخرجا من عنده . وجعل الوليدُ عليهما الرصد . فلما دنا الصبحُ خرجا مسرعَين إلى مكة فالتقيا بها فقال له ابن الزبير : ما يمنعك من شِيعتك وشيعة أبيك ؟ فوالله لو أن لى مثلَهم لذهبتُ إليهم . فهذا ما صحّ .

وذكر المؤرخون أنَّ كُتُب أهل الكوفة وردت على الحسين [1] ،

---

(١) أول من كتب إليه من شيوخ شيعته – على ما رواه مؤرخهم لوط بن يحيى : سليمان بن صُرَد والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر : وأرسلوا كتابهم مع عبد الله بن سبع الهمدانى وعبد الله بن وال ، فبلغا حسيناً بمكة فى عاشر رمضان سنة ٦٠ ، وبعد يومين سرحوا إليه قيس بن مسهر الصيداوى وعبد الرحمن بن عبد الله ابن الكدن الأرحبى وعمارة السلولى بثلاث وخمسين صحيفة ، وبعد يومين آخرين سرحوا إليه هانئ بن هانئ السبيعى وسعيد بن عبد الله الحنفى (وفى الطبرى ٦ : ١٩٧ نصوص بعض رسائلهم وأسماء بعض أصحابها) وهى تدور على أنهم لا يجتمعون مع أميرهم النعمان ابن بشير فى جمعة ، ويدعون الحسين إليهم حتى إذا أقبل طردوا أميرهم وألحقوه بالشام ، ويقولون فى بعضها : « أينعت الثمار ، فإذا شئت فاقدم على جند لك مجند » . فأرسل الحسين إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب ليرى إن كانوا مستوثقين مجتمعين ليقدم هو عليهم =

وأنه أرسل مسلم بن عقيل – ابن عمه – إليهم ليأخذ عليهم البيعة

= بعد ذلك . وضل مسلم بن عقيل فى الطريق ومات من معه من العطش ، فكتب إلى الحسين يستعفيه من هذه المهمة ، فأجابه : خشيت ألا يكون حملك على الاستعفاء إلا الجبن . فمضى مسلم حتى بلغ الكوفة ، وأعطاه البيعة للحسين اثنا عشر ألفاً منهم ، وشعر أمير الكوفة النعمان بن بشير بحركاتهم فخطب فيهم ينهاهم عن الفتنة والفرقة ، وقال لهم : إنى لا أقاتل إلا من قاتلنى ، ولا آخذ بالظنة والتهمة ، فإن أبديتم لى صفحتكم ونكثتم بيعتكم لأضربنكم بسيفى ما ثبت قائمه فى يدى . وعلم يزيد أن النعمان بن بشير حليم ناسك لا يصلح فى مقاومة مثل هذه الحركة ، فكتب إلى عبيد الله بن زياد عامله على البصرة أنه قد ضم إليه الكوفة أيضاً ، وأمره أن يأتى الكوفة وأن يطلب ابن عقيل كطالب الخرزة حتى يثقفه فيوثقه فيقتله أو ينفيه . فاستخلف عبيد الله أخاه على البصرة ، وأقبل إلى الكوفة فاتصل برؤسائها وقبض على أزمة الحال ، فما لبث مسلم بن عقيل أن رأى مبايعيه الإثنى عشر ألفاً كالهباء ، ورأى نفسه وحيداً طريداً ، ثم قبض عليه وقتل . وكان الحسين قد جاءته قبل ذلك رسائل مسلم بن عقيل بأن اثنى عشر ألفاً بايعوه على الموت ، فخرج عقب موسم الحج يريد الكوفة ، ولم يشجعه على الخروج إلا ابن الزبير لأنه عرف أن أهل الحجاز لا يتابعونه ما دام الحسين معهم ، فصار الحسين أثقل خلق الله على ابن الزبير (الطبرى ٦ : ١٩٦ – ١٩٧ وانظر ٦ : ٢١٦ و ٢١٧) . أما المشفقون على الحسين من هذا الخروج المشئوم فهم جميع أحبائه وذوى قرابته والناصحين له والمتحرين سنة الإسلام فى مثل هذا الموقف ، كل هؤلاء نهوه عن مسيره ، وحذروه من عواقبه ، وفى طليعتهم أخوه محمد ابن الحنفية (الطبرى ٦ : ١٩٠ – ١٩١) (وابن عم أبيه حبر الأمة عبد الله بن العباس (الطبرى ٦ : ٢١٦–٢١٧) وابن عمه عبد الله بن جعفر بن أبى طالب (٢ : ٢١٩) ، =

وينظر هو فى اتِّباعه ، فنهاه ابنُ عباس وأعلمه أنهم خذلوا أباه وأخاه ، وأشار عليه ابنُ الزبير بالخروج فخرج ، فلم يبلغ الكوفة إلَّا ومُسلم ابن عقيل قد قُتل وأسلمه من كان استدعاه ! ويكفيك بهذا عِظةً لمن اتعظ . فتمادَى واستمرَّ غضبًا للدين وقيامًا بالحق . ولكنه — رضى الله عنه — لم يقبل نصيحة أعلم أهل زمانه ابن عباس ، وعدَلَ عن رأى شيخ الصحابة ابن عمر [1] وطلب الابتداء فى الانتهاء ، والاستقامة

= وقد بلغ الأمر بعبد الله بن جعفر أن حمل والى يزيد على مكة — وهو عمرو بن سعيد ابن العاص — على أن يكتب للحسين كتاب الأمان ويمنيه فيه البر والصلة ويسأله الرجوع ، فأجابه والى مكة إلى كل ما طلب وقال له : اكتب ما تشاء وأنا أختم على الكتاب ، فكتبه وختمه الوالى ، وبعث به إلى الحسين مع أخيه يحيى بن سعيد بن العاص ، وذهب عبد الله ابن جعفر مع يحيى ، وجهدا بالحسين أن يثنياه عن السفر فأبى (وصورة كتاب الوالى فى تاريخ الطبرى ٦ : ٢١٩ — ٢٢٠) ، وليس فوق هؤلاء الناصحين أحد فى عقلهم وعلمهم ومكانتهم وإخلاصهم ، بل إن عبد الله بن مطيع داعية ابن الزبير كان من ناصحيه بعقل وإخلاص (الطبرى ٦ : ١٩٦) وعمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى كان على هذا الرأى (الطبرى ٦ : ٢١٥ — ٢١٦) والحارث بن خالد بن العاص ابن هشام لم يأله نصحاً (٦ : ٢١٦) وحتى الفرزدق الشاعر قال له : قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية (الطبرى ٦ : ٢١٨) فلم يفد شىء من هذه الجهود فى تحويل الحسين عن هذا السفر الذى كان مشئوماً عليه ، وعلى الإسلام ، وعلى الأمة الإسلامية إلى هذا اليوم وإلى قيام الساعة ، وكل هذا بجناية شيعته الذين حرضوه بجهل وغرور رغبة فى الفتنة والفرقة والشر ، ثم خذلوه بجبن ونذالة وخيانة وغدر . ولم يكتف ورثتهم بما فعل أسلافهم فعكفوا على تشويه التاريخ وتحريف الحقائق ورد الأمور على أدبارها .

(١) فى إيثاره العافية ، وحرصه على وحدة المسلمين وتفرغهم لنشر الدعوة والفتوح .

فى الاعوجاج، ونضارة الشبيبة فى هشيم المشيخة. ليس حولَه مثلُه ولا له، من الأنصار من يرعى حقَّه، ولا من يبذلُ نَفْسَه دونه، فأردنا أن نطهر الأرض من خمر يزيد[1] فأرقنا دم الحسين، فجاءتنا مصيبة لا يجبرها سرور الدهر.

وما خرج إليه أحد إلَّا بتأويل، ولا قاتلوه إلا بما سمعوا من جدِّه المهيمن على الرسل، المخبر بفساد الحال، المحذِّر من الدخول فى الفتن. وأقواله فى ذٰلك كثيرة: منها قوله صلى الله عليه وسلم[2] «إنه ستكون هناتٌ وهنات، فمن أراد أن يفرِّق أمرَ هٰذه الأُمة وهى جميع فاضربوه بالسيف كائنًا من كان». فما خرج الناسُ إلا بهذا وأمثاله. ولو أن عظيمها وابن عظيمِها وشريفها وابن شريفِها الحسين وسِعَهُ بيتُه أو ضيْعتُه أو إبلُه — ولو جاءَ الخلقُ يطلبونه ليقوم بالحقِّ، وفى جملتهم ابن عباس وابن عمر — لم يلتفت إليهم، وحضره ما أنذر به النبىُّ صلى الله عليه وسلم وما قال فى أخيه[3]، ورأى أنها خرجتْ عن أخيه ومعه جيوشُ الأرض وكبارُ الخلق يطلبونه، فكيف ترجع إليه بأوباش الكوفة، وكبارُ الصحابة ينهوْنه وينأوْن عنه؟ ما أدرى فى هٰذا إلا التسليم لقضاء الله، والحزن على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقية الدهر. ولولا معرفة أشياخ وأعيان الأُمة بأنه أمرٌ صرفه الله عن أهل البيت، وحال من الفتنة لا ينبغى لأحد أن يدخلها، ما أسلموه أبدًا.

وهٰذا أحمد بن حنبل — على تقشُّفه وعظيم منزلته فى الدين وورعه —

(١) أى يزعم مثيرى الفتنة الذين يشهدون بغير ما علموا.

(٢) من حديث عرفجة فى كتاب الإمارة من صحيح مسلم: باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع (ك ٣٣ ح ٥٩ — ج ٦ ص ٢٢).

(٣) «ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

قد أدخل عن يزيد بن معاوية فى (كتاب الزهد) أنه كان يقول فى خطبته : « إذا مَرِض أحدكم مرضًا فأُشفى ثم تماثل ، فلينظر إلى أفضل عمل عنده فلْيلزمْه ولينظر إلى أسوإ عمل عنده فلْيدعْه » وهٰذا يدل على عظيم منزلته عنده حتى يدخله فى جملة الزهاد من الصحابة والتابعين الذين يُقْتَدَى بقولهم ويُرْعَوى من وعظهم ، ونعم . وما أدخله إلا فى جملة الصحابة ، قبل أن يخرج إلى ذكر التابعين . فأين هٰذَا من ذكر المؤرّخين له فى الخمر وأنواع الفجور ، ألا يستحيون ؟! وإذا سلبهم الله المروءة والحياء ، ألا ترعوون أنتم وتزدَجرون ، وتقتدون بالأحبار والرهبان من فضلاء الأُمة ، وترفضون الملحدة والمجان من المنتمين إلى الملة ﴿ هٰذا بيانٌ للناس وهُدى ومَوْعِظةٌ لِلمُتَّقِين ﴾ والحمد لله رب العالمين

وانظروا إلى ابن الزبير بعد ذٰلك وما دخل فيه من البيعة له بمكة ، والأرض كلّها عليه . وانظروا إلى ابن عباس وعقلهِ وإقباله على نفسه . وانظروا إلى ابن عمر وسِنّه وتسليمه للدنيا ونبذه لها . ولو كان للقيام وجه لكان أولىٰ بذٰلك ابنُ عباس ، فإن ولَدَى أخيه عبيد الله قد ذُكر أنهما قتلا ظلمًا (١) . ولٰكنْ رأى بعقله أن دم عثمان لم يُخلص إليه ، فكيف بدم ولدى عبيد الله ! وإن الأمر راهق (٢) ، قد خرجا عنه حفظا للأصل ، وهو اجتماع أمر الأُمة وحقن دمائها وائتلاف كلمتها . ودع الأمرَ يتولّاه أسودُ مجدَّع حسبما أمر به صاحبُ الشرع صلوات الله عليه

(١) كان ذلك سنة ٤٠ فى اليمن آخر ولاية عبيد الله بن عباس عليها لعلى ، فأرسل معاوية إلى الحجاز واليمن بسر بن أبى أرطاة فأخذ له البيعة على أهل الحجاز، ثم توجه بسر إلى اليمن ، فلما علم عبيد الله بمجيئه هرب إلى الكوفة وترك ابنيه فى اليمن فقتلهما بسر فيما يقال .

(٢) أى تداخل حقه فى باطله .

وسلامه (1) . وكلٌّ منهم عظيمُ القدر مجتهد ، وفيما دخل فيه مصيبٌ مأجور ، ولله فيه حُكم قد أنفذه ، وحُكم فى الآخرة قد أحكمه وفرغ منه . فاقدروا هٰذه الأُمور مقاديرها ، وانظروا بما قابلها ابنُ عباس وابنُ عمر فقابلوها ، ولا تكونوا من السفهاء الذين يرسلون ألسنتهم وأقلامهم بما لا فائدة لهم فيه ، ولا يُغْنِى من الله ولا من دنياهم شيئًا عنهم .

وانظروا إلى الأئمة الأخيار وفقهاء الأمصار ، هل أقبَلوا على هذه الخرافات وتكلّموا فى مثل هٰذه الحماقات ؟ بل علموا أنها عصبيّات جاهلية ، وحمية باطلة ، ولا تفيد إلّا قطعَ الحبل بين الخلق ، وتشتيتَ الشمل واختلاف الأهواء – وقد كان ما كان ، وقال الأخباريون ما قالوا – فإما سكوتٌ ، وإما اقتداءٌ بأهل العلم وطرحٌ لسخافات المؤرّخين والأُدباء . والله يكمل علينا وعليكم النعماءَ برحمته .

نكتة

وعجباً لاستكبار الناس ولايَةَ بنى أُمية ، وأولُ من عقد لهم الولاية رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه ولّى يوم الفتح عتاب بن أُسيد ابن أبى العيص بن أُمية مكة – حرمَ الله وخير بلاده – وهو فتىٌّ السن قد أبقل أو لم يُبقل . واستكتب معاوية بن أبى سفيان أمينًا على وحيه . ثم ولّى أبو بكر يزيد بن أبى سفيان – أخاه – الشام . وما زالوا بعد ذٰلك يتوقّلون فى سبيل المجد ، ويترقون فى درج العزّ ، حتى أنهتهم الأيام إلى منازل الكرام .

---

(1) فى كتاب الإمارة من صحيح مسلم من حديث أبى ذر (ك ٣٣ ح ٣٦ – ج٦ص١٤) .

وقد روى الناس أحاديث فيهم لا أصل لها ، منها حديث رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بني أمية ينزون على منبره كالقردة ، فعزّ عليه ، فأعطى ليلة القدر خيرًا من ألف شهر يملكها بنو أمية . ولو كان هٰذا صحيحًا ما استفتح الحالَ بولايتهم ، ولا مكّن لهم في الأرض بأفضل بقاعها وهي مكة . وهٰذا أصلٌ يجب أن تشدَّ عليه اليد .

فإن قيل : أحدث معاويةُ في الإسلام الحكمَ بالباطل ، والقضاءَ بما لا يحلّ من استلحاق زياد . قلنا : قد بينا في غير موضع أن استلحاق زياد إنما كان لأشياء صحيحة ، وعملٌ مستقيم نبيّنه بعد ذكر ما ادّعى فيه المدّعون من الانحراف عن الاستقامة ، إذ لا سبيل إلى تحصيل باطلهم ، لأن خَرْق الباطل لا يُرْقع ، ولسانه أعظم منه فكيف به لا يقطع؟ !

قالوا : كان زيادٌ ينتسب إلى عبيد الثقفي من سمية جارية الحارث ابن كلدة [(١)] ، واشترى [زياد] عبيدًا – أباه – بألف درهم فأعتقه [(٢)].

---

(١) روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة زياد من تاريخ دمشق (٥ : ٤٠٩) عن عوانة بن الحكم الكلبي (أكبر شيوخ المدائني) أن سمية أم زياد كانت لدهقان من دهاقين الفرس ، فاشتكى وجع البطن وخاف أن يكون أصيب بداء الاستسقاء ، فدعا الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب ، – وقد كان قدم على كسرى – فعالج الدهقان فبرأ ، فوهب له سمية ، فولدت له أبا بكرة واسمه مسروح أو نفيع فلم يقر به . ثم ولدت نافعاً فلم يقر به ، فلما نزل أبو بكرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال الحارث بن كلدة لنافع : إن أخاك مسروحاً عبد وأنت ابني : فأقر به يومئذ . وزوجها الحارث غلاماً له يقال له عبيد فولدت زياداً على فراشه ، وكان أبو سفيان سار إلى الطائف فنزل على رجل يقال له أبو مريم السلولي (قال : فأتاه أبو مريم بسمية فوقع بها فولدت زياداً) .

(٢) في ترجمة زياد من تاريخ ابن عساكر (٥ : ٤٠٦ – ٤٠٧) خبر يرويه =

قال ابو عثمان النهدى : فكنا نغبطه . واستعمله عمر على بعض صدقات البصرة ، وقيل بل كتب لأبى موسى [١] ، فلما لم يقطع الشهادة مع الشهود على المغيرة جلدهم وعزله وقال له : ما عزلتك لخزية ، ولكنى كرهتُ أن أحمل على الناس فضلَ عقلك . ورووا أن عمر أرسله إلى اليمن فى إصلاح فساد ، فرجع وخطب خطبة لم يُسمع مثلها ، فقال عمرو بن العاص « أما والله لو كان هذا الغلام قُرشيًّا لساق الناس بعصاه »، فقال أبو سفيان : والله إنى لأعرف الذى وضعه فى رحم أمّه ، فقال له علىّ : ومن ؟ قال : أنا . قال : مهلا يا أبا سفيان . فقال أبو سفيان أبياتًا من الشعر :

أما والله لولا خوف شخص[٢] يرانى يا علىٌّ من الأعادى
لأظهرَ أمرَه صخرُ بن حَرْب ولم تكن المقالةُ عن زياد

=زهرة بن معبد ومحمد بن عمرو عن وفادة زياد وهو فتى على أمير المؤمنين عمر من قبل أبى موسى الأشعرى فى يوم جلولاء قالا : فلما نظر إليه عمر رأى له هيئة حسنة وعليه ثياب بيض من كتان قال له : ما هذه الثياب ؟ فأخبره . فقال : كم أثمانها ؟ فأخبره بشىء يسير ، وصدقه . فقال له : كم عطاؤك ؟ فقال : ألفان . فقال : ما صنعت فى أول عطاء خرج ؟ فقال : اشتريت به والدتى فأعتقتها ، واشتريت بالثانى ربيبى عبيدا فأعتقته . فقال عمر : وفقت . وسأله عن الفرائض والسنن والقرآن فوجده عالماً بالقرآن وأحكامه وفرائضه . فرده إلى أبى موسى ، وأمر أمراء البصرة أن يتبعوا رأيه .

(١) نقل الحافظ ابن عساكر عن الحافظ أبى نعيم أن زيادا كتب لأبى موسى الأشعرى، ثم لعبد الله بن عامر بن كريز ، ثم للمغيرة بن شعبة ، ثم لعبد الله بن عباس — كتب لهؤلاء كلهم على البصرة . وكان أمير المؤمنين علىّ أراده أن يوليه البصرة فأشار زياد عليه أن يوليها عبد الله بن عباس ، ووعده بأن يشير عليه ويعينه .

(٢) يعنى عمر .

وقد طالت مخاتلتى ثَقِيفًا   وتركى فيهمُ ثمر الفؤاد

فذٰلك الذى حمل معاوية .

واستعمله علىٌّ على فارس ، وحمىٰ ، وجبىٰ ، وفتح ، وأصلح .

وكاتبه معاوية يروم إفساده ، فوجَّه [زيادٌ] بكتابه إلى على بشعر ، فكتب إليه على : « إنى وليّتُك ما وليتك وأنت أهل لذٰلك عندى . ولن يُدرِكَ ما تريد بما أنت فيه إلا بالصبر واليقين . وإنما كانت من أبى سفيان فلتة زمن عمر ، لا تستحق بها نسبًا ولا ميراثًا . وإن معاوية يأتى المؤمن من بين يديه ومن خلفه » . فلما قرأ زياد الكتاب قال : « شهدَ لى أبو حسن وربِّ الكعبة » . فذٰلك الذى جرّأ زيادًا ومعاويةَ بما صنعا . ثم ادَّعاه معاويةُ سنة أربع وأربعين ، وزوَّج معاويةُ ابنته من ابنه محمد . وبلغ الخبرُ أبا بكرة — أخاه لأُمه — فآلى يمينًا ألَّا يكلِّمه أبدًا ، وقال « هٰذا زَنَّى أمَّه ، وانتفىٰ من أبيه . والله ما رأتْ سميةُ أبا سفيان قط ، وكيف يفعل بأُم حبيبة [1] : أيراها فيهتك حرمة رسول الله ، وإن حجبتْه فَضحتْه » . فقال زياد : جزى الله أبا بكرة خيرًا ، فإنه لم يدَع النصيحةَ فى حال . وتكلم فيه الشعراء ، ورووا عن سعيد بن المسيب أنه قال : أول قضاء كان فى الإسلام بالباطل استلحاق زياد .

قال القاضى أبو بكر (رضى الله عنه) : قد بيّنا فى غير موضع هٰذا الخبر ، وتكلمنا عليه بما يغْنى عن إعادته ، ولٰكن لابدَّ فى هٰذه الحالة من بيان المقصود منه فنقول :

---

(١) هى أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبى سفيان وأخت معاوية .

كل ما ذكرتم لا ننفيه ولا نثبته لأنه لا يُحتاج إليه . والذى ندريه حقًا ونقطع عليه علمًا أن زيادا من الصحابة بالمولد والرؤية [1] ، لا بالتفقه والمعرفة . وأما أبوه فما علمنا له أبًا قبل دعوى معاوية على التحقيق [2] ، وإنما هى أقوال غائرة من المؤرّخين . وأما شراؤه له فمراعاة للحضانة ، فإنه حضنه عنده إذ دخل عليه ، فله نسب بالحضانة إليه إن كان ذلك .

وأما قولهم إن أبا عثمان [النهدى] غبطه بذلك ، فهو بعيد على أبى عثمان ، فإنه ليس فى أن يبتاع أحد حاضنه أو أباه فيعتقه من المزية بحيث يغبطه عليه أبو عثمان وأمثاله ، لأنَّ هذه مرتبة يدركها الغنى والفقير والشريف والوضيع ، ولو بذل من المال ما يعظم قدره ، فيدرأ به قدر مروءته فى إهانة الكثير العظيم ، فى صلة الولى الحميم . وإنما ساقوا هذه الحكاية ليجعلوا له أباً ، ويكون بمنزلة من انتفى من أبيه .

وأما استعمال عمر له فصحيح ، وناهيك بذلك تزكية وشرفًا ودينا .

وأما قولهم إن عمر عزله لأنه لم يشهد بباطل ، بل روى أنه لما شهد أصحابه الثلاثة [3] وعمر يقول للمغيرة : ذهب ربعك ، ذهب نصفك ،

(١) ترجم له الحافظ ابن حجر فى (الإصابة) والحافظ أبو عمر بن عبد البر فى (الاستيعاب) ونقل فى مولده أنه ولد عام الفتح ، وقيل عام الهجرة ، وقيل يوم بدر . قال ابن حجر : وجزم ابن عساكر بأنه أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ولم يره .

(٢) من الثابت أن الحارث بن كلدة اعترف بأبوّته لنافع أخى زياد لأمه فصار يقال له نافع بن الحارث بن كلدة . ولا يعرف التاريخ أن عبيدا الثقفى أو الحارث بن كلدة اعترفا بزياد .

(٣) أصحابه الثلاثة فى الشهادة على المغيرة أخواه لأمه : نفيع ، ونافع الذى ينسب إلى الحارث بن كلدة ، والثالث شبل بن معبد .

ذهب ثلاثة أرباعك ، فلما جاء زياد قال له : إنى أراك صبيح الوجه ، وإنى لأرجو أن لا يفضح الله على يديك رجلًا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما خطبته التى ذكروا أنه عجب منها عَمْرو ، فما كان عنده فضل علم ولا فصاحة يفوق بها عمرًا فمن فوقه أو دونه . وقد أدخل له الشيخُ المفترى [1] خطبًا ليست فى الحدّ المذكور .

وأما قولهم إن أبا سفيان اعترفَ به ، وقال شعرا فيه ، فلا يرتاب ذو تحصيل فى أن أبا سفيان لو اعترف به فى حياة عمر لم يَخفَ شيئًا ، لأن الحال لم يكن يخلو من أحد قسمين : إما أن يرى عمرُ إلاطته به [2] كما رُوى عنه فى غيره فيمضى ذلك ، أو يردّ ذلك فلا يلزم أبا سفيان شىء باقتراف ما كان فى الجاهلية . فذكرهم هذه الحكاية المخترعَة الباردة المتهافتة الخارجة عن حدّ الدين ولتحصيل لا معنى له

وأما توليةُ علىّ له فتزكية .

وأما بعث معاوية إليه ليكون معه فصحيح فى الجملة . وأما تفصيل ما كتب معاوية ، أو كتب زياد به إلى علىّ ، أو جاوب به علىّ زيادًا ، فهذا كله مصنوع .

وأما قول علىّ « إنما كانت من أبى سفيان فلتة [زمن عمر] لا تستحق بها نسبا » فلو صحّ لكان ذلك شهادة ، كما روى عن زياد ، ولم يكن ذلك بمبطل لما فعل معاوية ، لأنها مسألة اجتهاد بين العلماء : فرأى علىّ شيئًا ، ورأى معاوية وغيرُه غيرَه .

(١) لعله يريد الجاحظ ، وأعظم خطب زياد التى أوردها له فى (البيان والتبيين) خطبته التى تسمى (البتراء) وهى فى أوائل الجزء الثانى .

(٢) أى إلحاقه وإلصاقه .

وأما (نكتة الكلام) وهو القول في استلحاق معاوية زياداً وأخذ الناس عليه فى ذلك ، فأى إخذ عليه فيه إن كان سمع ذلك من أبيه ؟ وأىّ عار على أبى سفيان فى أن يايط بنفسه ولد زنا كان فى الجاهلية . فمعلوم أن سُميَّة لم تكن لأبى سفيان ، كما لم تكن وليدةُ زمعة لعتبة ، لكن كان لعتبة منازع تعين القضاءُ له ، ولم يكن لمعاوية منازع فى زياد

اللهم إنَّ هاهنا نكتة اختلاف العلماءُ فيها ، وهى أن الأخ إذا استلحق أخًا يقول هو ابن أبى ولم يكن له منازع بل كان وحده ، فقال مالك : يرث ولا يثبت النسب . وقال الشافعى ـ فى أحد القولين ـ يثبته النسب ويأخذ المال ، هذا إذا كان المقر به غير معروف النسب . واحتجَّ الشافعىُّ بقول النبىِّ صلى الله عليه وسلم « هو لك يا عبد بن زمعة ، الولد للفراش وللعاهر الحجَر » فقضى بكونه للفراش وبإثبات النسب . قلنا هذا جهل عظيم ، وذلك أن قوله إن النبى صلى الله عايه وسلم قضى بكونه للفراش صحيح ، وأما قوله بثبوت النسب فباطل ، لأن عبدًا ادعى سببين : أحدهما الأُخوة والثانى ولادة الفراش . فلو قال النبى صلى الله عليه وسلم : هو أخوك ، الولد للفراش . لكان إثباتا للحكم وذكرًا للعلة . بيدَ أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم عدل عن الأُخوَّة ولم يتعرَّض لها ، وأعرض عن النسب ولم يصرِّح به ، وإنما فى الصحيح فى لفظ « هو أخوك » وفى آخر « هو لك » ، معناه فأنت أعلم به . وقد مهَّدنا ذلك فى مسائل الخلاف [1] .

فالحارث بن كلدة لم يدّع زيادا ولا كان إليه منسوبا ، وإنما كان ابن أمته ولد على فراشه ـ أى فى داره ـ فكل من ادعاه فهو له ، إلا أن يعارضه من هو أولى به منه ، فلم يكن على معاوية فى ذلك مَغمز ، بل

(١) للمؤلف كتاب (الإنصاف فى مسائل الخلاف) ٢٠ مجلداً .

فعل فيه الحقَّ على مذهب مالك .

فإن قيل : فلِم أنكر عليه الصحابة ؟

قلنا : لأنها مسألة اجتهاد ، فمن رأى أنَّ النسبَ لا يلحق بالوارث الواحد أنكر ذلك وعظَّمه .

فإن قيل : ولمَ لعنوه ، وكانوا يحتجُّون بقول النبي صلى الله عليه وسلم « ملعون من انتسب لغير أبيه ، أو انتمى إلى غير مواليه » ؟

قلنا : إنما لعنه من لعنه لوجهين : أحدُهما لأنه أثبت نسبه من هذا الطريق ، ومن لم ير لعنه لهذا لعنه لغيره . وكان زياد أهلًا أن يُلعن — عندهم — لما أحدثَ بعد استلحاق معاوية [1] .

فإن قيل : جعلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم للزنا حُرْمة ، ورتب عليها حُكمًا حين قال « احتجبي منه يا سَوْدة » [2] ، وهذا يدلُّ على أن الزنا

(١) وأهم ذلك — عندهم — تسببه فى قتل حجر بن عدى ، وقد مضى الكلام عليه فى ص ٢١١ — ٢١٣

(٢) فى كتاب الأقضية من (موطأ مالك) ب ٢١ ص ٧٤٠ عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت : كان عتبة بن أبى وقاص عهد إلى أخيه سعد بن أبى وقاص أن ابن وليدة زمعة منى (*) ، فاقبضه إليك . قالت فلما كان عام الفتح أخذه سعد وقال : ابن أخى ، قد كان عهد إلىّ فيه . فقام إليه عبد بن زمعة فقال : أخى ، وابن وليدة أبى ، ولد على فراشه . فتساوقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال سعد : يا رسول الله ، ابن أخى ، قد كان عهد إلىّ فيه . وقال عبد بن زمعة : أخى ، وابن وليدة أبى ، ولد على فراشه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هو لك يا عبد بن زمعة » . ثم قال صلى الله عليه وسلم « الولد للفراش ، وللعاهر الحجر » . ثم قال لسودة بنت زمعة « احتجبي منه » لما رأى من شبهه بعتبة بن أبى وقاص . قالت : فما رآها حتى لقى الله عز وجل . وأخرجه البخارى (ك ٣٤ ب ٣) ومسلم (ك ١٧ ب ١٠ ح ٣٦) .

(*) وليدة زمعة : جاريته .

يتعلق به من حُرمة الوطء ما يتعلق بالنكاح الصحيح . هٰكذا قال الكوفيون . ومالك فى رواية ابن القاسم يساعدهم عن المسالة ولا يساعدهم على دليلها من هٰذا الوجه ، وقد بينّاها فى كتاب النكاح . وقال الشافعى : العذر فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم لسودة بالاحتجاب مع ثبوت نسبه من زمعة وصحة أُخوته لها بدعوىٰ عبد أن ذٰلك تعظيم لحرمة أزواج النبى صلى الله عليه وسلم لأنهن لم يكنّ كأَحد من النساء فى شرفهن وفضلهنّ .

قلنا : لو كان أخاها بنسب ثابت صحيح كما قلتم ، ويكون قول النبى صلى الله عليه وسلم « الولد للفراش » تحقيقا للنسب ، لما منع النبى صلى الله عليه وسلم سودة منه ، كما لم يمنع عائشة من الرجل الذى قالت : هو أخى من الرضاعة ، وإنما قال « انظرن من إخوانكن » .

وأما ما روى عن سعيد بن المسيب ، فأُخبر عن مذهبه فى أن هٰذا الاستلحاق ليس بصحيح ، وكذٰلك رأى غيره من الصحابة والتابعين . وقد صارت المسألة إلى الخلاف بين الأُمة وفقهاء الأمصار ، فخرجت من حدّ الانتقاد إلى حد الاعتقاد . وقد صرح مالك فى كتاب الإسلام وهو (الموطأ) بنسبه فقال فى دولة بنى العباس « زياد بن أبى سفيان » ، ولم يقل كما يقول المجادل « زياد بن أبيه » هٰذا على أنه لا يرى النسب يثبت بقول واحد . ولٰكن فى ذٰلك فقهٌ بديع لم يفطن له أحد ، وهو أنها لما كانت مسألة خلاف ، ونفذ الحكم فيها بأحد الوجهين ، لم يكن لها رجوع ، فإن حكم القاضى فى مسائل الخلاف بأحد القولين يمضيها ويرفع الخلاف فيها . والله أعلم

وأما روايتهم أن عمر قال « كرهتُ أن أحمل فضل عقلك على الناس » فهٰذه زيادة ليس لها أصل ، من ناقص عقل . وأى عقل كان

لزياد يزيد على الناس فى أيام عمر [1] ، وكل واحد من الصحابة كان أعقل من زياد وأعلم منه ولهذا كل من كمل عقله أكثر من الآخر فهو أولى أن يختلط مع الناس . ويقولون : كان داهية ، وهى كلمة واهية . الدهاء والأرب هو المعرفة بالمعانى ، والاستدلال على العواقب بالمبادئ وكل أحد من الصحابة والتابعين فوق زياد وتلك الروايات التى يروى المؤرخون – من كذبهم – فى حِيل الحرب والفتك بالناس ، كلُّ أحد اليوم يقدر على مثلها وأكثر منها ، والحيلة إنما تكون بديعة وتبنى وتروى إذا وافقت الدين ، وأما كلُّ حكاية تخالف الدين فليس فى روايتها خير ولا عقل . وكل الناس كما قدمنا – وخذ من ولاة بنى أمية خاصة – أعقلُ من زياد وأفصح منه . فلا تلتفتوا إلى ما رُوى من الأباطيل

نكتة

الولايات والعزّلات لها معان وحقائقُ لا يعلمها كثير من الناس . لقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات عن زُهاء اثنى عشر ألفًا من الصحابة معلومين . منهم ألفان أو نحوهما مشاهير فى الجلالة ، ولّى منهم أبو بكر سعدًا وأبا عبيدة ويزيدَ وخالد بن الوليد وعِكرِمة ابن أبى جهل ونفرا غيرهم فوقهم ، وولّى أنس بن مالك ابن عشرين سنة على البحرين اقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فى عتاب [2] . ومتى كان استوفى المشيخة حتى يأخذ الشبان ..وولى عمرُ أيضا كذلك ، وبادر بعزل خالد . وذلك كله لفقه عظيم ومعارف بديعة بيانُها فى موضعها

(١) لأنه كان لما دخل على عمر فى السابعة عشرة من عمره على ما نقله البخارى فى تاريخه الأوسط عن يونس بن حبيب عن آل زياد .

(٢) عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية (انظر ص ٢٣٤) .

من كتب الإمامة والسياسة من الأُصول ، فخذوا فى غير هذا ... هٰذا الباب ، مما تلوكه أشداقُ أهل الآداب

وأما ما رُوى عن معاوية أنه استدعى شهودا فشهد السلولى وسواه[1] فسلْ من ألحق ما روى عن السلولى ، فإنه لم يكن قط . واسعدْ بإسقاط ما روى فى القصة سعيد أو سعد . وأما كلام أبى بكرة – أخيه لأُمه – فيه فغير ضائر له ، لأن ذٰلك رأى أبى بكرة واجتهادُه . وأما قولهم فيها عن أبى بكرة أنه زنّى أمه ، فلو كان ذٰلك صحيحا لم يضرَّ أُمه ما جرى فى الجاهلية فى الدين ، فإن الله عفا عن أهل الجاهلية كلها بالإسلام ، وأسقط الإثم والعار منه ، فلا يذكره إلا جاهلٌ به .

قال القاضى أبو بكر (رضى الله عنه) : والناس إذا لم يجدوا عيباً لأحد وغلبهم الحسدُ عليه وعداوتهم له أحدثوا له عيوباً . فاقبلوا الوصية ، ولا تلتفتوا إلّا إلى ما صحَّ من الأَخبار ، واجتنبوا – كما ذكرتُ لكم – أهل التواريخ ، فإنهم ذكروا عن السلف أ... صحيحة يسيرة ليتوسّلوا بذٰلك إلى رواية الأَباطيل ، فيقذفوا – ... قدمنا – فى قلوب الناس مالا يرضاه الله تعالى ، وليحتقروا السلف ويُهوِّنوا

(١) السلولى مالك بن ربيعة أبو مريم ، وكان ذلك سنة ٤٤ ، وكان معه فى الشهادة زياد بن أسماء الحرمازى والمنذر بن الزبير – فيا ذكر المدائنى بأسانيده – وجويرية بنت أبى سفيان والمسور بن قدامة الباهلى وابن أبى نصر الثقفى وزيد بن نفيل الأزدى وشعبة بن العلقم المازنى ورجل من بنى عمرو بن شيبان ورجل من بنى المصطلق ، شهدوا كلهم على أبى سفيان أن زياداً ابنه ، إلا المنذر فشهد أنه سمع علياً يقول : أشهد أن أبا سفيان قال ذلك . فخطب معاوية فاستلحق زياداً ، وتكلم زياد فقال : إن كان ما شهد به الشهود حقاً فالحمد لله ، وإن كان باطلا فقد جعلتهم بينى وبين الله .

الدين ، وهو أعزُّ من ذٰلك ، وهم أكرم منا ، فرضى الله عن جميعهم .

ومن نظر إلى أفعال الصحابة تبين منها بطلان هٰذه الهتوك التى يختلقها أهل التواريخ فيدسُّونها فى قلوب الضعفاء ، وهٰذا زياد لما أحس المنية استَخلف سمرة بن جُندب من كبار الصحابة فقبل خلافته ، وكيف يُظن به ــ على منزلته ــ أنه يقبل ولاية ظالم لغير رشْدة ، وهو على ما هو عليه من الصحبة ، وذٰلك من غير إكراه ولا تقيَّة ؟ إن هٰذا لهوَ الدليل المبين . فمع منْ تحبون أن تكونوا : مع سمرة بن جندب ، أو مع المسعودى والمبرد وابن قتيبة ونظرائهم[1] ؟ وهٰذا غاية فى البيان .

قاصمة

كانت الجاهلية مبنية على العصبية ، متعاملة بينها بالحمية . فلما جاء الإسلام بالحق ، وأظهر الله مِنَّته على الخلق ، قال سبحانه ﴿ واذكُرُوا نِعْمة اللهِ عليْكمْ إذ كُنْتُمْ أعْداءً فألَّفَ بيْن قلوبكمْ فأصْبحتم بنِعْمتِهِ إخوانا ﴾ ، [آل عمران : ١٠٣] ، وقال لنبيه : ﴿ لَو أنفقْتَ ما فِى الأرْضِ جمِيعًا ما ألفْتَ بيْن قلُوبهِمْ ، ولٰكِنَّ الله ألَّف بيْنهُمْ ﴾ ، [الأنفال : ٦٣] ، فكانت بركة النبى صلى الله عليه وسلم تجمعهم وتجمع شملهم ، وتصلح قلوبهم ، وتمحو ضغائنهم .

---

(١) حكم القاضى أبو بكر على ابن قتيبة هذا الحكم القاسى وهو يظن أن كتاب (الإمامة والسياسة) من تأليفه كما سيأتى . وكتاب الإمامة والسياسة ذكرت فيه أمور وقعت بعد موت ابن قتيبة ، فدل ذلك على أنه مدسوس عليه من خبيث صاحب هوى ، ولو وقف المؤلف على هذه الحقيقة لوضع الجاحظ ومن هم دون الجاحظ فى موضع ابن قتيبة .

واستأثر الله برسوله صلى الله عليه وسلم ، ونفرت النفوسُ ، وتماسكت الظواهرُ مُنجرَّة ما دام الميزان قائماً . فلما رُفع الميزان ــ كما تقدم ذكره [1] في الحديث ــ أخذ الله القلوب عن الأُلفة ، ونشر جناحا من التقاطع ، حتى سوّى جناحين بقتل عثمان ، فطار في الآفاق ، واتصل الهرج إلى يوم المساق . وصارت الخلائقُ عِزين [2] ، في كل واد من العصبية يهيمون : فمنهم بكْرية ، وعُمرية ، وعثمانية ، وعلوية ، وعباسية ــ كل تزعم أن الحق معها وفي صاحبها ، والباقي ظلوم غشوم مُقتر من الخير عديم . وليس ذلك بمذهب ، ولا فيه مقالة ، وإنما هي حماقات وجهالات ، أو دسائس للضلالات ، حتى تضمحلَّ الشريعة ، وتهزأ الملحدة من الملّة ، ويلهو بهم الشيطانُ ويلعب ، وقد سار بهم في غير مَسير ولا مذهب .

قالت البكرية : أبو بكر نص عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة ، ورضيته الأُمة للدنيا ، وكان عند النبي صلى الله عليه وسلم بتلك المنزلة العليا ، والمحبة الخالصة . وولي فعدل ، واختار فأجاد . إلا أنه أوهم في عمر فإنه أمره غليظ : وفظاظته غلبت . وذكروا معايب . وأما عثمان فلم يخف ما عمل . وكذلك علي . وأما العبّاس فغير مذكور .

وقالت العمرية : أما أبو بكر ففاضل ضعيف . وعمر إمامٌ عدْل قوي بمدح النبي صلى الله عليه وسلم له في حديث الرؤيا والدلو والعبقري كما تقدم [3] . وأما عثمان فخارج عن الطريق : ما اختار والياً ، ولا وفّى أحدا حقا ، ولا كف أقاربه ، ولا اتبع سنن من كان قبله . وأما علي فجرئٌ على الدماء . لقد سمعت في مجالس أن ابن جريج [4] كان يقدم

---

(1) في ص ١٩٠ (2) جمع عِزَة : العصبة من الناس (3) في ص ١٨٨

(4) عبد الملك بن عبد العزيز المكي أحد الأعلام توفي سنة ١٥٠

عمر على أبي بكر . وسمعت الطرطوشي [1] يقول : لو قال أحدٌ بتقديم عمر لتبعته .

وقالت العثمانية : عثمان له السوابق المتقدمة ، والفضائل والفواضل في الذات والمال ، وقُتل مظلومًا .

وقالت العلوية : علي ابن عمه وصهرُه وأبو سبطي النبي صلى الله عليه وسلم وولدُ النبي صلى الله عليه وسلم حضانة .

وقالت العباسية : هو أبو النبي صلى الله عليه وسلم وأولادهم بالتقديم بعده . وطوّلوا في ذلك من الكلام مالا معنى لذكره لدناءته [2] . ورووا أحاديث لا يحلُّ لنا أن نذكرها لعظيم الافتراء فيها ودناءة رواتها .

وأكثرُ الملحدة على التعلق بأهل البيت [3] ، وتقدمة عليٍّ على جميع الخلق [4] ، حتى إن الرافضة انقسمت إلى عشرين فرقة أعظمهم بأسًا من يقول إن عليًا هو الله . والغرابية يقولون إنه رسول الله لكن جبريل عدل بالرسالة عنه إلى محمد حميةً منه معه ... في كفرٍ بارد لا تسخّنه إلا حرارة السيف ، فأما دِفْءُ المناظرة فلا يؤثر فيه .

عاصمة

إنما ذكرت لكم هذا لتحترزوا من الخلق ، وخاصة من المفسرين ،

---

(1) من شيوخ المؤلف ، انظر ترجمة ابن العربي في أول الكتاب .

(2) وكان أكثر ذلك في زمن دولتهم .

(3) يتخذونهم ذريعة ، ويطعنون في كثير من أفاضلهم ، ويعرّضون بمثل الإمام زيد ، بل يجحدون أخوات فاطمة . ثم إنهم يخالفون صريح شريعة جدّ أهل البيت بدعوى العصمة والتأليه الفعلي لبعض أفرادهم .

(4) حتى الأنبياء ، ويغطون على جريمتهم باستثناء نبينا صلى الله عليه وسلم .

والمؤرخين ، وأهل الآداب ، بأنهم أهل جهالة بحرمات الدين ، أو على بدعة مصريين ، فلا تبالوا بما رووا ، ولا تقبلوا روايةَ إلا عن أئمة الحديث ، ولا تسمعوا المؤرّخ كلامًا إلا للطبرى [1] ، وغير ذلك هو الموت الأحمر ، والداءُ الأكبر . فإنهم ينشئون أحاديثَ فيها استحقارُ الصحابة والسلف ، والاستخفاف بهم ، واختراعُ الاسترسال فى الأقوال والأفعال عنهم ، وخروجُ مقاصدهم عن الدين إلى الدنيا ، وعن الحقّ إلى الهوىٰ . فإذا قاطعتم أهل الباطل واقتصرتم على رواية العدول ، سلمتم من هذه الحَبائل . ولم تطووا كشْحًا على هٰذه الغوائل ومِن أشدّ شيء على الناس جاهلٌ عاقل ، أو مبتدعٌ محتال . فأمّا الجاهل فهو ابن قتيبة ، فلم يبقِ ولم يذر للصحابة رسما فى كتاب (الإمامة والسياسة) إن صحّ عنه جميع ما فيه [2]

(١) ومع ذلك فالطبرى ذكر مصادر أخباره وسمى رواتها لنكون من أمرهم على بينة ، وقال فى آخر مقدمة كتابه : فما يكن فى كتابى هذا من خبر يستنكره قارئه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً فى الصحة فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا ، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا (انظر مجلة الأزهر : صفر ١٣٧٢ ص ٢١٠ — ٢١٥) .

(٢) لم يصح عنه شيء مما فيه . ولو صحت نسبة هذا الكتاب للإمام الحجة الثبت أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣ — ٢٧٦) لكان كما قال عنه ابن العربى ، لأن كتاب الإمامة والسياسة مشحون بالجهل والغباوة والركة والكذب والتزوير . ولما نشرتُ لابن قتيبة كتاب (الميسر والقداح) قبل أكثر من ربع قرن ، وصدرته بترجمة حافلة له ، وسميت مؤلفاته ، ذكرت (فى ص ٢٦ — ٢٧) مآخذ العلماء على كتاب الإمامة والسياسة ، وبراهينهم على أنه ليس لابن قتيبة ، وأزيد الآن على ما ذكرته فى (الميسر والقداح) أن مؤلف الإمامة والسياسة يروى كثيراً عن اثنين من كبار علماء مصر ، وابن قتيبة لم يدخل مصر ولا أخذ عن هذين العالمين ، فدل ذلك كله على أن الكتاب مدسوس عليه .

وكالمبرّد فى كتابه الأدبى[1] . وأين عقله من عقل ثَعْلب الإمام المتقدم فى أماليه ، فإنه ساقها بطريقة أدبية سالمة من الطعن على أفاضل الأمة .
وأما المبتدع المحتال فالمسعودى ، فإنه يأتى منه مُتاخمة الإلحاد فيما روى من ذلك ، وأما البدعة فلا شك فيه[2] . فإذا صُنتم أسماعكم وأبصاركم عن مطالعة الباطل ، ولم تسمعوا فى خليفة مما يُنسبُ إليه مالا يليق ويُذكر [عنه] مالا يجوز نقله ، كنتم على منهج السّلف سائرين ، وعن سبيل الباطل ناكبين .

فهذا مالك رضى الله عنه قد احتجّ بقضاء عبد الملك بن مروان فى مُوطّإه وأبرزه فى جملة قواعد الشريعة[3]

---

(١) المبرد ينزع إلى شيء من رأى الخوارج ، وله فيهم هوى . وإن إمامته فى اللغة والأدب لا تغطى على ضعفه فى علم الرواية والإسناد . وإذا كان أبو حامد الغزالى على جلالته فى العلوم الشرعية والعقلية لم يتجاوز له العلماء عن ضعفه فى علوم الإسناد فأحرى ألا يتجاوزوا عن مثل ذلك للمبرد . وعلى كل حال فكل خبر مما مضى أو سيأتى — فى أمتنا أو فى أى أمة غيرها — يحتمل الصدق والكذب حتى يثبت صدقه أو كذبه على محك الاختبار وبالبحث العلمى .

(٢) على بن الحسين المسعودى يعده الشيعة من شيوخهم وكبارهم ، ويذكر له المامقانى فى تنقيح المقال (٢ : ٢٨٢ — ٢٨٣) مؤلفات فى الوصاية وعصمة الإمام وغير ذلك مما يكشف عن عصبيته والتزامه غير سبيل أهل السنة المحمدية . ومن طبيعة التشيع والتحزب والتعصب البعد بصاحبه عن الاعتدال والإنصاف .

(٣) من ذلك ما جاء فى (باب المستكرهة من النساء) بكتاب الأقضية من الموطأ (ص ٧٣٤) : حدثنى مالك عن ابن شهاب أن عبد الملك بن مروان قضى فى امرأة أصيبت مستكرهة بصداقها على من فعل ذلك بها . وفى كتاب المكاتب من الموطأ (ص ٧٨٨) =

وقال فى روايته : « عن زياد بن أبى سفيان » . فنسبه إليه وقد علم قصته ، ولو كان عنده ما يقول العوام حقًا لما رضى أن ينسبه ولا ذكره فى كتابه الذى أسسه للإسلام [1] ، وقد جُمع ذلك كله فى أيام بنى العباس والدولةُ لهم والحكمُ بأيديهم فما غيّروا عليه ولا أنكروا ذلك منه لفضل علومهم ومعرفتهم بأن مسألة زياد مسألة قد اختلف الناس فيها فمنهم من جوّزها ومنهم من منعها ، فلم يكن لاعتراضهم إليها سبيل.

وكذلك أعجبهم – حين قرأ الخليفة على مالك الموطأ – ذكرُ عبد الملك بن مروان فيه وإذكاره بقضائه ، لأنه إذا احتجَّ العلماء بقضائه فسيحتج بقضائه أيضًا مثله ، وإذا طعن فيه طعن فيه بمثله [2] .

= قضاء آخر لعبد الملك ، وفى كتاب العقول من الموطأ (ص ٨٧٢) قضاء له أيضاً . أما أبوه مروان بن الحكم فأقضيته وفتاواه كثيرة فى الموطأ وغيره من كتب السنة المتداولة فى أيدى أئمة المسلمين يعملون بها من أيام الخير إلى الآن . وانظر لورع مروان وابنه عبد الملك حديث مالك عن ابن أبى عبلة فى كتاب النكاح من الموطأ (ص ٥٤٠) .

(١) وعامر بن شراحيل الشعبى كان من أئمة المسلمين كذلك، بل إن مالكاً كان يراه إماماً له . وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة زياد من تاريخ دمشق (٥ : ٤٠٦) أن الشعبى قال : أتت زياداً قضية فى رجل مات وترك عمة وخالة فقال : « لأقضين بينكم بقضاء سمعته من عمر بن الخطاب » وذلك أنه جعل العمة بمنزلة الأخ والخالة بمنزلة الأخت

(٢) وممن روى عن عبد الملك بن مروان البخارى فى كتابه (الأدب المفرد.) وروى عن عبد الملك الإمام الزهرى ، وعروة بن الزبير ، وخالد بن معدان من فقهاء التابعين وعبّادهم ، ورجاء بن حيوة أحد الأعلام . قال نافع مولى ابن عمر : لقد رأيته المدينة وما فيها شاب أشد تشميراً ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان . =

وأخرج البخارى [1] عن عبد الله بن دينار قال : شهدتُ ابنَ عمر حيث اجتمع الناس على عبد الملك بن مروان كتبَ : « إنى أقرُّ بالسمع والطاعة لعبد الملك أمير المؤمنين على سنَّة الله وسنَّة رسوله ، ما استطعتُ . وإن بنيَّ قد أقروا بمثل ذٰلك » .

وهٰذا المأمون كان يقول بخلق القرآن ، وكذٰلك الواثق ، وأظهروا بدعتهم ، وصارت مسألة معلومة إذا ابتدع القاضى أو الإمام هل تصحُّ ولايته وتنفذ أحكامه أم هى مردودة ؟ وهى مسألة معروفة . وهذا أشدُّ من برودات أصحاب التواريخ من أن فلانًا الخليفة شرب الخمر أو غنى أو فسق أو زنى ، فإن هذا القول فى القرآن بدعة أو كفر – على اختلاف العلماء فيه – قد اشتهروا به ، وهذه المعاصى لم يتظاهروا بها إن كانوا فعلوها ، فكيف يثبت ذٰلك عليهم بأقوال المغنين والبراد من المؤرخين [الذين] قصدوا بذكر ذٰلك عنهم تسهيل المعاصى على الناس وليقولوا إذا كان خلفاؤنا يفعلون هٰذا فما يستبعد ذٰلك منا . وساعدهم الرؤساء على إشاعة هٰذه الكتب وقراءتها لرغبتهم فى مثل أفعالهم حتى صار المعروف منكرا والمنكر معروفًا ، وحتى سمحوا للجاحظ أن

=وروى الأعمش عن أبى الزناد أن فقهاء المدينة كانوا أربعة : سعيد بن المسيب وعروة ابن الزبير وقبيصة بن ذؤيب وعبد الملك بن مروان قبل أن يدخل الإمارة . وقال الشعبى : ما جالست أحداً إلا وجدت لى الفضل عليه ، إلا عبد الملك بن مروان فإنى ما ذاكرته حديثاً إلا زادنى منه ، ولا شعراً إلا زادنى فيه (البداية والنهاية ٩ : ٦٢ – ٦٣) .

(1) فى كتاب الأحكام من صحيحه (ك ٩٣ ب ٤٣ – ج ٨ ص ١٢٢) . وانظر للسنن الكبرى للبيهقى ٨ : ١٤٧ ؛

تقرأ كتبه فى المساجد وفيها من الباطل والكذب والمناكير ونسبة الأنبياء إلى أنهم ولدوا لغير رشدة كما قال فى إسحاق صلى الله عليه وسلم فى كتاب الضلال والتضلال ، وكما مكّنوا من قراءة كتب الفلاسفة فى إنكار الصانع وإبطال الشرائع لما لوزرائهم وخواصّهم فى ذلك من الأغراض الفاسدة والمقاصد الباطلة ، فإن زلّ فقيه أو أساء العبارة عالم :

يكن ما أساء النار فى رأس كبكبا (١)

وبالوقوف على هذه الفصول تحسُن نيّاتكم ، وتسلم عن التغير قلوبكم على من سبق .

وقد بينتُ لكم أنكم لا تقبلون على أنفسكم فى دينار ، بل فى درهم ، إلّا عدلًا بريئًا من التهم ، سليماً من الشهوة . فكيف تقبلون فى أحوال السّلَف وما جرى بين الأوائل ممن ليس له مرتبة فى الدين ، فكيف فى العدالة !

ورحم الله عمر بن عبد العزيز حيث قال وقد تكلّموا فى الذى جرى بين الصحابة : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خلتْ ، لها ما كَسَبتْ ولكُمْ ما كسبْتُمْ ، ولَا تُسْئلُون عمّا كَانُوا يعْملون ﴾ ، [البقرة : ١٣٤]

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

---

(١) كبكب : جبل خلف عرفات مشرف عليها ، كان لبنى عامة بن لؤى قبل أن يجلوا إلى عُمان . والشعر للأعشى ، وتمامه :

ومن يغترب عن قومه لا يزل يرى	مصارع مظلوم مجرّاً ومسحبا
وتدفن منه الصالحات ، وإن يسئ	يكن ما أساء النارَ فى رأس كبكبا

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

اصطلاحات

١ — اختزلنا في الفهرس التاريخي كلمة « ابن » بحرف « ب »

٢ — اعتبرنا في الترتيب الهجائي أوائل حروف الأعلام . وإذا كان فيها « أل » أو « أبو » أو « ابن » وأمثال ذلك اعتبرنا هذه الزيادات كأنها غير موجودة . فالاسم « أبو بكر » يبحث عنه في « بكر » و « ابن الجيسهان » في جيسهان و « أم اسحاق » في « اسحاق » .

٣ — إذا كان لرجل اسم وكنية أو لقب وضعنا أمام الكنية أو اللقب « : » وبعدها الاسم ليرجع القارئ إلى الاسم الذى بعد « : »

فهرس هجائى للأعلام التاريخية

(ب)

(ت — ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د — ذ)

(ر — ز)

(ش)

(ص – ض – ط)

(ع)

(ك — ل)

(م)

فهرس الأعلام الجغرافية

(ط — ظ — ع — غ)

(ف — ق — ك)

بعض المراجع

لكتابة تعليقات الكتاب، وترجمة القاضى ابن العربى

ديوان ذى الرمة غيلان بن عقبة (٧٧ – ١١٧) . مخطوطتنا الخاصه
موطأ مالك بن أنس (٩٣ – ١٧٩) بتعليقات الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ١٣٧٠
كتاب الخراج للقاضى أبى يوسف (١١٣ – ١٨٢) . طبع السلفية
« « ليحيى بن آدم (وفاته ٢٠٣) بشرح الشيخ أحمد شاكر . السلفية ١٣٨٤
طبقات ابن سعد (١٦٨ – ٢٣٠) طبع ليدن ١٣٢١
نسب قريش لمصعب بن عبد الله الزبيرى (١٥٦ – ٢٣٦)
مسند أحمد (١٦٤ – ٢٤١) . الطبعة الأولى بمصر ١٣١٣
« « بتحقيق الشيخ أحمد شاكر . (صدر منه ٩ أجزاء)
كتاب الزهد للإمام أحمد . طبع مكة سنة ١٣٥٧
صحيح البخارى (١٩٤ – ٢٥٦) الطبعة السلطانية بالقسطنطينية ١٣١٥
« مسلم (٢٠٦ – ٢٦١) « « « ١٣٢٩
سنن أبى داود (٢٠٢ – ٢٧٥) طبع دهلى ١٢٧٢
سنن ابن ماجة (٢٠٩ – ٢٧٣) . بتحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى مصر ١٣٧٣
جامع الترمذى (٢٠٩ – ٢٧٩) وشرحه عارضة الأحوذى لابن العربى . مصر ١٣٥٠
سنن النسائى (٢١٥ – ٣٠٣) . مصر ١٣١٢
البيان والتبيين للجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥) . مصر ١٣٣٢
ديوان الحطيئة بشرح أبى سعيد السكرى (٢١٢ – ٢٧٥) . مصر
الميسر والقداح لابن قتيبة (٢١٣ – ٢٧٦) . طبع السلفية ١٣٨٥
فتوح البلدان للبلاذرى (المتوفى سنة ٢٧٩) . مصر ١٣٥٠
أنساب الأشراف للبلاذرى . القدس ٣٦ – ١٩٣٨
تاريخ الطبرى (٢٢٤ – ٣١٠) . مصر ١٣٢١
تفسير الطبرى : طبع بولاق ١٣٢٣
كتاب العزلة لأبى سليمان الخطابى (٣١٧ – ٣٨٨) . مصر ١٣٥٢
المستدرك على الصحيحين للحاكم بن البيع (٣٢١ – ٤٠٥) . حيدر أباد الدكن ٣٥ – ١٣٤٢

الأحكام السلطانية الماوردى (٣٦٦ — ٤٥٠) . مصر ١٣٢٧
التمهيد لأبى بكر الباقلانى (وفاته ٤٠٣) . بتحقيق الأستاذ الخضيرى ١٣٦٦
الاستيعاب لابن عبد البر (٣٦٨ — ٤٦٣) بهامش الإصابة . مصر ١٣٢٨
الفصل فى الملل والنحل لابن حزم (٣٨٤ — ٤٥٧) . مصر ١٧ — ١٣٢١
الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم . مصر ٤٥ — ١٣٤٨
السنن الكبرى للبيهقى (٣٨٤ — ٤٥٨) . حيدر أباد الدكن ٤٤ — ١٣٥٥
الكفاية للخطيب البغدادى (٣٩٢ — ٤٦٣) حيدر أباد ١٣٥٧
معجم ما استعجم للبكرى (وفاته ٤٨٧) بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا ٦٥ — ١٣٧١
مطمح الأنفس للفتح بن خاقان القيسى (وفـــاته ٥٣٥) . طبع الجوائب ١٣٠٢
تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٩٩ — ٥٧١) . دمشق ٢٩ — ١٣٥١
النهاية فى غريب الحديث للمجد ابن الأثير (٥٤٤ — ٦٠٦) . مصر ١٣١١
معجم البلدان لياقوت (٥٧٤ — ٦٢٦) . طبعة وستنفلد . لايبسيك ١٨٧٠
المنتقى من أحاديث الأحكام لمجد الدين عبد السلام بن تيمية (٤٩٠ — ٦٥٢)
وفيات الأعيان لابن خلكان (٦٠٨ — ٦٨١) . مصر ١٢٩٩
لسان العرب لابن منظور (٦٣٠ — ٧١١) . طبع بولاق ١٣٠ — ١٣٠٨
منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ — ٧٢٨) . بولاق ١٣٢١
المنتقى من منهاج الاعتدال مختصر منهاج السنة للذهبى (٦٧٣ — ٧٤٨) طبع السلفية
لسان الميزان للحافظ الذهبى (٦٧٣ — ٧٤٨) . مصر ١٣٢٥
تذكرة الحفاظ للذهبى . طبعة حيدر أباد الدكن ٣٣ — ١٣٣٤
التمهيد والبيان فى مقتل عثمان لابن بكر الأشعرى (٦٧٤ — ٧٤١) مخطوطة دار الكتب
البداية والنهاية لابن كثير (٧٠١ — ٧٧٤) . طبع مصر
المراقبة العليا للنباهى (المولود سنة ٧١٣) بتحقيق پروفنسال ١٣٦٧
طبقات الشافعية لابن السبكى (٧٢٨ — ٧٧١) . مصر ١٣٢٤
الديباج المذهب لابن فرحون (المتوفى سنة ٧٩٩) . مصر ١٣٢٩
العبر لولى الدين ابن خلدون (٧٣٢ — ٨٠٦) بولاق ١٢٨٤
الروض الباسم فى الذب عن سنة أبى القاسم لابن الوزير (٧٧٥ — ٨٤٠) المنيرية ١٣٤٦
الإصابة للحافظ ابن حجر (٧٧٣ — ٨٥٢) . مصر ١٣٢٨
فتح البارى للحافظ ابن حجر . السلفية ١٣٨٠
لسان الميزان لابن حجر . حيدر أباد الدكن ٣٠ — ١٣٣١
تهذيب التهذيب لابن حجر . لكنو بالهند ١٣٢١
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين عبد الرحمن بن محمد العليمى المقدسى
(٨٦٠ — ٩٢٧) . طبعة مصر ١٢٨٣

خلاصة تذهيب الكمال للصفى الخزرجى (ألفها سنة ٩٢٢) . طبع مصر ١٣٢٣
شذرات الذهب لابن العماد (١٠٣٢ - ١٠٨٩) . مصر ٥٠ - ١٣٥١
تاج العروس للمرتضى الحسينى (١١٤٥ - ١٢٠٥) . مصر ٦٧ - ١٣٠٧
فصل الخطاب لعدو الله حسين النورى الطبرسى . إيران ١٢٩٨
تنقيح المقال للمامقانى (١٢٩٠ - ١٣٥١) طبع النجف ١٣٥٢
شجرة النور الزكية لمخلوف . طبع السلفية ٤٩ - ١٣٥٠
تاريخ القرآن والمصاحف لأبى عبد الله الزنجانى . مصر ١٣٥٤
عثمان بن عفان للشيخ صادق عرجون . مصر ١٣٦٦
مجلة الأزهر
مصطلح التاريخ للدكتور أسد رستم



(رقم إيداع دار الكتب /١٩٧٩)